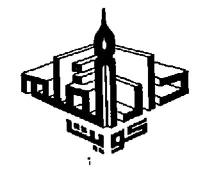
فى موكب النبيين

دراسة تحليلية هادفة لسير الأنبياء السابقين
فى ضوء الآيات القرآنية والثابت من الأحاديث الشريفة

الجزء الأول

تأليف

سيد أحمد الكيلانى



فى موكب النبيين
أحداث و عبر

الطبعة الأولى
١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

دار القلم ــ الكويت
شارع السور ــ بجانب وزارة الخارجية ــ عمارة السور
ص . ب ٢٠١٤٦ ــ هاتف : ٢٤٥٧٤٠٧ ــ ٢٤٥٨٤٧٨ ــ برقياً : توزيعكو

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى :

﴿ إن هذا لهو القصص الحق ، وما من إله إلا الله ، وإن الله لهو العزيز الحكيم ﴾

(آل عمران ــ ٦٢)

﴿ فاقصص القصص ؛ لعلهم يتفكرون ﴾

(الأعراف ــ ١٧٦)

﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ، بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾

(يوسف ــ ٣)

﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ، ما كان حديثاً يُفترى ، ولكن تصديق الذى بين يديه ، وتفصيل كل شىء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾

(يوسف ــ ١١١)

التقديم :

- خطبة الحاجة .
- لم أُلف هذا الكتاب ؟
  - ١ - السبب الأول فى ١٩٦٩/٦٨ م
  - ٢ - السبب الثانى فى ١٩٧٩ م
  - ٣ - السبب الثالث فى ١٩٨٠ م
- الرسل - عليهم السلام - يدعون جميعاً إلى عقيدة واحدة
- توجيه النظر إلى قصص السابقين .
- لمن أُلف هذا الكتاب ؟
- منهج الكتاب ، وطريقته .

التقـديـم

« إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا .

من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ (١) .

﴿ يأيها الناس ، اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ؛ إن الله كان عليكم رقيباً ﴾ (٢) .

﴿ يأيها الذين آمنوا ، اتقوا الله ، وقولوا قولاً سديداً ؛ يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾ (٣) .

أما بعد » (٤) .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية رقم ١٠٢ .

(٢) سورة النساء ، الآية رقم ١ .

(٣) سورة الأحزاب ، الآيتان رقما ٧٠ ، ٧١ .

(٤) تُسمى هذه خطبة الحاجة ، فعن أبى الأحوص ، عن عبد الله بن مسعود — رضى الله عنه — قال : علمنا رسول الله — ﷺ — التشهد فى الصلاة ، والتشهد فى الحاجة . أخرجه النسائى ، والترمذى ، والطبرانى فى الكبير عن الأعمش ، وابن ماجة عن يونس ابن أبى إسحاق ، والطحاوى ، والبيهقى عن المسعودى ، ثلاثتهم عن أبى إسحاق عن ابن مسعود . والحديث على شرط مسلم . (خطبة الحاجة ، للشيخ ناصر الألبانى ص ١٥ وما بعدها) .

فلسائل أن يسأل :
لم أُلف هذا الكتاب ، وقد سبقه من الكتب الكثير فى نفس الموضوع تقريباً ؟!
وما هى الدوافع ، والأسباب مرتبة حسب أزمانها ، لا حسب أهميتها .

١ — فى أواخر عام ١٩٦٨ ، وحتى شهر مايو من عام ١٩٦٩ كنت ـ بعون الله سبحانه ، وتوفيقه ـ قد كتبت مذكرة مختصرة عن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ مبيناً صلة كلّ بالآخر ، والوقت الذى عاش فيه ، والمنطقة الجغرافية التى كان عليها ، والقوم الذين أُرسل إليهم ، وإن لم يكن على وجه اليقين بالنسبة لبعضهم ، فكان على سبيل الترجيح .

وعلى هذا ظهرت للطلاب فى إحدى المدارس الثانوية بالكويت وسيلة إيضاح موضوعية لشجرة الرسل ، والأنبياء ـ عليهم السلام ـ بعد عناء وجهد .

وفوجئت ، والعمل يظهر فى شكله النهائى بأن هناك شجرة أخرى من عمل آخرين ، شجرة التطور ؛ أى تطور الإنسان عن غيره من الحيوان ؛ أى أن آدم ـ عليه السلام ـ السوىّ الخَلق ، والذى صنعه الله بيديه ، ونفخ فيه من روحه ، فى شجرة الرسل . لم يكن فى نظر الآخرين ، وفى شجرة التطور سوىّ الخَلق ، بل إنه انحدر من حيوان آخر ، أو ترقى من حيوان آخر دونه منزلة . وظهرت وسيلة شجرة التطور هذه فى صورة جميلة ، تُوحى بالاهتمام الكبير من المسئولين عنها ، ورصد المساعدة اللازمة لجودة إخراجها . وعجبت حين رأيت عملاً فنياً جميلاً لمضمون نتن قبيح من وحى الخيال والتخمين ، وليس عليه دليل مسلَّم ، أو حجة واضحة ، أو برهان ساطع .

وكان من الطبيعى فى محاولة إنكار المنكر أن أستثير من الزملاء والمسئولين من ظننت فيه المساعدة فخذلنى قائلاً :
اترك غيرك يعمل كما نعمل ، وقارع الحجة بالحجة .
واستفدت من هذه العبارة ـ على الرغم من شدتها ـ وبدأت أقرأ عن نظرية دارون طيلة أيام متتالية .

والتقيت بالمسئولين عن هذا العمل فى حجرتهم فى نقاش طويل يحتد أحياناً ، ويهدأ أحياناً أخرى ، وجزى الله سبحانه أحدهم بالخير فقد كان صمام الأمان إذا ما احتد النقاش ، وكادت الغاية أن تبتعد ، ولازلت أذكره حتى الآن هادئاً رزيناً ، مبتسماً ، ومن أوائل المدرسين آنئذ حرصاً على جماعة الظهر بالمدرسة .

وانتهى اللقاء على خير ـــ والحمد لله ـــ وكان من نتائجه :

أ ـــ أنى عرفت أن الكثير من المتعلمين يدرسون هذه النظرية ، ولا يؤمنون بها ، بل إنهم يدرسونها ؛ لأنها فى المنهج فقط ، وأن المسئول الأكبر فى ذلك هو من وضع المنهج ، وأقره غيره بالعمل به .

ب ـــ أنهم تمنوا أنهم لم يصنعوا هذا العمل ، والذى لم يظهر فى شكل نظرية فقط خاضعة للرد والحوار ، بل ظهر فى ثوب الحقيقة ، وقد زخرفت حواشيه وأطرافه .

جـ ـــ أن طُلِبَ إلىّ أن أكتب ملحوظاتى عن النظرية ، فكتبتها فى نقاط علقت بجوار عملهم مدة من الزمن .

وأذكر أنى قلت لهم حين طلبهم :

طالما أنكم اقتنعتم بوجهة نظرى ، فأنتم إذن أقدر على كتابة النقد الموجه لهذه النظرية ، ولكنهم أصروا على طلبهم ، فلم يسعنى فوات الفرصة .

وإن كان قد انتهى الموقف على هذا النحو ، فقد ظل عالقاً بذهنى ، وتابعت فى جمع النصوص على اختلافها ، واختلاف مصادرها لأخرج للناشئة من الطلاب مذكرة صغيرة عن نظرية دارون فى عام ١٣٩٠ هـ ـــ ١٩٧٠ م ، وهذه المذكرة هى الفصل الثانى من هذا الكتاب مع التنقيح ، والزيادة اللازمة ، وجعلتها بعد فصل آدم ـــ عليه السلام ـــ لأزيل عن الحق زعم الزاعمين وكذب المفترين .

٢ — ومنذ ثلاث سنوات تقريباً أى فى نهاية السبعينيات كُلفت مع آخرين بتأليف كتاب فى السيرة النبوية ، وكان من نصيبى.فصلان من الكتاب ورأيت قبل أن أكتب أى موضوع أن أستحضر الأحاديث التى وردت بهذا الشأن ، وأذكر أنى تصفحت آنئذ صحيح البخارى كله أنقل منه كل ما يتصلَ بالموضوعات التى سأكتب فيها ، وقبيل بدء الكتاب قرأت عشرات من كتب السيرة ، فتبين لى أمر خطير جدّاً ؛ هذا الأمر أن أكثر كُتّاب السير لم يلجئوا إلى تحقيق الأحاديث ، واكتفى بعضهم بتخريج الأحاديث فقط أى نسبتها إلى الراوى ، دون نظر إلى أقوال علماء الحديث حول السند قوة ، أو ضعفاً ، أو نكارة ، أو وضعاً حسب أصول متبعة فى هذا العلم .

وإن كان هذا الخطأ العلمى قد ألمت به الكتب القديمة ، والحديثة ، ولكن أمهات الكتبَ القديمة كانت لها إشارات حول الحديث تُفْهَمُ من قارئ ذى خبرة بالرواة ، ويستطيع أن يميز إلى حدّ ما صحيح الحديث من ضعيفه ، أو موضوعه . أما أغلب الكتب الحديثة فإنها تذكر الرواية دون الإشارة إلى من رواها ، ثم تبدأ فى الاستنباطات ، والاستنتاجات ، فتكون كمن بنى قصراً جميلاً على غير أساس ، وقد يكون بعد البحث اليسير أن أساسه هذا غير صحيح فتصبح الجهود المبذولة هباءً لا جدوى منها .

وشذ من الكتب الحديثة بعضها فظهرت أقرب إلى التمحيص ، والدقة فى الاختيار وتحقيق الأحاديث الواردة بالكتاب ..

وخطورة الاعتماد على الأحاديث غير الثابتة أنها تقرر السنة الفعلية للنبى — ﷺ — فإذا ما كان الحديث دون الحسن مثلاً معناه أننا قررنا سنة من عندنا ، الرسول — ﷺ — منها براء ، والعمل بها لا ينجى صاحبها ..

وما ذكر فى السيرة يذكر أيضاً فى سير الأنبياء والمرسلين السابقين بل ما يذكر بشأنهم كثيراً ما يعتمد على كتب أهل الكتاب بعد تحريفها وتبديلها ..

وأمام وضع كهذا رأيت من الواجب علىّ أن أقدم للمسلمين عملاً يخلو من هذه المزالق ، وأخص منهم الناشئة من الشباب المسلم ، والشابات المسلمات ،

ومن يعنون بتوجيهم ، وتربيتهم . ورأيت أيضاً أن أبدأ المسيرة من أولها منذ عهد آدم أبى البشر ــ عليه السلام ــ . وكان هذا الجزء والذى أدعو الله سبحانه أن يخلص النية فيه ، وأن ينفع به ، وحسبى أنى أردت الخير ، فإن كان توفيق فمن الله سبحانه ، وإن كان خطأ فمن نفسى ومن الشيطان . أرجو من ربى الرحيم أن يغفر لى زلتى .

٣ – وفى أواخر عام ١٩٨٠ عانيت عناءً شديداً من مرض عضال ــ وأرجو من ربى الكريم أن يكون كفارة لما اقترفت من ذنوب ــ وكان من نتيجة هذا المرض أن دخلت المستشفى عدة مرات كدت فى إحداها أن ألفظ أنفاسى الأخيرة ، وظننت أننى مقضى علىّ لا محالة ــ وأذكر أنى لفظت الشهادتين حرفاً حرفاً لعدم قدرتى على نطق الكلمة جملة ، وأحسست سعادة تغمرنى ؛ لأن الشهادتين كانتا آخر كلامى بالدنيا ، وأراد الله سبحانه ألا يكون الأمر كما يظن البشر ، فقد قدر للناس آجالهم « لا يستقدمون عنها ، ولا يستأخرون .

وحين أحسست بعض القوة بدأت أفكر بتنفيذ ما قد عزمت سلفاً ، وقد سبق التنفيذ الانتهاء من عمل علمى مشترك والحمد لله ، وقد صحبه تصفح صحيح مسلم جميعه ، والذى بدأ قبل مرضى ، وشغلنى وأنا بالمستشفى حتى انتهيت منه بعد ذلك ناقلاً ما يخص البحث العلمى المشترك آنئذ ..

٤ – وفى أول أيام رمضان عام ١٤٠١ هـ الموافق ١٩٨١ م بدأت كتابة المسودات مستعيناً بعد الله سبحانه بما لدى من أمهات كتب الحديث ، والتفسير ، والسير . وجعلت هذا العمل مشغلتى عن أى عمل إضافى يكلفنى حركة لا أقوى عليها . وحسبى من عملى الأخير أنى أقوم به وأنا فى جلسة مريحة لما بى من ضعف . وكلما أشرفت على الانتهاء ازددت سروراً وغبطة ، وأرجو أن يخرج للناس بالصورة الموفقة بعون الله تعالى .

الرسل ــ عليهم السلام ــ يدعون جميعاً إلى عقيدة واحدة

الإسلام عقيدة ، وشريعة . أى اعتقاد وإيمان بالقلب ، وتشريع عملى تقوم بتطبيقه الجوارح ..

وقد يُطلق الإسلام على أحدهما فقط ، أى يراد به التشريع . **وفى حديث أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : كان النبى — ﷺ — بارزاً للناس فأتاه رجل فقال : ما الإيمان ؟ قال :**

« الإيمان ، أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وبلقائه ، وبرسله ، وتؤمن بالبعث »

قال : ما الإسلام ؟ قال :

« الإسلام ، أن تعبد الله ، ولا تشرك به ، وتقيم الصلاة ، وتؤدى الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان .. » (٥) .

فأنت ترى هنا أن الحديث قصر الإسلام على التشريع ، كما قصر الإيمان على الاعتقاد القلبى .

وحديث ابن عمر — رضى الله عنهما — قال : قال رسول الله — ﷺ — :

« بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان » (٦) .

وفى الباب أحاديث أخرى تؤكد صحة هذا الإطلاق .

والعمل بالتشريع بهذا المفهوم ، عمل تال للإيمان ونتيجة له ، وليس هو الإيمان ، أو الاعتقاد .

وقد يذكر الإسلام ، ويراد معناه اللغوى وهو الاستسلام لله سبحانه ، والخضوع والذلة له ، وتوحيده ، والإيمان بكل ما أمر به . وهو بهذا الإطلاق يراد به مفهوم الإيمان الوارد فى حديث أبى هريرة — رضى الله عنه — كما تذكر كلمة « شرع » ويقصد بها أيضاً ما ينسجم مع هذا المفهوم للإيمان . قال تعالى :

---

(٥) أخرجه الشيخان . اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الإيمان ، باب الإيمان ما هو وبيان خصاله . حديث رقم ٥ ص ٢ .

(٦) أخرجه الشيخان . المصدر السابق رقم ٩ .

﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ، والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، أن أقيموا الدين ، ولا تتفرقوا فيه ﴾ (٧)

فما شرعه الله سبحانه لنا من الدين ، ووصانا به كما وصّى رسله السابقين هو أصول العقائد وقواعد الإيمان ، لا فروع الدين ، ولا شرائعه العملية فإن لكل أمة من التشريعات العملية ما يتناسب مع ظروفها ، وأحوالها ، ومستواها الفكرى ، والروحى ، قال تعالى :

﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾ (٨)

والإسلام بهذا المفهوم ، أى مفهوم الإيمان ، والاعتقاد ، دعا إليه كل الأنبياء والمرسلين ـــ عليهم الصلاة والسلام .

قال الله تعالى عن إبراهيم الخليل ـــ عليه السلام :

﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ، ولا نصرانياً ، ولكن كان حنيفاً مسلماً ، وما كان من المشركين ﴾ (٩) وقال على لسانه ، ولسان ابنه إسماعيل ـــ عليهما السلام :

﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت ، وإسماعيل . ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، ربنا ، واجعلنا مسلمين لك ، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ... ﴾ (١٠) .

وقال على لسان نوح ـ عليه السلام ـ مخاطباً قومه :

﴿ فإن توليتم فما سألتكم من أجر ، إن أجرى إلا على الله ، وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ (١١) .

---

(٧) سورة الشورى ، الآية رقم ١٣ .

(٨) سورة المائدة ، الآية رقم ٤٨ .

(٩) سورة آل عمران ، الآية رقم ٦٧ .

(١٠) سورة البقرة ، الآيتان رقما ، ١٢٧ ، ١٢٨ .

(١١) سورة يونس ، الآية رقم ٧٢ .

وعلى لسان الخليل موصياً بنيه ، ويعقوب موصياً بنيه ، قال أيضاً :

﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ، ولقد اصطفيناه فى الدنيا ، وإنه فى الآخرة لمن الصالحين * إذ قال له ربه أسلم . قال : أسلمت لرب العالمين ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب . يا بنى ، إن الله اصطفى لكم الدين . فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت . إذ قال لبنيه : ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا نعبد إلهك ، وإله آبائك ؛ إبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحاق ، إلهاً واحداً ونحن له مسلمون ﴾ (١٢) .

وقال على لسان يوسف بن يعقوب عليهما السلام :

﴿ رب ، قد آتيتنى من الملك ، وعلمتنى من تأويل الأحاديث ، فاطر السمٰوات والأرض . أنت وليى فى الدنيا ، والآخرة ، توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين ﴾ (١٣) .

وقال على لسان سليمان — عليه السلام — فى قصة ملكة سبأ :

﴿ وأوتينا العلم من قبلها ، وكنا مسلمين ﴾ (١٤) .

وعلى لسان السحرة حين آمنوا قال :

﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً ، وتوفنا مسلمين ﴾ (١٥) .

وعلى لسان الحواريّين قال :

﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريّين : أن آمنوا بى وبرسولى ، قالوا : آمنا ، واشهد بأننا مسلمون ﴾ (١٦) .

---

(١٢) سورة البقرة الآيات من رقم ١٣٠ ، إلى رقم ١٣٣ .

(١٣) سورة يوسف الآية رقم ١٠١ .

(١٤) سورة النمل ، الآية رقم ٤٢ .

(١٥) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٢٦ .

(١٦) سورة المائدة ، الآية رقم ١١١ .

وعلى لسان غير البشر من الجن قال أيضاً :

﴿ وأنا منا المسلمون ، ومنّا القاسطون . فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً ﴾ (١٧) .

وقد أمر الله سبحانه نبيه محمداً ـــ ﷺ ـــ أن يكون أول هؤلاء المسلمين فقال :

﴿ قل : إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ﴾ (١٨) .

كما طلب إلى الدعاة والمصلحين أن يفخروا بهذه التسمية فقال :

﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله ، وعمل صالحاً ، وقال : إننى من المسلمين ﴾ (١٩) .

وبناء على هذا :

فلا قبول لأى عمل إلا إذا كان صاحبه مسلماً . قال تعالى :

﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً ، فلن يُقبل منه ﴾ (٢٠) .

﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ (٢١) .

﴿ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ﴾ (٢٢) .

وبناء على هذا أيضاً :

فالإسلام هو الدين الذى دعا إليه كل الأنبياء والمرسلين ـــ عليهم الصلاة والسلام ـــ وإن كان لكل منهم تشريع خاص يتناسب مع الزمن الذى عاش فيه ، والناس الذين أُرسل إليهم كما سبق .

---

(١٧) سورة الجن ، الآية رقم ١٤ .

(١٨) سورة الأنعام ، الآية رقم ١٤ .

(١٩) سورة فصلت ، الآية رقم ٣٣ .

(٢٠) سورة آل عمران ، الآية رقم ٨٥ .

(٢١) سورة آل عمران ، الآية رقم ١٩ .

(٢٢) سورة البقرة ، الآية رقم ١١٢ .

عن طلحة بن عبيد الله ـــ رضى الله عنه . أن رسول الله ـــ ﷺ ـــ قال :

« أفضل الدعاء دعائى يوم عرفة ، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى : لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له » (٢٣) .

وعن أبى هريرة ـــ رضى الله عنه ـــ قال : سمعت رسول الله ـــ ﷺ ـــ يقول :

« أنا أولى الناس بعيسى بن مريم ، والأنبياء أولاد علَّات . ليس بينى وبينه نبى » (٢٤) .

توجيه النظر إلى قصص السابقين :

قال الله تعالى :

﴿ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن

---

(٢٣) أخرجه الإمام مالك فى الموطأ ، باب ما جاء فى الدعاء ص ١٥٠ طبعة كتاب الشعب ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى .

وقال المحقق : وأخرجه الترمذى مرفوعاً عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، فى كتاب الدعوات ، باب فى دعائى يوم عرفة .

وقيل فى مثل هذا السند : إنه حسن . أى فى درجة الثبوت . والله أعلم .

(٢٤) أخرجه الشيخان . اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الفضائل ، باب فضائل عيسى ـــ عليه السلام ـــ رقم ١٥٢٦ ص ٦٢٢ وبالهامش للمراجع :

« أنا أولى الناس بعيسى بن مريم : لكونه مبشراً بى قبل بعثتى ، وممهداً لقواعد ملّتى فى آخر الزمان ، تابعاً لشريعتى ، ناصراً لدينى ، فكأننا واحد ، علات : العلة الضرة ، مأخوذة من العلل ، وهى الشربة الثانية بعد الأولى ، وكأن الزوج قد علّ منها بعد أن كان ناهلاً من الأخرى ، وأولاد العلات ؛ أولاد الضرات من رجل واحد ، يريد أن الأنبياء أصل دينهم واحد ، وفروعهم مختلفة ، فهم متفقون فى الاعتقاديات المسماة بأصول الدين ، كالتوحيد ، مختلفون فى الفروع وهى الفقهيات .

لكم ، وأرسلنا السماء عليهم مدراراً ، وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم ، فأهلكناهم بذنوبهم ، وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ﴾ (٢٥) .

وقال فى نفس السورة :

﴿ ولقد كُذبت رسل من قبلك ، فصبروا على ما كُذبوا ، وأُوذوا حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾ (٢٦) .

وقال أيضاً :

﴿ ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك ، فأخذناهم بالبأساء ، والضراء ؛ لعلهم يتضرعون ﴾ (٢٧) .

وقال :

﴿ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين . ومنذرين ، فمن آمن ، وأصلح ، فلا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون ، والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون ﴾ (٢٨) .

فى سورة واحدة هى سورة الأنعام يوجه الله سبحانه خطابه ، إلى رسوله محمد — ﷺ — وإلى قومه المعاصرين له ، وإلى الناس كافة إلى يوم القيامة .

وسورة الأنعام مكية نزلت جملة واحدة على النبى — ﷺ — واستقبلها بالتسبيح لله سبحانه ، كما شيعها الكثير من الملائكة :

فعن جابر بن عبد الله — رضى الله عنهما — قال :

لما نزلت سورة الأنعام ، سبح رسول الله — ﷺ — ثم قال :

---

(٢٥) سورة الأنعام ، الآية رقم ٦ .

(٢٦) سورة الأنعام ، الآية رقم ٣٤ .

(٢٧) سورة الأنعام ، الآية رقم ٤٢ .

(٢٨) سورة الأنعام ، الآية رقم ٤٨ ، ٤٩ .

« لقد شيع هذه السورة من الملائكة ما سدّ الأفق » (٢٩) .

والاحتفاء بهذه السورة فى السماء ، والأرض على هذا النمط ؛ لما تضمنته من العظات والعبر فى ضوء آياتها ، والمفاصلة الواضحة بين طريقين : طريق الجاهلية بكل أصنافها ، وطواغيتها المتداعية ، وطريق الحق فى دعوة التوحيد ، التى توحد الناس ، وتعبدهم لرب الناس لا للناس ، أو مزاعم الناس .

ونحن فى ضوء ما سجل من آيات كريمة نجد :

أولاً : أن الأمم السابقة سبق لهم أن تمكنوا فى الأرض ، وتقلدوا السلطة ، واستبدوا بها دون الاهتداء بالشرائع . فهم إذن فى الجانب السياسى فى أيديهم أزمة الحكم ، ودفته .

وأن الله سبحانه قد أعطاهم من نعمه الكثير ، فالسماء درت عليهم بالماء الغزير ، ففاضت الأنهار وسارت بإذن الله تعالى . فاخضرت الأرض ، واعشوشبت . ونما اقتصادهم بإذن الله تعالى .

وأن هذه الأمم لم تستفد من توجيه هذه النعم فى مرضاة الله ، ولم يفدها وضعها السياسى ولا الازدهار الاقتصادى ، وقال أحدهم فى موضع آخر : ﴿ **إنما أوتيته على علم عندى** ﴾ (٣٠) .

وأن هذه الأمم ، عاثت فى الأرض فساداً ، وارتكبت الذنوب ، وأشركت بالله سبحانه ، وبدل أن تشكر الله تعالى على نعمه ، قدمت المعاصى والذنوب .

وأن قضاء الله سبحانه حاق بهذه الأمم بسبب هذه الردة الجاهلية . وإذا قضىٰ الله فلا رادّ لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، ولم يكن إهلاك السابقين إلا نتيجة عصيان صادر منهم .

---

(٢٩) أخرجه الحاكم فى المستدرك ، وقال : صحيح على شرط مسلم . ابن كثير ، مقدمة تفسير سورة الأنعام .

(٣٠) سورة القصص ، الآية رقم ٧٨ .

ثانياً : أن الله سبحانه كان يذكر هؤلاء السابقين بوسائل متنوعة ؛ فهذه النعم لم يكونوا هم صانعيها كما سبق أن عرفنا . وأن الله تعالى كان يأخذهم بنوع خفيف من البأس ، والضر ، دون الإهلاك العام ، لعلهم يرجعون إلى توحيد ربهم ..

وأنه تعالى أيضاً قد أرسل إليهم الرسل الذين يبينون لهم طريق الحق ، ويحذروهم طريق الشر . . فما كان منهم إلا التكذيب لهؤلاء الدعاة المخلصين ، مصممين على السير فى جاهليتهم المنتنة .

ثالثاً : أن الله سبحانه يوجه أنظار أهل مكة ، وكل الأجيال اللاحقة إلى أخذ العبر والعظات من سير السابقين ، والاستفادة مما حدث لهم . والتفكير الجاد فى اختيار أقوم الطرق ، وفى القرآن الكريم الكثير من الآيات التى تحض على هذا .

رابعاً : أن الله سبحانه حين أهلك من أشرك ، وانحرف عن الطريق المستقيم ، أنشأ بعدهم قروناً آخرين . فكل من يتولى ، ويعرض ، فالهزيمة ، والإهلاك له . والبقاء لمن سار على منهج الحق ، سيراً صحيحاً ، لا تزييف فيه ، ولا تحريف ، ولا نكوص ، ولا قعود .

﴿ إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ، ويستبدل قوماً غيركم ، ولا تضروه شيئاً ، والله على كل شىء قدير ﴾ (٣١) .

خامساً : أن الله سبحانه يوصى رسوله محمداً ــ ﷺ ــ ومن معه من أتباعه ، والمهتدين بهديه بعدة وصايا :

ــ التعرف على نفسيات الناس من خلال تعرضهم للأحداث التى تمر بهم .

ــ الإصرار على دعوة الناس ، فى كل مجالاتهم ، وأماكنهم . بكل الأساليب الممكنة التى بمقدور الدعاة أن يفعلوها .

---

(٣١) سورة التوبة ، الآية رقم ٣٩ .

ــ الصبر على ما يتحملون فى سبيل الدعوة من إيذاء .

ــ تناول الإنسان بجانبى الترغيب ، والترهيب معاً ، وعدم الاكتفاء بواحد منهما دون الآخر .

ــ أن من لوازم الإيمان بالدعوة ، العمل الصالح بكل مجالاته على هدى من نور الله سبحانه ، ورسالاته .

سادساً : أن من آمن وأصلح . يحقق الله سبحانه له الأمن والأمان فى الدنيا ، والآخرة ، فهو على ما يلاقيه من إيذاء الجاهلية يعيش متفيئاً ظلال هذا الأمن الذى يسبغه ربه تعالى عليه .

وأن الجاهليين يعيشون وإن تمكنوا فى الأرض فى قلق دائم ، وخوف من أنفسهم : **﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال : رب ، لم حشرتنى أعمى ، وقد كنت بصيراً ؟ قال : كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تُنسى ، وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾** (٣٢) .

سابعاً : طالما والأمر كذلك فعلى دعاة الحق أن يتآزروا ، ويتعاونوا ، ولا تتسرب إلى صفوفهم عوامل الفرقة بسبب اختلاف الوضع الاجتماعى ، والاقتصادى . فهم جميعاً يمثلون الأمة التى هى خير أمة أُخرجت للناس .

ويوصيهم ربهم فى سورة الأنعام بقوله : موجهاً الخطاب إلى نبيهم محمد ــ ﷺ :

﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ﴾ (٣٣) .

تلك هى نفحات سورة الأنعام ، وما أكثر ما فيها من نفحات .

---

(٣٢) سورة طه ، الآيات ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ .

(٣٣) سورة الأنعام ، الآية رقم ٥٢ .

لمن ألف هذا الكتاب ؟

وفى ضوء ما تقدم من أسباب ، وظروف مصاحبة لهذا العمل ، فقد أحسست تجاه الشباب المسلم ، الذى يريد أن يضع رجله على أول الطريق ، فيجد الكثير من الكتب التى تحتاج إلى تحقيق ، وتمحيص لما تتضمنه من نصوص . وقد تذكر فيها النصوص مع اصطلاحات خاصة ، لا يفهمها إلا المتمرس فى علم الحديث ، ومصطلحه ، فيلتبس على الشاب حين قراءته ، ويخلط بين الصحيح ، والضعيف ، والمنكر ، والموضوع . وفى ضوء هذا ، وغيره آثرت أن أبدأ الطريق مع هؤلاء الشباب ، مع إضافة شيء جديد أيضاً هو ما يُستنبط من أحكام ، وعبر ، وعظات نحن مأمورون شرعاً بأخذها ، واستنباطها ، وتعويد الشباب على مثل هذا النهج القويم ، فلا يقف عند النص ، بل يحاول إذا ما توافرت لديه الأسباب أن يتأمله ، ويفكر فيه ، ويجتهد فى الأسلوب التطبيقى ، والبعيد عن الشطط والمخالفة للأصول المرعية فى مجال الاجتهاد ، وإذا ما خصصت الشباب بمثل هذا العمل ، فإنى أخص بالضرورة من يرعون هؤلاء الشباب تربية ، وتعليماً ، وتدريباً سديداً .

منهج الكتاب ، وطريقته :

رأيت أن أوزع الكتاب إلى فصول ، وإن كانت هذه الفصول غير مرقمة ، فلأنها مسماة بأسماء الرسل الكرام .

وقد تأخذ سيرة الرسول فصلاً واحداً ، وقد تتوزع إلى عدة فصول كما سترى فى سيرة موسى ، وهارون ــ عليهما السلام ــ وقد تأخذ سيرة رسولين فصلاً واحداً فقط ؛ لقلة ما ورد بشأنهما من نصوص .

وفى بداية كل فصل بينت الموضوعات التى ستبحث فيه فى الصفحة الأولى لهذا الفصل ، وبنفس ترتيب تناولها .

وحرصت الحرص الشديد أن أنقى الكتاب من أى نص ضعيف ، فالأحاديث الشريفة إما أن تكون متفقاً عليها من الشيخين : البخارى ، ومسلم ، والمرجع الأول فى ذلك ، اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ، وإما أن

يخرجها أحدهما . وإذا ما كان نص من غيرهما فقد حرصت أن أقف على درجة السند فى حدود طاقتى ، وصرحت بمن صحح مثل هذا الحديث ، أو أثبته ، ولم أتردد فى عدم الاستشهاد بغير ذلك ، تنفيذاً لما وعدت به ، والحمد لله .

وتيسيراً لى ، ولكل قارئ ذكرت بالهامش المراجع مع تحديد الجزء ، والكتاب ، والفصل ، أو الباب ، أو الرقم والصفحة ، وقد أضيف الطبعة ، ودار النشر فى أول ذكر هذا المرجع غالباً .

وفى كل فصل تلمست قدر طاقتى الأحكام المستفادة ، والمستنبطة ، والعبر ، والعظات ، وقد أضيفت بالهامش ـــ من باب الإسقاط التاريخى ـــ ما يماثل الموقف ، أو ما فيه رد على شبهة مثلاً .

على الرغم من تحديد المراجع بالهامش فقد ضمنت الفهرس هذه المراجع مجموعة ، ولتساؤلنا حين ذكر الصحابى وغيره عن سيرته ، ومواقفه آثرت أن أسجل ترجمة هادفة له ، وبختام الكتاب فهارس الكتاب ؛ للأحاديث للمراجع ، للموضوعات ..

هذا وأرجو من الله سبحانه ، أن يخلص النوايا إليه ، وأن يسدد خطانا ، وأن يتقبل منا صالح أعمالنا ، فإن كانت صواباً فمنه سبحانه ، وإن كانت خطأ فمن أنفسنا ، ومن الشيطان .

هذا وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

سيد أحمد الكيلانى

الكويت فى يوم الجمعة . ٢٨ / ٤ / ١٤٠٣ هـ
١٤ / ١ / ١٩٨٣ م

أبـو البشـر آدم ــ عليه السلام .

ــ بدء الخلق .
ــ مم خلق ؟ وكيف ؟
ــ آدم وحواء .
ــ آدم والملائكة .
ــ آدم وإبليس .
ــ آدم فى السماء الأولى .
ــ آدم والشفاعة .
ــ دروس وعبر .

بدء الخلق :

« **كان الله سبحانه وتعالى ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء ، وخلق السموات والأرض** » (١) ، وذلك قبل أن يخلق آدم — عليه السلام .

وسبق آدم — عليه السلام — فى الخلق ما سخره الله له ، ولبنيه من بعده ، وما به تستقيم الحياة على وجه الأرض ، فعن أبى هريرة (٢) — رضى الله عنه — قال : أخذ رسول الله — ﷺ — بيدى ، فقال :

« **خلق الله عز وجل التربة ، يوم السبت ، وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور**

---

(١) نص حديث رواه البخارى ، عن عمران بن حصين — رضى الله عنهما — قال : قال أهل اليمن للرسول — ﷺ : جئناك نسألك عن هذا الأمر . قال : (الحديث) كتاب بدء الخلق جـ ٤ ص ١٢٩ ومشكاة المصابيح ، للخطيب التبريزى رقم ٥٦٩٨ ، وروى البخارى حديثاً آخر بهذا الشأن أيضاً ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص — رضى الله عنهما — قال : سمعت رسول الله — ﷺ — يقول :

« **كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض** » .

(٢) هو الصحابى الجليل ، الحافظ المكثر ، واختلف فى اسمه ، واسم أبيه ، قال ابن عبد البر : الذى تسكن النفس إليه من الأقوال ، أنه عبد الرحمن بن صخر ، وهو أكثر الصحابة حديثاً ، فليس لأحد منهم ما يقارب ما رواه ، مات فى المدينة سنة تسع وخمسين ، وهو ابن ثمان وسبعين سنة ، ودُفن بالبقيع ، وقيل مات بالعقيق ، وكان يومئذ أميراً على المدينة كما قاله ابن عبد البر . سبل السلام للصنعانى (١٠٥٩ — ١١٨٢ هـ) وهو شرح بلوغ المرام من أدلة الأحكام ، لأحمد بن حجر العسقلانى (٧٧٣ — ٨٥٢ هـ) جـ ١ ص ١٤ ك الطهارة ، باب المياه . الحديث الأول .

وقد روى الشيخان حديثاً فى سبب كثرة روايته للأحاديث .

عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : إنكم تزعمون أن أبا هريرة يكثر الحديث على رسول الله — ﷺ — والله الموعد (بضم الهاء ، والدال ؛ أى فيحاسبنى إن تعمدت كذباً ،

يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم العصر من يوم الجمعة فى آخر الخلق ، فى آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل » (٣)

ونلحظ من هذا الترتيب أن الأرض قد سبقت فى الوجود الشجر والنبات ؛ فلا شجر ولا نبات إلا فى تربة تمدها بالغذاء ، وسبقت الأشجار فى الوجود الدواب ؛ لأن الدواب تعتمد فى حياتها على ما تناله من الأشجار والنبات .

ويحاسب من ظن بىّ السوء) ، إنى كنت امرأً مسكيناً (من مساكين الصفة) ألزم رسول الله ـــ ﷺ ـــ على ملءُ بطنى (أى لا أنقطع عنه خشية أن يفوتنى القوت) ، وكان المهاجرون يشغلهم الصفق بالأسواق ، (أى التبايع فيها) وكانت الأنصار يشغلهم القيام على أموالهم ، (أى ، فى الزراعة) فشهدت من رسول الله ـــ ﷺ ـــ ذات يوم ، وقال :

« من يبسط رداءه حتى أقضى مقالتى ، ثم يقبضه (أى الرداء) . فلن ينسى شيئاً سمعه منى ؟ » .

فبسطت بردة كانت علىّ ، فوالذى بعثه بالحق ما نسيت شيئاً سمعته منه .

اللؤلؤ والمرجان ، فيما اتفق عليه الشيخان ، ك فضائل الصحابة ، رقم ١٦٢١ .

(٣) رواه مسلم . ك ذكر الأنبياء وفضلهم ، باب . فى ابتداء خلق آدم ـــ عليه السلام ـــ المختصر للحافظ المنذرى ، رقم ١٦٠٥ ، ومشكاة المصابيح رقم ٥٧٣٤ ك أحوال القيامة وبدء الخلق ، باب ، بدء الخلق وذكر الأنبياء جـ ٣ ص ١٢١ تحقيق الشيخ ناصر الألبانى .

قال المحقق : فى الصحيح ... ولا مطعن فى إسناده ألبتة ، وليس هو بمخالف للقرآن ، بوجه من الوجوه ، خلافاً لما توهمه بعضهم ؛ فإن الحديث يفصل كيفية الخلق على الأرض وحدها ، وأن ذلك كان فى سبعة أيام ، ونص القرآن على أن خلق السموات والأرض كان فى ستة أيام ، والأرض فى يومين لا يعارض ذلك ؛ لاحتمال أن هذه الأيام الستة غير الأيام السبعة المذكورة فى الحديث ، وأنه ـــ أعنى الحديث ـــ تحدث عن مرحلة من مراحل تطور الخلق على وجه الأرض ، حتى صارت صالحة للسكنى ، ويؤيده أن القرآن يذكر بعض الأيام عند الله تعالى كألف سنة ، وبعضه مقداره خمسون ألف سنة . فما المانع أن تكون الأيام الستة من =

ثم كان أبو البشر ، آدم — عليه السلام — وقد سبقه فى الخلق ، الماء ، والسماء ، والأرض بما فيها من جبال ، وأشجار ، ونبات ، ودواب ؛ لتكون فى خدمته مسخرة له .

= هذا القبيل ؟ والأيام السبعة من أيامنا هذه ؟ كما هو صريح الحديث . وحينئذ فلا تعارض بينه وبين القرآن . اهـ .

ويشير المحقق بهذا إلى ابن قيم الجوزية فى كتابه : المنار المنيف فى الصحيح والضعيف ، حققه وخرج نصوصه وعلق عليه عبد الفتاح أبو غدة ، الناشر مكتب المطبوعات الاسلامية — حلب ١٣٩٠ هـ — ١٩٧٠ م .

قال ابن القيم فى فصل ١٩ مسألة رقم ١٥٣ ص ٨٤ ما نصه :

ما وقع فيه الغلط من حديث أبى هريرة : « خلق الله التربة يوم السبت ... » الحديث ، وهو فى « صحيح مسلم » ولكن الغلط وقع فى رفعه ، وإنما هو من قول كعب الأحبار ، كذلك قال إمام أهل الحديث : محمد بن إسماعيل البخارى فى « تاريخه الكبير » وقاله غيره من علماء المسلمين أيضاً ، وهو كما قالوا : لأن الله أخبر أنه خلق السموات ، والأرض ، وما بينهما فى ستة أيام ، وهذا الحديث يقتضى أن مدة التخليق سبعة أيام « والله أعلم » اهـ .

وقال محقق المنار المنيف بالهامش تعليقاً ما نصه :

« قال العلامة المناوى فى « فيض القدير » ٣ : ٤٤٨ : قال الزركشى : أخرجه مسلم ، وهو من غرائبه ، وقد تكلم فيه — أى فى هذا الحديث . ابن المدينى ، والبخارى ، وغيرهما من الحفاظ ، وجعلوه من كلام كعب الأحبار ، وأن أبا هريرة إنما سمعه منه ، لكن اشتبه على بعض الرواة فجعله مرفوعاً ، وقد حرر ذلك البيهقى — فى كتابه « الأسماء والصفات » ص ٣٨٣ ، ٣٨٤ — وذكره ابن كثير فى « تفسيره » وقال بعضهم : هذا الحديث فى متنه غرابة شديدة ، فمن ذلك أنه ليس فيه ذكر السموات ، وفيه ذكر خلق الأرض ، وما فيها فى سبعة أيام ، وهذا خلاف القرآن ، لأن الأربعة خلقت فى أربعة أيام ، ثم خلقت السموات فى يومين .

= وقال الحافظ ابن كثير فى تفسيره فى سورة الأعراف عند الآية ٥٤ ، وفى سورة السجدة عند الآية ٤ ، وفى سورة فصلت عند الآية ٩ — ١٢ ما خلاصته :

فأما حديث أبى هريرة .. فقد رواه مسلم ، والنسائى فى كتابيهما من حديث ابن جريج ، وهو من غرائب الصحيح ، ففيه استيعاب الأيام السبعة ، والله تعالى قد قال : ﴿ فى ستة أيام ﴾ ولهذا تكلم البخارى وغير واحد من الحفاظ فى هذا الحديث ، وجعلوه من رواية أبى هريرة — رضى الله عنه — عن كعب الأحبار وليس مرفوعاً ، وقد علله البخارى فى التاريخ الكبير ١/١ : ٤١٣ فقال : « رواه بعضهم عن أبى هريرة عن كعب الأحبار ، وهو الأصح .

وللشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلّمى اليمانى رحمه الله تعالى فى « الأنوار الكاشفة » ص ١٨٨ — ١٩٣ كلام طويل حول هذا الحديث وتوجيه رواية أبى هريرة هذه ...

وقد قال الحافظ عبد القادر القرشى فى آخر كتابه « الجواهر المضيئة فى طبقات الحنفية » ٢ : ٤٢٩ ، وقد ذكر فيه بعض ما ينتقد على مسلم فى « صحيحه » ومنها هذا الحديث ، وقال : « اتفق الناس على أن يوم السبت لم يقع فيه خلق ، وأن ابتداء الخلق يوم الأحد » انتهى كلام المحقق بهامش الكتاب .

والتوفيق الذى ذكره محقق مختصر مسلم أولى ، كما سبق ، وحيث لا يكون تناقض بين الحديث ، وصريح القرآن الكريم ، والله أعلم بالصواب .

وليس فى كلام ابن القيم وغيره مطعن فى أبى هريرة ، فقد أسند النسيان إلى بعض رجال السند غيره ، فتوهم أن الصحابى رفعه إلى النبى — ﷺ .

ويبقى السؤال عن شخصية كعب الأحبار ، وإليك ما ذكره محقق الكتاب السابق فى ص ٨٩ وما بعدها : بتصرف :

« هو كعب بن ماتع الحميرى ، والأحبار (العلماء) ، وكان هو من أحبار اليهود ، ومن أوسعهم اطلاعاً على كتبهم ، ولد فى اليمن ، وكان من المخضرمين ، أدرك الجاهلية ، والإسلام ، وأقام فى اليمن إلى أن هاجر ، وأسلم سنة اثنتى عشرة فى زمن عمر — رضى الله عنه ، ومات بحمص سنة ٣٢ هـ . =

مـم خلـق ، وكيـف ؟

تجيب الآيات القرآنية بأن آدم ـــ عليه السلام ـــ خُلق من تراب ، وفى ذلك يقول الله تعالى :

﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له كن فيكون ﴾ (٤) .

وبأنه خلقه من طين . وفى ذلك يقول تعالى :

﴿ إذ قـال ربك للملائكة : إنى خالق بشراً من طين ﴾ (٥) .

ويقول أيضاً :

﴿ إنا خلقناهم من طين لازب ﴾ (٦) .

وبأنه خلقه من صلصال ، وفى ذلك يقول :

= وقد كان كعب كثير الحديث عن الأوائل ؛ حتى نهاه عمر رضى الله عنه ، عن ذلك ، فى قوله :

«لتتركن الحديث عن الأول ، أو لألحقنّك بأرض القردة » .

وقد قال معاوية – رضى الله عنه . عنه فى رواية للبخارى « كتاب الاعتصام »

« إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب ، وإن كنا لنبلو عليه الكذب » .

ونهاه عوف بن مالك أن يقص على الناس ؛ كما فى الإصابة لابن حجر فى المخضرمين . كما أن حذيفة قال فيه : كذب كعب ، حين زعم أن السماء تدور على قطب كالرحى . وقد قال الشيخ أحمد شاكر – رحمه الله – فى تعليقه على تفسير ابن حجر ٦ : ٤٥٧ « إن رواية كعب الأحبار إنما هى لاشىء ، ولا يحتج بها » .

(٤) سورة آل عمران ، الآية رقم ٥٩ .

(٥) سورة ص ، الآية رقم ٧١ .

(٦) سورة الصافات ، الآية رقم ١١ .

﴿ خلق الإنسان من صلصال كالفخار ﴾ (٧)

وبأن هذا الصلصال من حمأ مسنون ، وفى ذلك يقول :

﴿ قال : لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون ﴾ (٨)

ويقول أيضاً :

﴿ إنى خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون ﴾ (٩) .

ولا غرابة فى هذا الاختلاف ؛ فالأصل الأول هو التراب ، فإذا ما خلط بالماء صار طيناً ، وإذا ما طالت عليه المدة الزمنية صار الطين حمأ مسنوناً ؛ أى طيناً متغيراً ، وإذا ما شكل هذا الحمأ المسنون ، ثم جف ، صار صلصالاً ، إذا ما قُرع أصدر صوتاً ، ورنيناً كالفخار ، فأمكن بذلك الرجوع إلى مرحلة من هذه المراحل ، فى بيان أصل الخلق .

عن أبى هريرة — رضى الله عنه — أن النبى — ﷺ — قال :

« إن الله خلق آدم من تراب ، فجعله طيناً ، ثم تركه ، حتى إذا كان حمأ مسنوناً ، خلقه ، وصوره ، ثم تركه ، حتى إذا كان صلصالاً كالفخار كان إبليس يمر به فيقول : لقد خلقت لأمر عظيم ، ثم نفخ الله من روحه ، وكان أول ما جرى فيه الروح بصره ، وخياشيمه ، فعطس ، فقال : الحمد لله ، فقال الله : يرحمك ربك ... » (١٠) .

---

(٧) سورة الرحمن ، الآية رقم ١٤ .

(٨) سورة الحجر ، الآية رقم ٣٣ .

(٩) سورة الحجر ، الآية رقم ٢٨ .

(١٠) رواه الترمذى ، والنسائى ، والبزار ، وصححه ابن حبان ، ذكره الحافظ ابن حجر ، فى فتح البارى بشرح البخارى . كتاب أحاديث الأنبياء ، باب خلق آدم وذريته جـ ١٣ ص ٩٧ طبعة مكتبة الكليات الأزهرية بمصر ١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨ م .

وعن أنس بن مالك ـــ رضى الله عنه ـــ أن النبى ـــ ﷺ ـــ قال :

« لما خلق الله آدم تركه ما شاء أن يدعه ، فجعل إبليس يطيف به ، فلما رآه أجوف عرف أنه لا يتمالك » (١١) .

وعن أبى موسى ـــ رضى الله عنه ـــ أن النبى ـــ ﷺ ـــ قال :

« إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض » (١٢) .

ثم إنه خلقه خلقاً سوياً فى أحسن تقويم ، وفى ذلك يقول الله تعالى :

﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ﴾ (١٣) .

وقد بلغ طوله حين خلقه ستين ذراعاً ، كثير شعر الرأس كأنه نخلة سحوق ، مرتفعة عالية ، وعلى صورة القمر ليلة البدر .

فعن أبى هريرة ـــ رضى الله عنه ـــ عن النبى ـــ ﷺ ـــ قال :

« خلق الله آدم ، وطوله ستون ذراعاً ، فلما خلقه ، قال : اذهب فسلم على أولئك من الملائكة ، فاستمع ما يحيونك ، تحيتك وتحية ذريتك ، فقال : السلام عليكم ، فقالوا : السلام عليكم ورحمة الله ، فزادوه ورحمة الله ، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم ، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن » (١٤) .

وقال أيضاً :

« إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، ثم الذين

---

(١١) رواه أحمد ، ومسلم . المرجع السابق .

(١٢) رواه أبو داود ، والترمذى ، وصححه ابن حبان . المرجع السابق .

(١٣) سورة التين ، الآية رقم ٤ .

(١٤) أخرجه البخارى كتاب الأنبياء ، باب خلق آدم جـ ٤ ص ١٥٩ ، وفى الفتح جـ ١٣ ص ١٠١ ، رقم ٣٣٢٦ .

يلونهم ، على خلق رجل واحد ، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً فى السماء » (١٥) .

وعن أبى بن كعب ــ رضى الله عنه ــ أن النبى ــ ﷺ ــ قال :

« إن الله خلق آدم رجلاً طوالاً ، كثير شعر الرأس ، كأنه نخلة سحوق » (١٦) .

ودبت الحياة فى هذا الجسم الذى سواه الله سبحانه ، ثم نفخ فيه من روحه .

وفى ذلك يقول الله تعالى :

﴿ فإذا سويته ، ونفخت فيه من روحى ، فقعوا له ساجدين ﴾ (١٧) .

وكان اكتمال خلقه يوم الجمعة كما سبق .

عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ أن النبى ــ ﷺ ــ قال :

« خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه خُلق آدم ، وفيه أُدخل الجنة ، وفيه أُخرج منها ، ولا تقوم الساعة إلا فى يوم الجمعة » (١٨) .

آدم وحواء .

يقول الله تبارك وتعالى :

---

(١٥) صحيح البخارى . الكتاب والباب السابقان ، رقم ٣٣١٧ مع اختصار ، وصحيح مسلم كتاب صفة الجنة ، مع اختلاف فى اللفظ .

(١٦) رواه ابن أبى حاتم بإسناد حسن ، ذكره الحافظ فى الفتح . نفس الكتاب والباب ، ص ١٠٢ .

(١٧) سورة الحجر ، الآية رقم ٢٩ وسورة ص ، الآية رقم ٧١ .

(١٨) أخرجه مسلم والنسائى ، واللفظ لمسلم ، المختصر ، باب فضل يوم الجمعة رقم ٤٠٠

﴿ يأيها الناس ، اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ﴾ (١٩) .

وتؤكد الآيات الكريمة ، والأحاديث الشريفة السابقة ، أن هذه النفس الواحدة هى نفس آدم – عليه السلام –ولا ريب فى ذلك ، كما تؤكد آية النساء السابقة أن زوج آدم — عليه السلام — وهى حواء ، خلقت من هذه النفس الواحدة ، نفس آدم — عليه السلام .

ويأتى الحديث الشريف ليبين ذلك ؛ فعن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — ﷺ :

« استوصوا بالنساء فإن المرأة خُلقت من ضلع ، وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء » (٢٠) .

وبمجموع الآية الكريمة ، والحديث الشريف ، نعلم أن المخلوق الأول من البشر هو آدم — عليه السلام — وأن حواء خُلقت من أحد أضلاعه .

آدم والملائكة — عليهم السلام .

خلق الله سبحانه آدم — عليه السلام — وأهَّله بالعلم لقيادة المخلوقات إذا ما سار على منهج خالقه سبحانه . منهج التفكير ، والتلقى من الله سبحانه ، وقد ظنت الملائكة أن مصدر الخلق المتمايز ، هو أصل المفاضلة ، فعن أم المؤمنين عائشة (٢١) — رضى الله عنها — أن النبى — ﷺ — قال :

« خُلقت الملائكة من نور ، وخُلق إبليس من مارج من نار ، وخُلق آدم

---

(١٩) سورة النساء ، الآية رقم ١ .

(٢٠) أخرجه الشيخان ، صحيح البخارى ، جـ ٤ ص ١٦٠ ، مختصر مسلم كتاب النكاح ، باب فى مداراة النساء ، والوصية بهن جـ ١ ص ٢١٨ ، ٢١٩ رقم ٨٤٤ .

(٢١) هى أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر الصديق — رضى الله عنهما — أمها =

مما وصف لكم » (٢٢) أى من طين ، فرد الله سبحانه عليهم حجتهم ، وبين لهم أن أساس التكريم ما آتاه الله سبحانه وتعالى لآدم — عليه السلام — من علم ، وفى ذلك يقول الله تعالى :

﴿ وإذ قال ربك للملائكة : إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ، ونقدس لك ؟ قال : إنى أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة ، فقال : أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك ! لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم ، قال : يا آدم ، أنبئهم بأسمائهم . فلما أنبأهم بأسمائهم ، قال : ألم أقل لكم : إنى أعلم غيب

= أم رومان ابنة عامر ، خطبها النبى — ﷺ — بمكة ، وتزوجها فى شوال سنة عشر من النبوة وهى بنت ست سنين ، وعرس بها فى المدينة وهى بنت تسع سنين ، ومات عنها ولها ثمانى عشرة سنة ، ولم يتزوج بكراً غيرها ، وكانت فقيهة عالمة فصيحة فاضلة ، كثيرة الحديث عن رسول الله — ﷺ — روى عنها جماعة من الصحابة والتابعين ، توفى رسول الله — ﷺ — فى بيتها ودُفن فيه ، وماتت بالمدينة سنة سبع وخمسين ، ودُفنت بالبقيع ، وصلى عليها أبو هريرة — رضى الله عنهما .

ومما ورد بشأنها : عن عمرو بن العاص — رضى الله عنه — أن النبى — ﷺ — بعثه على جيش ذات السلاسل ، فأتيته ، فقلت : أى الناس أحب إليك ؟ قال : « عائشة » فقلت : من الرجال ؟ قال : « أبوها » قلت : ثم من ؟ قال : « ثم عمر بن الخطاب » فعد رجالاً ، أخرجه الشيخان ، اللؤلؤ والمرجان ، كتاب فضائل الصحابة ، رقم ١٥٤٢ .

وعن عائشة — رضى الله عنها — أن النبى — ﷺ — قال لها : « يا عائشة ، هذا جبريل يقرأ عليك السلام » فقالت : وعليه السلام ورحمة الله وبركاته ، ترى ما لا أرى ، تريد النبى — ﷺ » أخرجه الشيخان ، المرجع السابق رقم ١٥٨٩ .

وقد نزل وحى من السماء بشأن تبرئتها كما فى سورة النور .

(٢٢) أخرجه مسلم ، وأحمد ، المختصر كتاب التفسير ، سورة الرحمن رقم ٢١٦٩ عزوه لأحمد من ابن كثير فى تفسيره لسورتى الأعراف ، والحجر .

السموات والأرض ، وأعلم ما تبدون ، وما كنتم تكتمون ﴾ (٢٣) .

وعلى أساس هذا التكريم ، طلب الله سبحانه إلى الملائكة ، السجود لآدم — عليه السلام — فكانت إجابتهم الفورية بالسجود ، قال تعالى :

﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين ﴾ (٢٤) .

وصدق الله سبحانه إذ قال فيهم :

﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ﴾ (٢٥) .

وتعلم آدم — عليه السلام — الأسماء كلها من ربه سبحانه مباشرة ، كما تلقى العلم أيضاً على يد الملائكة ؛ فعن أبى هريرة — رضى الله عنه — عن النبى — ﷺ — قال :

« خلق الله آدم ، وطوله ستون ذراعاً ، ثم قال : اذهب فسلم على أولئك من الملائكة ، فاستمع ما يحيونك تحيتك ، وتحية ذريتك ، فقال : السلام عليكم ، فقالوا : السلام عليك ورحمة الله . فزادوه ، ورحمة الله ، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم ، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن » (٢٦) .

آدم — عليه السلام ، وإبليس .

منذ أن فتح آدم — عليه السلام — عينيه ، وقد رأى الخير والشر ؛ وجد

---

(٢٣) سورة البقرة ، الآيات ٢٩ — ٣٣ .

(٢٤) سورة الحجر ، الآيتان ٣٠ ، ٣١ .

(٢٥) سورة التحريم ، الآية رقم ٦ .

(٢٦) أخرجه البخارى ، كتاب بدء الخلق ، باب خلق آدم ، وقول الله : **﴿ وإذا قال ربك للملائكة ... ﴾** جـ ٤ ص ١٥٩ ، ١٦٠ .

أن الخير فى الملائكة ـــ عليهم السلام ـــ ﴿ **لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾ ، ووجد الشر متمثلاً فى إبليس لعنه الله ، ﴿ **فسق عن أمر ربه** ﴾ ، وفى وصف النوعين ورد قوله تعالى :

﴿ **فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين** ﴾

وتوعد إبليس أبناء آدم ـــ عليه السلام ـــ بالغواية والإضلال إلى يوم القيامة ، قال الله تعالى على لسانه :

﴿ **قال : رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ، ولأغوينهم أجمعين** ﴾ (٢٧) .

وقال :

﴿ **لأحتنكن ذريته إلا قليلاً** ﴾ (٢٨) .

كل من آدم ـــ عليه السلام ـــ وإبليس ـــ عليه لعنة الله ـــ من خلق الله سبحانه ، ولكنهما اختلفا وتباينا فى أمور كثيرة .

فآدم ـــ عليه السلام ـــ أبو البشر ، خُلق من طين ، وإبليس وذريته من الجن خلقوا من نار السموم ، قبل خلق آدم ـــ عليه السلام ـــ وفى ذلك يقول الله تعالى :

﴿ **وإذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه** ﴾ (٢٩) .

ويقول أيضاً :

---

(٢٧) سورة الحجر ، الآية رقم ٣٩ .

(٢٨) سورة الإسراء ، الآية رقم ٦٢ .

(٢٩) سورة الكهف ، الآية رقم ٥٠ .

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون ، والجان خلقناه من قبل من نار السموم ﴾ (٣٠) .

وزعم إبليس أن خلقه من نار يعطيه أفضلية على آدم — عليه السلام — قال الله تعالى على لسانه :

﴿ أنا خير منه ؛ خلقتنى من نار ، وخلقته من طين ﴾ (٣١) .

وفى الحديث الشريف ما يدل على التباين فى الخلق كما سبق .

ولكن الله سبحانه فضل آدم — عليه السلام — بما آتاه من علم على إبليس ، وذريته ، وعلى الملائكة أيضاً وهم أفضل من إبليس وذريته ؛ بناء على حجته هو ، فى أن مناط التفضيل مرتبط بأصل الخلق ، فالنور أفضل من النار . ولكن الملائكة قد لبت أمر الله سبحانه ، فى السجود لآدم — عليه السلام — وإبليس أبى ، واستكبر ، فاستحق بذلك غضب الله سبحانه إلى يوم الدين . يقول الله تعالى :

﴿ قال : يا إبليس ، ما لك ألا تكون مع الساجدين ؟ قال : لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون ، قال : فاخرج منها ؛ فإنك رجيم ، وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين ﴾(٣٢) .

ووصف الله سبحانه هذا الإباء استكباراً ، وفسقاً ، فقال :

﴿ إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴾ (٣٣) .

---

(٣٠) سورة الحجر الآيتان ٢٦ ، ٢٧ .

(٣١) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٢ .

(٣٢) سورة الحجر ، الآيات ٣٢ — ٣٥ .

(٣٣) سورة البقرة ، الآية رقم ٣٤ .

وثبت فى الصحيح عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال :

« لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر » (٣٤) .

وابتدأت عداوة إبليس وذريته لآدم ـ عليه السلام ـ ولذريته ؛ يقف لهم فى طريق الخير ؛ يصدهم عنه ، ويزين لهم طريق الشر ، وإذا ما كانت النفس البشرية تلح فى طلب معصية بذاتها ، ولا ترضى بغيرها بديلاً ، فإن الشيطان يراوغ الإنسان ، إذا لم يستجب للشيطان فى أمر ، سلك معه سبيلاً آخر ، وسبيلاً ثالثاً دون يأس منه ، لأن بغيته معصية الإنسان على أى حال ، وعلى أى درجة من الدرجات ، والمعصوم من عصمه الله تعالى . قال الله تعالى :

﴿ قال : فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾ (٣٥) .

وحذر الله سبحانه آدم ـ عليه السلام ـ وحواء من إغواء إبليس ، ومعصية الله سبحانه ، ولا يكفى المرء أن يعرف عدوه فقط ، بل عليه أن يتعرف إلى أساليبه فى الإغواء التى تيسر ارتكاب المنكر ، يقول الله تعالى :

﴿ فقلنا يا آدم ، إن هذا عدو لك ولزوجك ، فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ، إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ، وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ﴾ (٣٦) .

وبدأت أول محاولة للإغواء ، ومخالفة أمر الله سبحانه ؛ فقد طلب الله سبحانه إلى آدم ـ عليه السلام ـ وحواء ، ألا يقربا هذه الشجرة ، وكانت وسوسة إبليس على هذا النحو : اتجه إبليس إليهما يهوّن من أمر النهى عن الشجرة ، والأكل منها ، وأن الأكل منها سبيل إلى تحقيق ملك لا يبلى ، واتخذ

---

(٣٤) أخرجه مسلم عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ المختصر رقم ٥٤ مع زيادة .

(٣٥) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٦ .

(٣٦) سورة طه ، الآيات ١١٧ ـ ١١٩ .

إبليس القسم بالله سبحانه مؤكداً صدقه المزعوم ، ونصحه الكاذب ، وفى ذلك يقول الله تعالى :

﴿ فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما وورى عنهما من سوآتهما ، وقال : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين ، أو تكونا من الخالدين ، وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين ﴾ (٣٧) .

وأمام التهوين من شأن النهى ، والقسم بصحة الزعم ، وأن خيراً كبيراً سيتحقق من الأكل من الشجرة كما زعم إبليس ، وأمام إلحاحه عليهما ، والإتيان إليهما من كل باب أكل آدم ــ عليه السلام ــ وحواء ، فبدت عوراتهما ، ثم كان الخروج من الجنة ، وتبين لآدم ــ عليه السلام ــ وحواء أن تبريرات إبليس جوفاء ، لا أصل لها ، وإن كان بعد فوات الأوان . وعليهما أن يستفيدا من التجربة بطاعة الله سبحانه ، وعدم الانصياع لإبليس من أى باب ، وفى ذلك يقول الله تعالى :

﴿ فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ، قال : اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو ، فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ (٣٨) .

وتوجهت الآيات بإثبات المعصية من آدم ــ عليه السلام ــ وحده « فتشقى » ، « تجوع » ، « تعرى » ، « تظمأ » ، « تضحى » على الرغم من أن إبليس استغل حواء فى الوصول إلى المعصية . فعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ــ ﷺ :

---

(٣٧) سورة الأعراف ، الآيتان ٢٠ ، ٢١ .

(٣٨) سورة طه ، الآيات ١٢١ ــ ١٢٤ .

« لولا حواء لم تخن أنثى زوجها الدهر » (٣٩) .

كما تدل الآيات السابقة أيضاً على أن الله سبحانه تاب على آدم ــ عليه السلام ــ ثم اصطفاه رسولاً ﴿ **ثم اجتباه ربه ، فتاب عليه وهدى** ﴾ وقد قال الله سبحانه فى موطن آخر :

﴿ **إن الله اصطفى آدم** ﴾ (٤٠) .

وكانت العصمة من المعصية بعد هذا الاجتباء ، والاصطفاء ، وازداد اليقين بقدر الله سبحانه ؛ فعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ــ ﷺ ــ قال :

« حاج موسى آدم ، فقال له : أنت الذى أخرجت الناس من الجنة بذنبك ، وأشقيتهم . قال : قال آدم : يا موسى ، أنت الذى اصطفاك الله

---

(٣٩) أخرجه مسلم فى كتاب النكاح ، باب لولا حواء لم تخن أنثى زوجها ، المختصر جـ ١ ص ٢١٩ رقم ٨٤٦ . وورد بالهامش تعليق المحقق الشيخ ناصر الدين الألبانى (أى لولا حواء خانت آدم فى إغوائه ، وتحريضه على مخالفة الأمر بتناول الشجرة ، وسنت هذه السنة لما سلكتها أنثى مع زوجها ، وذلك منها خيانة . وليس المراد بالخيانة الزنا) .

(٤٠) سورة آل عمران ، الآية رقم ٣٣ .

قال صاحب الفتح فى باب قول الله عز وجل :

﴿ **لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه** ﴾ (سورة الأعراف الآية رقم ٥٩) فى شرح الحديث الذى وردت فيه هذه العبارة : **« يا نوح ، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض »** رقم الحديث فى الفتح ٣٣٤٠ جـ ١٣ ص ١١٠ .

« فأما كونه أول الرسل ، فقد استشكل بأن آدم كان نبياً ، وبالضرورة تعلم أنه كان على شريعة من العبادة ، وأن أولاده أخذوا ذلك عنه ؛ فعلى هذا فهو رسول إليهم ، فيكون هو (أى آدم) أول رسول .

فيحتمل أن تكون الأولية فى قول أهل الموقف لنوح مقيدة بقولهم : إلى أهل الأرض ؛ لأنه فى زمن آدم لم يكن للأرض أهل ، أو لأن رسالة آدم إلى بنيه كانت كالتربية للأولاد ، ويحتمل أن يكون المراد أنه (أى نوح) رسول أرسل إلى بنيه وغيرهم من الأمم الذين أرسل إليهم مع تفرقهم فى عدة بلاد ، وآدم إنما أرسل إلى بنيه فقط ، وكانوا مجتمعين فى بلدة واحدة » .

برسالته ، وبكلامه . أتلومنى على أمر كتبه الله علىّ قبل أن يخلقنى ، أو قدره علىّ قبل أن يخلقنى ؟ قال رسول الله ــ ﷺ ــ فحج آدم موسى » (٤١) .

آدم فى السماء الأولى .

فى حادثة الإسراء والمعراج حدَّث أنس بن مالك (٤٢) عن مالك ابن صعصعة ، قال : قال النبى ــ ﷺ :

« .. فانطلقت مع جبريل حتى أتينا السماء الدنيا ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل . قيل : من معك ؟ قيل : محمد . قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحباً به ، ولنعم المجىء جاء . فأتيت على آدم فسلمت عليه ، فقال : مرحباً بك من ابن ، ونبى ... » (٤٣) .

وروى أبو ذر (٤٤) ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ــ ﷺ ــ قال :

---

(٤١) أخرجه الشيخان . صحيح البخارى ، كتاب التفسير ، سورة طه جـ ٦ ص ١٢٠ ، ١٢١ . مختصر مسلم جـ ٢ ص ٢٤٦ رقم ٢٨٤٢ . كتاب القدر ، باب إثبات القدر ، وتحاج آدم وموسى .

(٤٢) هو أبو حمزة الأنصارى من بنى النجار ، خدم رسول الله ــ ﷺ ــ منذ قدم المدينة إلى وفاته ــ ﷺ ــ وقد كانت سنه حين الهجرة عشر سنين أو دون ذلك بقليل ، سكن البصرة من خلافة عمر ــ رضى الله عنهما ــ يفقه الناس ، وطال عمره وهو آخر من مات من الصحابة فى البصرة سنة ٩٣ أو ٩٢ أو ٩١ .

أخرج الشيخان عن أم سليم ــ رضى الله عنها ــ قالت : يا رسول الله ، أنس خادمك ، ادع الله له ، قال : « **اللهم أكثر ماله ، وولده ، وبارك له فيما أعطيته** » اللؤلؤ والمرجان رقم ١٦١٢ .

(٤٣) أخرجه الشيخان . صحيح البخارى ، كتاب بدء الخلق جـ ٤ ص ١٣٣ . مختصر مسلم ، كتاب الإيمان باب الإسراء جـ ١ ص ٢٦ رقم ٧٦ .

(٤٤) اسمه جُنْدب بضم الجيم وسكون النون وضم الدالة المهملة ، وفتحها أيضاً ، ابن جُنادة ، بضم الجيم ، وهو من أعيان الصحابة المهاجرين وزهادهم ، وهو أول من حيا

« .. فلما جاء إلى السماء الدنيا ، قال جبريل لخازن السماء الدنيا : افتح . قال : من هذا ؟ قال : هذا جبريل . فلما علونا السماء ، إذا رجل عن يمينه أسودة ، وعن يساره أسودة . فإذا نظر قبل يمينه ضحك ، وإذا نظر قبل شماله بكى ، فقال : مرحباً بالنبى الصالح ، والابن الصالح . قلت : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا آدم ، وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نسم بنيه ؛ فأهل اليمين منهم أهل الجنة ، والأسودة التى عن شماله أهل النار ؛ فإذا نظر قبل يمينه ضحك ، وإذا نظر قبل شماله بكى .. » (٤٥) .

ونرى فى الحديثين فرح آدم ــ عليه السلام ــ بقدوم النبى ــ ﷺ ــ وفرحه أيضاً بمن عمل صالحاً فاستحق دخول الجنة فى الآخرة .

آدم والشفاعة :

عن أبى سعيد الخدرى (٤٦) ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ــ ﷺ ــ قال :

= النبى ــ ﷺ ــ بتحية الإسلام ، وأسلم قديماً بمكة . يقال : كان خامساً فى الإسلام ، ثم انصرف إلى قومه إلى أن قدم المدينة على النبى ــ ﷺ ــ بعد الخندق ، ثم سكن بعد وفاته ــ ﷺ ــ الربذة إلى أن مات بها سنة اثنتين وثلاثين فى خلافة عثمان ، وصلى عليه ابن مسعود ــ رضى الله عنهم .

ومما ورد بشأنه ما أخرجه مسلم عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ قول النبى ــ ﷺ ــ بعد أن أسلم : **« ارجع إلى قومك فأخبرهم ؛ حتى يأتيك أمرى »** المختصر رقم ١٨٠٥ ، وقوله فى قومه : **« غفار غفر الله لها »** رقم ١٨٠٤ فى رواية عبد الله وأخرجه البخارى أيضا . اللؤلؤ والمرجان رقم ١٦٣٦ .

(٤٥) أخرجه الشيخان . صحيح البخارى ، كتاب الأنبياء ، وكتاب الصلاة ، ومختصر مسلم باب الإسراء رقم ٧٦ جـ ١ .

(٤٦) اسمه سعد بن مالك بن سنان الخزرجى الأنصارى الخدرى ، نسبة إلى خدرة حى من الأنصار . قال الذهبى : كان من علماء الصحابة ، وممن شهد بيعة الشجرة ، وروى حديثاً كثيراً ، وأفتى مدة . عاش ستا وثمانين سنة ، ومات فى أول سنة أربع وسبعين . وحدث عنه جماعة من الصحابة ، وله فى الصحيحين أربعة وثمانون حديثاً .

« يقول الله تعالى : يا آدم ، فيقول : لبيك وسعديك ، والخير فى يديك . فيقول : أخرج بعث النار . قال : وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين ، فعنده يشيب الصغير ، تضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد » (٤٧) .

وفى وسط هذا الهول الشديد يلجأ الناس إلى من يشفع لهم عند ربهم سبحانه . فيتجهون أول ما يتجهون إلى آدم ــ عليه السلام ــ فعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : كنا مع النبى ــ ﷺ ــ فى دعوة ، فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه ، فنهس منها نهسةً ، وقال :

« أنا سيد القوم يوم القيامة . هل تدرون بمن يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد ؟ فيبصرهم الناظر ، ويسمعهم الداعى ، وتدنو منهم الشمس ، فيقول بعض الناس : ألا ترون إلى ما أنتم فيه إلى ما بلغكم ؟ ألا تنظرون إلى من يشفع لكم إلى ربكم ؟ فيقول بعض الناس : أبوكم آدم .

فيأتونه ، فيقولون : يا آدم ، أنت أبو البشر ؛ خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، وأسكنك الجنة . ألا تشفع لنا إلى ربك ؟ ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا ؟ فيقول : ربى غضب غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولا يغضب بعده مثله ، ونهانى عن الشجرة فعصيته . نفسى . نفسى . اذهبوا إلى غيرى . اذهبوا إلى نوح . فيأتون نوحاً . فيقولون : يا نوح ، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض ، وسماك الله عبداً شكوراً . أما ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى إلى ما بلغنا ؟ ألا تشفع لنا إلى ربك ؟ فيقول : ربى غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولا يغضب بعده مثله . نفسى .

---

(٤٧) أخرجه الشيخان . البخارى كتاب الأنبياء جـ ٤ ص ٦٨ مختصر مسلم . كتاب الإيمان جـ ١ ص ٣٧ رقم ١٠٣ .

نفسى . ائتوا النبى — ﷺ — فيأتونى ، فأسجد تحت العرش . فيُقال : يا محمد ، ارفع رأسك ، واشفع تشفع ، وسل تعطه » (٤٨) .

(٤٨) أخرجه الشيخان . واللفظ للبخارى . كتاب بدء الخلق ، باب قول الله تعالى : ﴿ **إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه** ﴾ جـ ٤ ص ١٦٢ ، ١٦٣ . مختصر مسلم . كتاب الإيمان ، باب الشفاعة جـ ١ ص ٣٣ . (انظر إلى فصل نوح عليه السلام) ، لتعرف المراد من « أنت أول الرسل » .

دروس وعبر :

والمتأمل فى سيرة آدم ــ عليه السلام ــ يرى :

ــ أن الله سبحانه وتعالى خلق آدم ــ عليه السلام ــ خلقاً خاصاً ، غير متطور عن الحيوانات التى قبله .

ــ وأن خلق آدم ــ عليه السلام ــ تم بعد أن خلق الله سبحانه من سماء وأرض ، وجبال وأشجار ، ودواب ؛ لتكون جميعها فى خدمة آدم ــ عليه السلام ــ يُسخرها فى طاعة الله سبحانه ، ولا يُسخر هو لها بعبادتها من دون الله سبحانه .

ــ وأن تكريم الإنسان ليس بشكله ، ولا بأصله ، ولكن بما حصله من علم آتاه الله سبحانه إياه ، وبما عمل من عمل صالح .

ــ وأن عداوة إبليس وذريته لآدم ــ عليه السلام ــ وذريته منذ المرحلة الأولى فى خلق آدم ــ عليه السلام .

ــ وأن إبليس يختار الوقوف بالطريق المستقيم ليصد الناس عنه ، متخذاً فى تحقيق مآربه كل أساليب الإغواء ، وتزيين المخالفة ، واتخاذ التبريرات لإحباط الهمم كخطوة أولى للانحراف .

ــ وأن الكبر الذى كان سبباً فى لعنة إبليس ، وطرده من رحمة الله تعالى ، سبب أيضاً فى غضب الله سبحانه على من اتصف به من بنى آدم .

ــ وأن إبليس يتخذ من المرأة ما يهون عليه مهمته .

ــ وأن الذى يتحمل أعباء الحياة وتكاليفها فى الدرجة الأولى هو الرجل .

ــ وأن العرى وكشف العورات من مقاصد إبليس ، وذريته وأن فطرة الإنسان تأبى ذلك .

ــ وأن التوبة تمحو المعصية ، وأن البصير هو الذى يستفيد من

التجربة ، ويأخذ العبرة والعظة ، ويعرف عدوه من صديقه .

ـــ وأن الأنبياء والرسل جميعاً ـــ عليهم الصلاة والسلام ـــ على طريق واحد وطريق الإسلام ، وأن الناس يلجئون إليهم يوم القيامة ؛ ليشفعوا لهم عند ربهم ، وأن صاحب الشفاعة العظمى يوم القيامة هو النبى محمد ﷺ .

التطور في الخلق

- عرض تاريخي عام .
- أشهر القائلين بالتطور العضوى .
- أشهر القائلين بالتطور العام .
- النظرية كما يراها أصحابها .
- القواعد الأربعة لنظرية دارون : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤
- الحفريات التاريخية التى يعتمدون عليها .
- مناقشات وردود .
- أدلة من علم التشريح المقارن .
- مواقف مخزية لبعض علماء التطور تُظهر كذبهم .
- كيف تُدرس نظرية دارون فى بلادنا ؟ .
- الخلق الخاص .
- التشابه والاختلاف .
- العالم يكرم عالماً يقول بالخلق الخاص .
- ما الهدف من إشاعة نظرية باطلة ؟
- خاتمة .

قال الله تعالى :

﴿ **قُلْ سيروا فى الأرضِ فانظروا كيف بَدَأ الخلقَ ثم الله يُنشئ النشأة الآخرة ، إن الله على كل شىءٍ قديرٌ** ﴾ .

الآية (٢٠) من سورة العنكبوت .

« لا تتصوروا أن تصريحاتنا كلمات جوفاء ، ولاحظوا أن نجاح دارون ، وماركس ، ونتشه ، قد رتبناه من قبل ، والأثر غير الأخلاقي لاتجاهات هذه العلوم فى الفكر الأممى (غير اليهودى) سيكون واضحاً لنا على التأكيد » .

برتوكولات حكماء صهيون أو الخطر اليهودى
ص ١٢٣ ، ١٢٤ البروتوكول الثانى .

عَرض تاريخى عام

منذ مطلع القرن الثامن عشر حتى الآن والعالم يعج بمبادئ ومذاهب وآراء هادئة أحياناً ، ومضطربة أحياناً ؛ معبرة فى حالتيها عن مشاعر وأحاسيس أصحابها .

وقد بلغ الغرب المبلغ الكبير فى تصدير هذه الآراء والأفكار إلى العالم بأجمعه ، وبخاصة المنطقة التى تفتقر إلى الغرب لتأخذ منه ما تحتاج من وسائل المعيشة والحياة .

وإنها لفترة مظلمة حقاً تلك التى يعيشها أهل تلك المنطقة ، حين تركوا أو أهملوا دينهم الذى جعلهم قادة الدنيا ، وقد كان لهم فعلاً هذا الأمر حين اعتزوا به ، وترسموا خطاه ، وبذلوا كل ما فى وسعهم لنهضتهم العلمية ، ليخشوا الله عز وجل ، وحين انحرفوا عن الطريق المستقيم تردّوا فى الجهل المطبق ، والشقاء الدنيوى ، والاستعمار الكافر بوجهيه : الحربى ، والفكرى .

وأى جهل أكبر وأسوأ من أن نعيش على فتات موائد الغرب العفن ، بعد أن نبذوه ، وطرحوه ، وأصبحنا نقلد كالقرود الأفكار البالية المهتزة التى قال العلم المنصف فيها كلمته ، وكشف التزييف فيها .

وظهر على مسرح الوجود شىء غريب جداً .

هذا الشىء هو تطور الأحياء عن بعضها ، بما فى ذلك الإنسان . فالإنسان متطور عن غيره ، وليس خلقاً مستقلاً أوله آدم — عليه السلام .

وإذا ذكرت كلمة الأحياء ، يُقصد بها النبات والحيوان والإنسان ، فالإنسان متطور عن الحيوان ، والحيوان متطور بدوره عن النبات ، والنبات كما سنعرف عن بعض القائلين متطور أيضاً عن الجماد .

أشهر القائلين بالتطور العضوى

وأشهر القائلين بالتطور العضوى هذا أى فى النبات ، والحيوان ، والإنسان .

١ – العالم النباتى السويدى كارل لينوس	١٧٠٧ – ١٧٧٨
٢ – العالم النباتى الفرنسى بوتون	١٧٠٧ – ١٧٨٨
٣ – أراسموس دارون جد دارون	١٧٣١ – ١٨٠٢
٤ – العالم الفقيه الإيقوسى لورد منبودو	١٧١٤ – ١٧٩٩
٥ – العالم الفرنسى لامارك	١٧٤٤ – ١٨٢٩
٦ – العالم الإنجليزى شارل دارون	١٨٠٩ – ١٨٨٢
٧ – العالم الإنجليزى رسل والاس	١٨٢٣ – ١٩١٣

وكل من لامارك ودارون ووالاس يقول بتحول الأنواع ، ويرد كثرتها إلى نوع واحد أو أنواع قليلة ، وعلى مباحث هؤلاء الثلاثة يقوم مذهب النشوء أو مذهب التطور ، واشتهرت هذه المباحث باسم « نظرية دارون » على الرغم من عدم اجتيازها مراحل التخمين والظن ، ومعارضتها لليقين ، كما ينطق بذلك العلم نفسه .

أشهر القائلين بالتطور العام

على الرغم من هذه المزاعم على ألسنة القائلين بالتطور العضوى فى النبات ، والحيوان ، والإنسان . هناك من يقولون أيضاً بالتطور العام ، أى فى الكون كله : من جماده ، وأحيائه .

وأشهر القائلين بالتطور العام أى فى الكون كله :—

١ – هربرت سبنسر	١٨٢٠ – ١٩٠٣
٢ – الفيلسوف الإيقوسى هاملتون	١٧٨٨ – ١٨٥٦
٣ – الفيلسوف الألمانى عمانويل كانت	١٧٢٤ – ١٨٠٤

وبذلك نعرف أن هناك نوعين من العلماء القائلين بالتطور .

١ - نوعاً يجعله خاصاً بالنبات والحيوان والإنسان .

٢ - ونوعاً يجعله فى الكون كله ، بما فى ذلك النبات ، والحيوان والإنسان ، والجماد .

والذى يهمنا فى هذه المذكرة النوع الأول لشيوعه ، وللآثار الواسعة ، والكثيرة التى يعج بها عالمنا العربى والإسلامى للأسف الشديد ، حتى وصل الأمر أن ألفت كتب ، وعرضت لوحات ، وكتبت مقالات كلها تعتمد من قريب أو من بعيد على مثل هذه النظرية « نظرية داروين » دون مناقشتها المناقشة العلمية ، مما يجعل القارىء يظنها حقيقة لا جدال فيها ، على الرغم من مخالفتها للحقائق العلمية .

النظريّة كمَا يراهَا أصحابُها

إن نظرية التطور والارتقاء خلاصتها :

أن أنصارها يزعمون أن الحياة الأولى للإنسان والحيوان والنبات بدأت على ظهر هذه الأرض بجرثومة أو جراثيم قليلة ، تطورت من حال إلى حال تحت فواعل طبيعية حتى وصلت إلى هذه التنوعات التى نراها وعلى رأسها الإنسان .

ويقولون : إن الحياة الأولى عندما وُجدت حولَ المستنقعات كان عليها أن تُصارع من أجل البقاء وأن أول عمل وقائى لتحصن الحياة ضد الفناء هو أن تغلفت هذه الحياة بصدف كلسى يقيها من الحرارة . ويقول لامارك مؤسس نظرية التطور والارتقاء :

إن أول درجات سلم الكائنات الحية ، والذى هو بداية البداية التى نشأت منها صور الحياة الأخرى بمختلف أنواعها هو البوليب .

والبوليب هذا وصفه لامارك بقوله : إنه ليس له أعضاء خاصة للحس أو التنفس أو الدوران أو التكاثر وأنه لا شىء إلا قناة صغيرة منفردة للاغتذاء . وأنه يستطيع أن يمتص غذاءه من خلال أى جزء من أجزاء جسمه ، وأن أنواع البوليب هذه لضآلة جسمها تكاد تكون غير ذات شكل معين كأنها كريات من الهلام والجلاتين .

هذا ما يراه لامارك أستاذ دارون فى بداية الخلق ويحددها كما مر (١) .

ويكمل التلميذ دارون الحلقة فيبين طريق السير حتى كان الارتقاء فعلاً كما يدعى .

---

(١) الإسلام ونظرية دارون (بتصرف) للأستاذ أحمد باشميل .

القواعد الأربعة لنظرية دارون :

جاء دارون وخطط ونظم ، وجعل لنظريته قواعد أربعاً تعتمد عليها :

١ - القاعدة الأولى : ناموس تنازع البقاء .

٢ - القاعدة الثانية : الانتخاب الطبيعى .

٣ - القاعدة الثالثة : المطابقة .

٤ - القاعدة الرابعة : الوراثة .

ناموس تنازع البقاء :

أما ناموس تنازع البقاء كما يراه دارون هو أن الكائنات الحية فى تنازع مستمر ، وأن البقاء إنما يكون للأكمل والأقوى من المتنازعين ، أما الأضعف فإنه يتلاشى لأنه غير صالح للحياة .

ويضرب دارون لذلك مثلاً بما معناه .

إذا فرضنا وجود سرب من الأبقار تسير فى غابة ، فإذا رأت مرعى تزاحمت عليه فالقوى منها يفوز بقيمة أكثر من المرعى ، فيزداد قوة على قوة . أما الضعيف فيزداد ضعفاً على ضعف ، ويستمر على هذا حتى يتلاشى .

ناموس الانتخاب الطبيعى :

أما ناموس الانتخاب الطبيعى ، فيقول عنه دارون معقباً على المثل السابق : بأن السرب حينما يمر بطريق وعرة لا يقوى على اختراقها إلا الممتازون منها بالقوة ، وهذا يعنى أن نتيجة هذا السباق بقاء الأقوى والأصلح ، والباقى يتلاشى .

ناموس المطابقة :

والمقصود أيضاً من ناموس المطابقة أن الأسد مثلاً من أكلة اللحوم ، وعلى

هذا له أنياب حادة ، وتطول أمعاؤه طبقاً لآكلى النبات والأعشاب .

ناموس الوراثة :

ومعنى ناموس الوراثة وهو القاعدة الرابعة لنظرية دارون ، أن الصفات العرضية التى تحدث فى الآباء بوساطة اختلاف الأحوال والأوساط المعيشية تنتقل إلى الأبناء . وتظل على هذا حتى تكون الصفات الموروثة جوهرية تميز نوعاً عن نوع آخر . (٢)

والمتتبع لكل ما سبق عن دارون يجد أنه لم يبن هذه النظرية على أسس علمية ثابتة ، لا يمكن الرجوع عنها وإنما بناها على افتراضات وتخمينات وتقديرات تحتمل الخطأ والصواب ، ومثله أستاذه لامارك الفرنسى حين ادعى أن الحياة بدأت على شكل جرثومة ، ولم يستند فى ذلك إلى أساس علمى . (٣)

الحفريات التاريخية التى يعتمدون عليها :

وقد اعتمد القائلون بالتطور على حفريات تاريخية ، ظهر لهم فى زعمهم أنها تؤيد دعوى التطور ، ومن أبرز هذه الآثار :

١ — إنسان بكين عمره نصف مليون إلى مليون سنة اكتشف بقايا آثاره سنة ١٩٢٩ جنوب غربى بكين .

٢ — إنسان جاوة عمره أقل من مليون سنة اكتشفت بقايا آثاره سنة ١٨٩١ فى جزيرة جاوة .

---

(٢) ويلاحظ مع هذا الجزء ما سيجده القارئ في هذه المذكرة في مكان آخر عن ليسنكو الروسي حينا ادعى إلغاء أثر الوراثة في النبات ١٩٣٥ ، واستغل هذا الأمر ستالين فطبقه على الانسان ، وأعلن فشله في موسكو ١٩٦٢ .

(٣) الاسلام ونظرية دارون (بتصرف) .

٣ — إنسان بلتداوين ما قبل نصف مليون سنة اكتشفت بقايا آثاره سنة ١٩١١ فى مدينة بلتداوين .

٤ — إنسان هايدلبرك وهو معاصر لإنسان بلتداوين ، اكتشفت بقايا آثاره سنة ١٩٠٧ فى هايدلبرك الألمانية .

٥ — إنسان نياندرتال ما قبل ١٠٠ ألف سنة إلى ٤٠٠ ألف سنة ، اكتشفت بقايا آثاره فى سنة ١٨٥٦ فى وادى نانلىر .

٦ — إنسان كرومانيون ما قبل ٥٠ ألف سنة [٤] .

ولظهور اختلاف فى المكتشفات الحفرية السابقة بينها وبين الإنسان الحديث ظن القائلون بالتطور أن هذه المكتشفات هى الحلقة بين الإنسان والحيوان . مما يدل حسب ادعائهم على أن الإنسان متطور عن الحيوان والأنواع العليا بشكل خاص ، والمتطور بدورها عن الحيوانات الوسطى وهكذا .

---

(٤) عن مجلة الشهاب للكاتب قيس القرطاس ، العدد التاسع عشر ، السنة الثانية . ٢٤ من شعبان ١٣٨٨ الموافق ١٥ تشرين الثاني ١٩٦٨ والعدد التالي له أيضاً .

« مناقشاتٌ وردُوُد »

وقد أثارت الحفريات السابقة الكثير من المختصين بهذا المضمار ، وناقشها الكثير مناقشة علمية ، وردوا على من اعتمدوا عليها مستدلين على التطور أو النشوء والارتقاء ...

وفيما يلى ما يتناسب مع هذه المذكرة القصيرة من آراء العلماء الذين ناقشوا هذه الحفريات ، أو هذه النظرية .

١ – رأى عالم سوفياتى :

هو العالم اب كاروزينا فى كتابه « مبادئ علم الجيولوجيا » عند كلامه عن جمجمة الإنسان النياندرتالى .

« وقد أثار العثور على هذه الجمجمة نقاشاً حاداً بين العلماء حيث اعتبرها البعض جمجمة الإنسان القديم ، بينما اعتقد البعض أنها جمجمة إنسان معاصر كان قد أصيب بمرض » (٥) .

وزيادة فى توضيح كلام العالم السوفياتى حين ذكر احتمال أن بقايا الإنسان النياندرتالى المكتشفة لإنسان مريض معاصر نذكر هذا النص لأحد (٦) المعنيين بهذه المسألة :

« ... فقد رأيت مرة فى أحد أقطار إفريقيا الشرقية « أريتريا » إنساناً ذا

---

(٥) مجلة الشهاب العدد السابق .

(٦) الاستاذ باشميل في كتابه ص ٨٨ .

شكل غريب ، رأيت شاباً قد اجتمع الناس عليه (وبدافع الفضول) التحقت بهم لأعرف سبب تجمعهم ، وإذا بى أمام شاب طويل القامة ، غير أن الغريب فيه (والذى كان سبب التجمع) هو أن رأسه كانت من الصغر بحيث لا تتناسب مع جسمه . فقد كان حجم الرأس صغيراً جداً ، فعلى الرغم من تجاوزه العشرين من العمر فإن رأسه تكاد تحويها كفا الإنسان العادى . وقد تبين لى أنه لا يستطيع النطق ، ولا يكاد يعقل أو يدرك ، وكانت له عينان ضيقتان جداً ، رأيت هذا فى مدينة « تسنى » عندما كنت فى أريتريا ..

ويعقب الكاتب على ما شاهده فى أزيتريا بقوله :

« فلا شك أن ما وجده الدارونيون من عظام الجمجمة والهيكل التى استدلوا بها على عدم اكتمال تكوين صاحبها ، واستدلوا بها على صحة نظرية التطور والارتقاء ، هو من الأنواع الشاذة التى يُصاحبها النقص فى التكوين » ..

٢ - مناقشة حسابية :

بعد أن ذكر الأستاذ قيس القرطاس (٧) الآثار الحفرية السابقة ، ناقش أهم هذه الحفريات ، وهو الإنسان النياندرتالى قائلاً :

« ومن العجيب أن جمجمة ذلك الإنسان النياندرتالى يبلغ حجمها ١٣٠٠ — ١٦٠٠ س م بينما ذكر فى كتاب علم الحيوان أن حجم جمجمة الإنسان الطبيعى ١٤٨٠ للرجال ، و ١٣٠٠ للنساء ، ويبلغ وزن دماغ الرجل ١٣٥٠ جراماً ويبلغ وزن دماغ المرأة ١٢١٠ جرامات .

وأن أصغر وزن لدماغ بشرى طبيعى مهما كان عرقه ١٠٢٥ جراماً . فلو اعتبرنا بالقياس للنسبة بين الوزن والحجم للإنسان لبلغ الحجم ٩٤٠ س م .

فهل يعتبر الإنسان النياندرتالى شخصاً دون مرتبة الإنسان الحالية ، وهو يبلغ أكثر من الحجم الأخير بكثير ؟ (٨) .

---

(٧) مجلة الشهاب العدد السابق .

(٨)،(٩) قيس القرطاس ، المصدر السابق .

٣ - الإنسان كما هو منذ عشرة ملايين سنة :

« على أن المعلومات المكملة التى ظهرت ، والتى أخفاها أنصار التطور تؤكد أن المعلومات عكس كل ادعاءات أنصار التطور فمن المعلوم أن بقايا هذه الآثار لا يزيد عمرها عن مليون سنة حسب تقدير أنصار التطور أنفسهم .

فلا ندرى ما موقف أنصار التطور إذا كان علماء الآثار قد اكتشفوا آثاراً لجمجمة إنسان مضى عليها عشرة ملايين سنة وقد احتفظت بشكلها الحالى (٩) .

يقول الأستاذ عبد الرزاق نوفل (١٠) :

« وقد أذاع البروفسور .. جوهانس هورذلر » العالم الذرى فى سمنتبال بسويسرا بياناً فى ١٠ مارس ١٩٥٦ عارض فيه نظرية دارون بشدة ، وقال : « إنه لا يوجد دليل واحد من ألف على أن الإنسان من سلالات القرد ، وأن التجارب الواسعة التى أجراها دلت على أن الإنسان منذ عشرة ملايين سنة وهو يعيش منفرداً وبعيداً جداً » .

وأضاف إلى ذلك :

« أن الهياكل التى درس عليها تؤكد نظريته ، وقد قدم البروفسور المذكور للمتحف الطبيعى بمدينة بال قطعة من الفحم بداخلها قطعة من فك إنسان يرجع تاريخها إلى عشرة ملايين سنة . وهذا التاريخ الذى أمكن الحصول فيه على هياكل آدمية » .

« ... وبتاريخ ٣١ مارس ١٩٥٦ أعلن فى أمريكا أن الدكتور « دويتر المشرف على الأبحاث بجامعة « كولومبيا » قد أيد البروفسور « هورذلر » فى وجهة نظره ، واعتبرت نظرية دارون بذلك رأياً لا يستند إلى دليل علمى ، وأن الكائنات إنما خُلقت مستقلة الأنواع استقلالاً تاماً فمنها الإنسان الذى يمشى على

---

(١٠) الله والعلم الحديث ص ٢٣١ . واعتمد عليه الأستاذ عفيف الأسمر في عدد الشهاب السابع ـــ السنة الثامنة ٢٨ من شعبان ١٣٩٤ هـ ١٥ من أيلول ١٩٧٤ م ص ١١ .

رجليه ، ومنها الدواب التى تمشى على أربع ، ومنها الزواحف التى تمشى على بطنها » (١١) .

« وقد ذكر الأستاذ محمد قطب فى كتابه « الإنسان بين المادية والإسلام » أنه قد ذكرت الصحف أخيراً أن عالمين أمريكيين قد كشفا فى أحد الكهوف آثاراً من مخلفات الإنسان الأول ، وأن هذا الكشف سيؤدى إلى نتائج مخالفة لنظرية دارون » .

فلماذا لا تعرض المتاحف النموذج الذى عثر البروفسور عليه ؟ والآثار التى عثر عليها الأمريكيان ؟ (١٢) .

« فكيف يكون الإنسان قبل عشرة ملايين سنة مساوياً للإنسان الحالى ؟ من حيث التركيب العام ؟ وربما طرأت عوارض أو زلازل أو إشعاعات جعلت انحرافاً فى الإنسان قبل مليون سنة .

هذا وإن سلمنا جدلاً بصحة ما زعموه ، وتوفيقاً بين الاكتشافات » (١٣) .

٤ – علم أساسه الخيال :

يقول الدكتور فورد بلات ، ترجمة مجلة المختار تحت عنوان « متى بدأت الحياة على الأرض ؟ » (١٤) ..

« ... لا نستطيع أن نحدد كم من الوقت استغرقت البادرة الأولى من بوادر

---

(١١) الله والعلم الحديث لعبد الرزاق نوفل ص٣٢١ ، ٣٢٢ ،نشر مكتبة صايغ ، طبع دار الجيل للطباعة .

(١٢) قيس القرطاس المصدر السابق .

(١٣) قيس القرطاس المصدر السابق ، يلاحظ فى مكان آخر « نظرية الكوارث » .

(١٤) ركائز الإيمان للأستاذ محمد الغزالي ص ٥٤ .

الحياة لكى تظهر . فلم يكن هناك أى تحديد للوقت آنذاك ، وفى العصور المظلمة ، ظلت القطرات تجيش ، وتضطرب فى مياه البحار الفاترة ، ولابد أن تجمعات لانهائية من الذرات قد حدثت فى المادة العضوية الهلامية ولكن هذه التجمعات كانت تُمحى من الوجود ، بينما تمكنت أفضل القطرات تركيباً من البقاء . أما القطرات الأضعف فقد انهارت خلال عملية يمكن أن نسميها بالاختبار الطبيعى قبل بدء الحياة . وهكذا ظلت العناصر تُكافح وتُناضل نحو خلق الحياة فى سكون وحركة لا تُرى » .

ثم يقول بالنسبة للبروتين :

« ظهرت تدريجياً جزئيات أخرى جبارة ، أو مجموعة من الجزئيات . وهى سلالات معقدة من القطرات الهلامية البسيطة . وتستمر العملية حتى يتكون فى النهاية جزىء البروتين العجيب بعد وقت يبدو كأنه لا نهائى ، وبعد تفاعلات ، وامتزاجات كيميائية لا نهاية لها .

ونحن (أى فورد بلات) نتحدث عن هذا الحدث ، وكأنه وقع فجأة واتحدت معاً فى تركيب خاص .

« والواقع أننا اكتشفنا فقط ظهور المادة البروتينية فى الزمن الماضى ، ولا نعرف كيف جاءت إلى هنا ؟

ويمكننا أن نقول (أى فورد بلات) :

« إن فرصة اتحاد ذرات الكربون والإكسوجين ، والنتروجين والإيدروجين ، وكذلك ذرات الفوسفور ، ومجموعة العناصر الفلزية بالنسب اللازمة ، وفى الظروف الملائمة بعيدة جداً .

إن هذه الفرصة يمكن أن نقارنها بفرصة سقوط مجموعة من أوراق اللعب على مائدة بعد نثرها فى الهواء ، بحيث يتألف منها مجموعات الأرقام مرتبة تماماً .

« وهذه الفرصة تكاد تكون مستحيلة » حتى لو ظللنا نكرر التجربة ، وننثر أوراق اللعب فى الهواء ، وبلا انقطاع طوال التاريخ الإنسانى .

ولكننا رأينا كيف أن الجزيئات تتطور نحو أشكال أكثر تعقيداً كما أخذت تصطدم بعضها بالبعض الآخر بسرعة ألكترونية خلال زمن لا نهاية له .

وفى مثل هذه الظروف يمكن أن تتحقق الفرصة البعيدة جداً يوماً ما ، وأن يتكون جزىء البروتين » .

ـــ هكذا يزعم الكاتب ـــ

الرجل يقول أولاً :

« إن الخلق بطريق الصدفة مستحيل ولو كررنا التجربة طوال التاريخ الإنسانى » .

ويعود فيقول :

« ولكن مع تراخى الزمن ، وامتداد الليل والنهار وقع المستحيل وأمكن الخلق » .

ونفس الأمر وقع لدارون .

فقد قال :

« إن تفسير النشوء والارتقاء بتدخل الله هو بمثابة إدخال عنصر خارق للطبيعة فى وضع ميكانيكى بحت » (١٥) .

ونقل أيضاً عن دارون :

« يستحيل على العقل الرشيد أن تمر به ذرة من الشك فى أن هذا العالم الفسيح بما فيه من الآيات البالغة ، والأنفس الناطقة المفكرة ، قد صدر عن مصادفة عمياء ؛ لأن المصادفة لا تخلق نظاماً ، ولا تبدع حكماً ، وذلك عندى

---

(١٥) قد يكون هذا راجعاً للقصور السطحي التافه للخالق عند النصارى وأنه إنسان ولد كما ولد البشر ، أو أنه يتزوج من البشر وينجب ويصارع ويمكر .. الخ ما جاء في التوراة والإنجيل ، فقد يكون دارون معذوراً إذا نفى الخلق عن مثل هذا الإله .

أكبر دليل على وجود الله » (١٦) .

فإلى أى مدى يكون هذا الخيال أساساً لنظرية تقود العالم ؟

٥ – تلفيق :

جاء فى مقدمة كتاب النشوء والارتقاء (١٧) :

« وقد حاول « كلاتش » من سقف الجمجمة التى وجدت فى « بون » والفك الأسفل الذى وجد فى «كرابيتا » أن يتصور شكل الإنسان النياندرتالى .

جمجمة ركبت من ثلاثة أماكن ، ثم يُضاف لها الخيال لإكمالها فيصرح فى مؤتمر ١٩٠٩ التشريحى بأنه :

« إذا وجدت فيما بعد جمجمة نياندرتالية محتفظة بهيئتها جيداً ، فلابد أن تكون مماثلة لهذا الرسم » .

إننا احتراماً للعلم لا نشك في المعلومات العلمية لأي عالم كان ، ولكن من حقنا أن نشك في المعلومات المبينة على الحدس والتخمين ، والخيال ، وانتظار ما سيكون أيا كان هو » .

« ولنتأمل كلام البروفسور « هرمن كلاتش » يقول بنفسه :

« هذا وليس لدينا شيء من بقايا عظام تلك الحيوانات الفقرية البرية الأولى ، وإنما كل مالدينا منها هو آثار خلفتها في أثناء تحركها ، فانطبعت على الرمال الرخية ، فإذا فرضنا أننا سنعثر على هياكلها ، وهذا ما لا يخرج عن دائرة الممكنات ، فإننا لن نعرف منها شيئاً عن تاريخ ما قبل الإنسان » .

---

(١٦) ذكر النص الأول الأستاذ محمد قطب في كتابه . ذكر النص الثاني الأستاذ عبد الرزاق نوفل ص ١٢٤ « بين الدين والعلم » .

(١٧) قيس القرطاس . المصدر السابق .

« نعم قد يكون لنا عند ذاك أن نقول بجواز نشوء الأشكال العظمية الإنسانية من تلك الهياكل ، إلا أنه ليس من المنتظر أن نجد فى هذه الحفريات شيئاً خصيصاً بالإنسان » .

ويعقب الأستاذ قيس القرطاس على ما نقله عن البروفسور « هرمن كلاتش » بقوله :

وكلام البروفسور يحتوى على عدة نقاط مهمة :

الأولى : لا يوجد لدينا شيء من بقايا عظام الحيوانات الفقرية التى نشأ منها الإنسان .

الثانية : أنه فى حالة العثور على هياكلها ، فإننا لن نجد فيها شيئاً خصيصاً بالإنسان .

الثالثة : يصح عند العثور عليها أن نقول : إن الإنسان نشأ منها إلا أنها ليست بإنسان .

وإذا كان الأمر كذلك ، وهو أمر استنتاجى ، فإن موقف معارضى التطور أقوى بكثير فى هذه النقطة بالذات . ذلك لأن مؤيدى التطور يفترضون الحصول على شيء فى المستقبل ثم يفترضون أن الإنسان نشأ من هذا الشيء المندثر الذى يتوقعون الحصول عليه ، بينما موقف معارضى التطور يتمسكون بفكرة الخلق المستقل ؛ لأنهم لا يقتنعون بافتراض العثور على أشياء مندثرة ، وبناء استنتاجات عليها ، وهى لم تولد بعد » .

« ويقولون : إنه بالرغم من أن احتمال وجود الشيء لا زال بعيداً ، فإن ذلك لا يحل المشكلة ، فكل ما فى الأمر أنه يضيف نوعاً جديداً إلى السلسلة الحيوانية ، وتستقبل شجرة التصنيف حيواناً يضاف إلى ملايين الحيوانات الموجودة حالياً » .

٦ ــ الشك فى تحديد عصر الإنسان الأول :

وأورد تحت هذا العنوان عبارات علمية جريئة فى كتاب الجيولوجيا للصف

الرابع الثانوى : (١٨)

« وسنبقى فى شك من حيث تحديد العصر الذى بدأ فيه ظهور الإنسان على الأرض حتى تكشف آثار لا يحيط بها أى شك أو غموض » .

ويعبر الكتاب نفسه عن عدم وضوح الآثار لدرجة عدم قبولها برهاناً فيقول : (١٩)

« ولقد كان البحث يكشف لنا من وقت لآخر آثار الإنسان الأول ... فى مختلف الطبقات ، استنتج منها بعضهم أنه بدأ حياته على سطح الأرض فى غضون العصر الميوسينى ، على أن هذه الآثار لم تكن واضحة لدرجة يقبلها الجميع برهاناً على هذه النتيجة .

ذلك لأن العظام التى قيل إنها إنسانية لم تتوافر فيها كل الخواص لعظام الإنسان ، وقد تكون لنوع راق من القردة تشبه الإنسان فى بعض صفاته » .

وكلام مثل هذا فيه الكثير من الإنصاف ، والاعتدال فى عرض الآراء ، عكس ما سنراه فى غيره ...

وتوضح العبارات أن الآثار التى اعتمد عليها الكثير من العلماء القائلين بالتطور غير واضحة ، ولا تصح أن تكون برهاناً (٢٠) .

٧ ــ رأى العالم « فيركو » :

يذكر الأستاذ قيس القرطاس عن العالم الأنتروبولوجى « فيركو » فى كتابه « النوع الإنسانى » :

---

(١٨) ص ١٥٣ من الكتاب . طبعة أواخر الستينيات بالكويت .

(١٩) ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

(٢٠) يلاحظ القارئ في غير هذا المكان نقولات أخرى عن نفس الكتاب .

« يجب عليّ أن أعلن بأن جميع الترقيات الحسية التى حدثت فى دائرة علم الأنتروبولوجيا السابقة على التاريخ ، تجعل القرابة المزعومة بين الإنسان والقرد تبعد عن الاحتمال شيئاً فشيئاً .

فإذا درسنا الإنسان الحفرى فى العهد الرابع ، وهو الذى يجب أن يكون أقرب إلى أسلافه نجد إنساناً مشابهاً لنا كل الشبه ، فإن جماجم جميع الرجال الحفريين تثبت بطريقة لا تقبل المنازعة بأنهم كانوا يؤلفون مجتمعاً محترماً للغاية ، وكان حجم الرأس فيهم على درجة يعتبرها الكثير من معاصرينا أنفسهم سعداء إذا كان لهم رأس مثلهم ، فإذا قابلنا مجموع الرجال الحفريين الذين نعرفهم بما نراه فى أيامنا هذه استطعنا أن نؤكد بكل جرأة بأن الأشخاص ناقصى الخلقة بين الرجال العصريين أكثر منهم بين الرجال الحفريين [٢١] ولا أتجاسر (الكلام للعالم « فيوكو ») أن أفترض فى اكتشافاتنا الحفرية ـــ فلم نصادف غير أصحاب القرائح السامية [٢٢] من أهل العهد الرابع .

ومهما كان الأمر فيجب أن أقول : « أى فيركو » لم توجد قط جمجمة قرد تقرب من جمجمة « إنسان » والمتتبع لكلام هذا العالم يعرف عدة أمور :

١ ـــ أن الإنسان القديم كان بحالة أحسن مما نحن عليه الآن [٢٣] .

٢ ـــ أن بعض الاكتشافات العلمية ليس ببعيد أن تكون لغير الأصحاء .. من المرضى ، والمصابين بإشعاعات أو زلازل ، أو كوارث [٢٤] .

٣ ـــ كلما كان التقدم فى العلم فإن احتمال تطور الإنسان عن الحيوان يبعد شيئاً فشيئاً .

---

(٢١) يلاحظ ما تقدم في هذا المجال من مشاهدات باشميل .

(٢٢) عكس نظرية النشوء والارتقاء تماماً .

(٢٣) هذا الكلام يوافق ما قرره القرآن الكريم ، وما بينه الرسول ﷺ من أن آدم خلق وطوله ستون ذراعاً ، ولم يزل يتناقص الخلق حتى الآن .

(٢٤) يلاحظ ما يناقض هذا في كتاب الجيولوجيا للصف الرابع كما سنعرف .

٨ ـــ ماذا كان فى قارة مو المفقودة ؟

الكولونيل « جيمس شر شوارد » فى كتابيه « قارة مو المفقودة » و « أبناء مو » روى فيهما أخبار حضارات سابقة لعصور التاريخ ترجع بها قدماً إلى أكثر من عشرين ألف سنة قبل الميلاد ، ويعزز دعواه برموز وإشارات يفسرها بمعانيها اللغوية .

والجديد فى قصة هذه القارة :

أنها تصف لنا هذا الإنسان مخلوقاً مميزاً بين جميع المخلوقات وتربط بين خاصة التدين ، وهذه المزية التى تفرده بين أنواع الأحياء ، على خلاف المفهوم من مذهب النشوئيين الذين جعلوا الإنسان نوعاً من هذه الأنواع بغير مزية تفصله عنها سوى مزية الارتقاء » (٢٥) .

والأستاذ « شابمان بنشر » فى كتابه عن تحليل التطور عقب عليه قائلاً :

« إنه لا احتمال لتسلسل الإنسان من القردة كما نعرفها ؛ لأن القردة منفردة بتركيب خاص يستحيل تشريحياً أن يتطور منه تركيب إنسان ، إذا كان الإنسان قد نما له من خلال مليون سنة دماغ أكبر وقامة أقوم ، ويد ـــ فوق هذا وذاك ـــ أصلح للتناول والتصرف والاستعمال » (٢٦) .

ويذكر الأستاذ العقاد عقب هذين الفصلين هذا التعقيب :

« وإذا كان علماء النشوء قد استباحوا لأنفسهم أن يرجحوا وقوع تحول الأنواع وتقدم الإنسان جسداً وعقلاً منذ ألوف السنين ، ولكننا لا نعلم أن واحداً منهم أباح لنفسه أن يتنبأ بتطور واحد سيحصل فى المستقبل » .

---

(٢٥) ملخص ص ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ من كتاب الإنسان في القرآن للعقاد .

(٢٦) ص ٨٠ الإنسان ... للعقاد .

كتاب أصل الأنواع [٢٧] تضمن غلطة وبه نقص :

يقول الدكتور جراهام كانون عضو الجمعية الملكية بلندن : [٢٨]

« والواقع أن العنوان قد تضمن غلطة وبه نقص ، ولكن لم يفطن لهما وقتئذ أحد ، كما أن أسلوب الكتاب ثقيل غير شيق ، ولكن هذا بالطبع مسألة تختلف فيها الأذواق ...

فالكتاب متخم بالتخبط البالغ فى التفكير ، وكثير من الحشو الذى لا يمت إلى موضوعه بصلة ...

ويتابع جراهام قائلاً :

« الناس قد ضللوا وسيقوا إلى الاعتقاد بأنهم قد فهموا الموضوع كله . فالعنوان يشير إلى أصل الأنواع ، ولكن دارون لم يقصد الأصل أى النشوء ، وإنما قصد تأصل الأنواع ، وتوطد وجودها بعد نشوئها فعلاً من قبل ، ثم هناك ما هو أسوأ من ذلك ، وهو أنه لم يعرف النوع تعريفاً محدداً .. »

ويتابع الدكتور جراهام فى موطن آخر من كتابه قائلاً :[٢٩]

« سبق لى أن ناقشت قصور آراء دارون حين قال : « إن تلك الأفراد التى طالما فيها جزء أو بعض من أجزاء أجسامها أكثر مما هو معتاد فى نوعها هى ، تمكنت بصفة عامة من البقاء . فلنوازن الآن بين هذا القول ، وما هو

---

(٢٧) اسم الكتاب كاملاً : « أصل الأنواع بالانتخاب الطبيعى ، أو بقاء السلالات الصالحة فى معركة التنازع لأجل الحياة » طبع فى ٢٤ من نوفمبر ١٨٥٩ ونفدت نسخ الكتاب (١٢٥٠) فى يوم واحد . عن المصدر التالى ص ١٢٢ .

(٢٨) كتاب نظرات فى تطور الكائنات الحية ، تأليف الدكتور جراهام كانون عضو الجمعية الملكية بلندن . ترجمة الدكتور عبد الحافظ حلمى محمد . الأستاذ بكلية العلوم بجامعة عين شمس . مراجعة الدكتور كامل منصور الأستاذ بكلية العلوم . ملتزم الطبع والنشر مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٩ م ص ٣٠ تحت عنوان : الداروينية الجديدة .

(٢٩) ص ٢٠٩ ، ٢١٠ من المصدر السابق .

منسوب ـــ خطأ ـــ للامارك ، وسوف يتضح لنا ضيق فرصة الاختيار بين الرأيين فهما فى الحمق سواء ، وكان والاس هو أول من أساء التعبير عن آراء لامارك ، فهو قد عزى للامارك أنه قال :

إن الزرافة قد اكتسبت عنقها الطويل نتيجة لرغبتها فى أن تقتات بالأشجار العالية ، ومنذ ذلك اليوم إلى وقتنا هذا أصبح تطور عنق الزرافة موضع الزراية والسخرية .

أما ما قاله لامارك فعلاً فهو أن الحيوانات دأبت على أن تحاول جاهدة أن تبلغ الأوراق فى الفروع المرتفعة من الأشجار ، ومن المعقول أن نؤول هذا إلى أنه يعنى أن الحيوانات التى اكتسبت عادة الشبوب إلى أعلى على الدوام بالارتفاع بأجسامها على رجليها الأماميتين ، ونتيجة لذلك طالت هاتان الرجلان ، ولا يستطيع أحد أن ينكر أن مداومة إلقاء ضغط زائد على أطراف العظام الطوال للرجلين الأماميتين قد يحّرض تلك العظام إلى أن تطول . ولكننا إذا حاولنا تطبيق هذا الاستدلال المنطقى على العنق وجدنا أن جميع الثقات نقلوا عن لامارك :

أن الحيوان حاول جاهداً أن يطيل رقبته ، ومن ثم طالت ، ولكن الخطأ فى هذا هو أنه لا الزرافة ، ولا أى حيوان فقارى سواها يستطيع أن يحاول جاهداً أن يطيل رقبته ؛ فإن الحيوان يستطيع أن يشرئب أى يمد رقبته أما أن يطيلها فلا .

بل الواقع أن عملية مد الرقبة قد تعمل على الإقلال من جملة طولها إقلالاً طفيفاً نتيجة للضغط الواقع على العناصر المرنة الموجودة بين الفقار ، ولكنها لا تطيلها بحال من الأحوال ؛ فإن هذا مستحيل من الناحية التشريحية ، وليحاول أى قارئ أن يطيل رقبته بإرادته ، وسوف يتضح له أن محاولته لن تكلل بأدنى نجاح ، وسوف يدرك مدى سخافة هذه الفكرة ، واستحالة تحقيقها .

والسبب فى ذلك هو ـــ ببساطة ـــ عدم وجود الدولاب العصبى الذى يهيمن على عضلات لا وجود لها » .

ويعقب الدكتور جراهام بقوله : (٣٠)

(٣٠) ٢١٣ ، ٢١٤ من المصدر السابق .

« إن جميع الأدلة التى حللتها فى الفصول السابقة لتؤدى — فى نظرى — إلى وجهة واحدة لا تنثنى عنها .

فهى تنتهى إلى فكرة وجود قوة موجهة هادية مستقرة فى أعماق كل كائن حى فتتحكم فى تطوره وتوجهه ، لا عن طريق التغييرات العشوائية ، وإنما عن طريق تحولات مختارة . وعلى أية حال قد برزت فكرة تلك القوة الموجهة . ولتسمها كيف شئت » انتهى كلام الدكتور جراهام .

أدلّة مِن علم التشريح المقَارن

٩ ــ الإنسان الزنجى أو كاسر الجوز :

فى شهر يوليو ١٩٥٩ (أى بعد صدور كتاب أصل الأنواع لدارون بمائة سنة تماماً » وجد الدكتور « ليكى »[٣١] جمجمة فى القارة الإفريقية ، ووجد معها بقايا حيوانات يظن الدكتور أن صاحب الجمجمة كان يصطادها لطعامه ، ويستخدم فى صيدها أسلحة حجرية ، وجدت آثارها على مقربة منه ، وقد استقرت هذه الحفائر تحت مجرى « أولدفاى » « بتنجانيقا » وسمى هذا الإنسان باسم علمى معناه « الإنسان الزنجى » ولقبوه فى الدوائر العلمية بلقب « كاسر الجوز » لضخامة فكه وضروسه ، ويقدرون تاريخه بنحو ستمائة ألف سنة على حسب قياس الزمن بمقاييسه المتعددة ، ومنها حساب زمن التحجر ، وزمن تكوين الطبقة ، وزمن التطور فى تركيب العظام ، وزمن البقايا التى تختلف من عظام الفك والأسنان » .

« والمحقق كذلك أن الإنسان القديم الذى دلت عليه تلك البقايا كان يستخدم الآلات الحجرية ويستعين فى كفاح أعدائه من الحيوانات الضارية بنصيب من الذكاء لم يكن معهوداً فى حيوان منها ، فهو فى أقدم عهوده مميز بالعقل ، والنطق ، وهما صفتان إنسانيتان لا تنفصلان عن استخدام الآلة ، ولا عن الخاصة المميزة للحيوان الناطق من اعتدال القامة ، ومطاوعة اليد للإرادة

---

(٣١) مدير المتحف الوطنى فى كينيا وقد دامت أبحاثه ٢٨ عاماً ، وانتهت فى سنة ١٩٦٤ ، ويساعده ابنه ريتشارد . ص ١١ من مجلة الشهاب ٢٨ من شعبان ١٣٩٤ هـ ١٥ أيلول ١٩٧٤ م .

فى حالات المشى والوقوف ، ولولا ذلك لما استطاع الإنسان أن يستخدم السلاح وأن يصنعه لإصابة الحيوانات الضارية من بعيد » (٣٢) .

١٠ ـــ زيادة نمو الدماغ فى الإنسان :

قال الدكتور : بشارة زلزل فى كتابه « تنوير الأذهان فى علم حياة الحيوان والإنسان » :(٣٣)

« فإذا نظرنا إلى الإنسان على سبيل المقابلة للقرود التى هى لا شك أقرب الحيوانات إليه ، يرى أن الإنسان عاش منتصب القامة على قدميه ، لأن سلسلة ظهره مقوسة فى العنق ، وفى الظهر ، وفى الصلب ، وليس للقردة شيء من ذلك .

وعلة ذلك كما قال بعض المدققين زيادة نمو الدماغ لأنه يؤدى إلى كبر القحف ، فتتغير الجلسة بدليل عدم استوائها فى الأطفال ، وبناء عليه تكون موازنة الرأس للبدن سبباً لاستواء الجمجمة على العمود الفقرى ، وقالوا : إن الأقواس الثلاثة المذكورة تكون فى المتمدنين أوضح مما هى عليه فى المتوحشين .

وعلى الجملة فإن موازنة الرأس مع البدن فى أكثر الحيوانات اللبونة تناط بالأربطة العنقية ، وهى قوية جداً فيها ، وفى القردة بالعضلات المتينة التى تندغم فى (القذال ، والسناسن) (النتوءات الشوكية) وهى فيهما أطول وأغلظ مما فى الإنسان بضعفين ، ويتوقف عليهما وعلى الرأس حفظ الرأس على الوضع الأفقى ، فلا يضغط على الصدر لذلك .

وليس الأمر كذلك فى الإنسان ؛ لأن ثقل جمجمته يتكافأ مع ثقل البروز الوجهى ، فيستوى الرأس على الهامة دون أن يكون للعضلات والأربطة العنقية

---

(٣٢) الانسان في القرآن الكريم للاستاذ العقاد ص ٦٢ ، ٦٣ .

(٣٣) يذكر الاستاذ العقاد أنه قد صدر الاذن بطبعه ١٣ من رجب ١٢٩٧ وتم طبعه بمطبعة الجامعة في الاسكندرية ، ويبين المؤلف فيه بتفصيل الفروق بين الإنسان من القرد وهذه الفروق كما ذكر العقاد في كتابه ص ١٦٧ وقد نقلنا هذه المعلومات عن كتاب الانسان في القرآن الكريم للعقاد ص ١٣٩ .

إلا المحافظة على الموازنة المذكورة ، ومقاومة ميل الرأس إلى الأمام ، ولذلك كانت هذه الأربطة فى الإنسان ضعيفة » .

وقال الأستاذ بروقا وتابعه كثيرون : (٣٤)

« إن السبب فى انتصاب قامة الإنسان واستوائه ماشياً على قدميه إنما هو نمو الدماغ ؛ لأن هذه المشية تجعل اليدين مطلقتى الحركة ، والنظر متجهاً إلى الأفق ، وطفل الإنسان يشبه الدبابات ؛ لأنه عديم الأقواس الفقرية ، فلا يظهر القوس العنقى إلا متى ابتدأ الطفل أن يضبط رأسه فى الجلسة التى يعود عليها ، وذلك فى الشهر الثالث من عمره ، وفى السنة الثانية يتكون القوس الظهرى من جراء فعل العضلات الظهرية والصلبية للقطر السفلى للعمود الفقرى ، وذلك إذ يبتدئ الطفل أن يدرج .

وبالجملة فإن الخاصة التى يصدر عنها حسن تقويم الإنسان ، ويتوقف عليها امتيازه على سائر الحيوان وتتفاوت بحسبها مراتب الأمم فى المدينة ، وإنما هى نمو الدماغ ، وزيادة حجم الجمجمة » .

قال الدكتور بشارة : (٣٥)

وذلك بعد أن ذكر المقارنة الحسابية بين وزن دماغ الإنسان ووزن دماغ القرد ، وقد مر بنا هذا فى موضع آخر .

« وعلى قدر نمو الدماغ تزداد سعة القحف ، ويقل البروز الوجهى ، والفرق بين الإنسان ، والحيوانات من هذا القبيل أوضح من أن يبين .

فإذا نظرت إلى جمجمة إنسان من الأعلى لا ترى البروز الوجهى بخلاف ما إذا نظرت إلى جمجمة القردة وغيرها من الحيوانات ، وإذا نظرت إلى جمجمة القرد من جانب ترى الوجه شاخصاً إلى الأمام يؤلف خطاً مستطيلاً ، وذلك من

---

(٣٤) العقاد المصدر السابق .

(٣٥) المصدر السابق .

الخصائص البهيمية .

ويستدل على معرفة درجة هذا البروز بالزاوية الوجهية .

وفضلاً عن ذلك فإن الجزء الوجهى للعظم قليل النتوء فى الإنسان ، بخلاف ما هو عليه فى القرود ، وإذا نظرت إلى الجمجمة من الوراء لا ترى الثقب المؤخرى فى جمجمة الإنسان ، وتراه كله أو قسماً منه فى جمجمة القرود .

وهذه الأعراف الدالة على الشراسة ، والصفات البهيمية فى القرود غير موجودة فى الإنسان ، وهى لازمة فيها عن نمو العضلات المضغية التى يترتب عليها تحريك الفكين الضخمين ، عن نمو عضلات القذال التى يتوقف عليها إسناد الرأس على العنق .

ومعلوم أن قحف الحيوان الصغير لا يتسع لاندغام هذه العضلات فيه ، فحيث وجدت اضطرت النسيج العظمى فى إبان نموه أن يهيئ لها مندغماً فنشأ عرفاً .

والدليل على ذلك أن هذه الأعراف لا توجد فى القرود الصغيرة .

الرجل اليدوى ، والإنسان ١٤٧٠

اكتشف الدكتور ليكى أيضاً نموذجين من الجماجم ، وقيس عمرها بأجهزة الإشعاع الذرى فبلغ مليونين وستمائة ألف سنة وحجم مخها ضعف حجم مخ القرد مما يدل بما لا يقبل الشك على أن الإنسان الحديث أقرب انتماء لهذه السلالة منه للقرد . وسمى النموذج الأول : الرجل اليدوى ، والثانى : الإنسان رقم ١٤٧٠ حسب رقمه فى المتحف ، ويمتاز بمقدرته على المشى واقفاً وخلوه من الصفات الوحشية .

كذلك لا تزال اكتشافات القبائل المجهولة فى إستراليا وإفريقيا تثبت لنا وجود بشر يعيشون اليوم ليس لهم شكل جمجمة الإنسان الحالى ، ولا حجمها ،

ومع ذلك يمتازون بفرق هائل عن الحيوانات وبصفات طبيعية بسلوكهم وبدينهم وبتفكيرهم (٣٦) .

آراء سَريعَة معَارضَة

١١ ــ مذهب دارون خطأ علمى باطل فى الواقع :

« والأستاذ : إبراهيم حورانى عالم لغوى مطلع على المباحث العلمية . ألف فى الرد على مذهب دارون رسالة « مناهج الحكماء فى نفى النشوء والارتقاء » ثم أتبعها برسالة « الحق اليقين فى الرد على داروين » وطبعها فى بيروت ١٨٨٦ رداً على مناقشة الدكتور شلبى شميل (٣٧) .

قال الأستاذ حورانى هذا : (٣٨)

« إن العلماء لم يثبتوا مذهب دارون ، وكذلك نفوه وطعنوا فيه مع علمهم أنه بحث فيه عشرين سنة » .

١ ــ ومن العلماء أيضاً العلامة « ونشل » مع أنه من أشد الناس ميلاً إلى القول بالارتقاء بفعل الله .

٢ ــ ومنهم العلامة « ولاس » قال ما خلاصته : إن الارتقاء بالانتخاب الطبيعى لا يصدق على الإنسان ولابد من القول بخلقه رأساً .

٣ ــ ومنهم الأستاذ « فرخو » قال :

إنه يتبين لنا من الواقع أن بين الإنسان والقرد فرقاً بعيداً ، فلا يمكننا أن نحكم بأن الإنسان سلالة قرد أو غيره من البهائم ، ولا يحسن أن نتفوه بذلك .

---

(٣٦) الأستاذ عفيف الأسمر فى عدد الشهاب .

(٣٧) يعتبر من أنصار مذهب دارون ، وقد ألف في هذا بعض الكتب ، وهو لبناني الأصل توفي في القاهرة وقد كاد أن يسبق دارون وأصحابه في الأخذ بالنظرية .

(٣٨) الإنسان في القرآن الكريم للأستاذ العقاد ص ١٠٨ ، ١٠٩ .

٤ — ومنهم « ميفرت » قال بعد أن نظر فى حقائق كثير من الأحياء :

إن مذهب دارون لا يمكن تأييده ، وأنه رأى من آراء الصبيان .

٥ — ومنهم العلامة « فون بسكوف » قال بعد أن درس هو و « فرخو » تشريح المقابلة بين الإنسان والقرد :

إن الفروق بين البشر والقرود أصلى وبعيد جداً .

٧ — ومنهم العلامة « أغا سيز » قال فى رسالة فى أصل الإنسان تليت فى ندوة العلم الفكتورية ما خلاصته :

إن مذهب دارون خطأ علمى باطل فى الواقع ، وأسلوبه ليس من أساليب العلم بشيء ولا طائل تحته » .

٧ — ومنهم العلامة « هكسلي » وهو من اللاأدرية وصديق لدارون قال :

إنه بموجب ما لنا من البينات لم يتبرهن قط أن نوعاً من النبات أو الحيوان نشأ بالانتخاب الطبيعى أو الانتخاب الصناعى .

٨ — ومنهم العلامة « تندل » وهو كهكسلي قال :

« إنه لا ريب فى أن الذين يعتقدون بالارتقاء يجهلون أنه نتيجة مقدمات لم يسلم بها .

ومن المحقق عندي أنه لابد من تغيير مذهب دارون » (٣٩) .

رُدُود مَنطقيّة

تركزت الردود السابقة على شيء مهم، هو أن الإنسان متطور عن

---

(٣٩) ص ١٠٨ ، ١٠٩ الإنسان ... للعقاد .

الحيوان ، ووضحت أن الأمر بالعكس أى أن الإنسان خلق خلقاً مستقلاً ، والخلق المستقل إذاً ليس فكرة فقط بل حقيقة لا جدال فيها ، تكمل هذه الحقيقة بأن أول إنسان هو آدم أبو البشر ...

وقد نلتقى مع بعض القائلين بالتطور في :

أن هذا الخلق أو التطور على أساس الإيمان بالإله لهذا الكون فهو الخالق ، أو من أودع الكائنات القدرة على التطور على النحو الذى أبطلناه فيما سبق ...

ولكننا الآن نواجه النوع الثانى من القائلين بالتطور ... النوع القائل بأن الحياة تسير هكذا صدفة ...

فالحياة وجدت أول ما وجدت صدفة ، وتتطور إلى أعلى صدفة ..

والفترة الزمنية التى نواجههم فيها هى فترة بدء الحياة أو بدء الخلق ، والعقيدة التى تصحبها ...

١٢ ــ الصدفة لا تخلق نظاماً :

ولنبدأ بصاحب كتاب « العلم يدعو إلى الإيمان » « كريسى موريسون » .

بدأ « كريسى موريسون » فصله الأول تحت عنوان « عالمنا الفذ » بمناقشة منطقية لنفى الصدفة فى الخلق ، وضرب لذلك مثلاً فقال : (٤٠)

« خذ عشرة بنسات ، كلا منها على حدة ، وضع عليها أرقاماً مسلسلة من ١ إلى ١٠ ثم ضعها فى جيبك وهزها هزاً عنيفاً شديداً ، ثم حاول أن تسحبها حسب ترتيبها من ١ إلى ١٠ .

إن فرصة سحب البنس رقم ١ هى بنسبة ١ إلى ١٠ وفرصة سحب رقم ١ ، ورقم ٢ متتابعين هى بنسبة ١ إلى ١٠٠ ، وفرصة سحب البنسات التى عليها أرقام ١ ، ٢ ، ٣ متتالية هى بنسبة ١ إلى ١٠٠٠ وفرصة سحب ١ ، ٢ ،

---

(٤٠) الكتاب المذكور ص ١٥ .

٣ ، ٤ متوالية هي بنسبة ١ إلى ١٠,٠٠٠ وهكذا ، حتى تصبح فرصة سحب البنسات بترتيبها الأول من ١ إلى ١٠ هي بنسبة ١ إلى ١٠ بلايين .

والغرض من هذا المثل البسيط هو أن نبين لك كيف تتكاثر الأعداد بشكل هائل ضد المصادفة ، ولابد للحياة فوق أرضنا هذه من شروط جوهرية عديدة بحيث يصبح من المحال أن تتوافر كلها بالروابط بمجرد المصادفة على أى أرض في أي وقت . » اهـ

ونرى للدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان مثلاً يشبه المثل السابق ، ولكن المثل الجديد يوصف بالطرافة والملاحة .

قال الدكتور : (٤١)

« إذا كان لدينا صندوق كبير مليء بالآف عديدة من الأحرف الأبجدية فإن احتمال وقوع حرف الألف بجوار حرف الميم لتكوين كلمة « أم » قد يكون كبيراً.

أما احتمال تنظيم هذه الحروف لكي تكون قصيدة مطولة من الشعر ، أو خطاباً من ابن إلى أبيه ، فإنه يكون ضئيلاً إن لم يكن مستحيلاً » اهـ

١٣ ـــ كيف يكون مادياً ولا يثبت بداية أصله المادي ؟

القائلون بالتطور فرقتان كما عرفنا .

فرقة تعمم تطبيقه على الكون كله بما اشتمل عليه من مادة وحياة ، وأخرى تقصره على عالم الكائنات العضوية .

فمن أي شيء تطور الكون كله إذن على الرأي الأول ؟

ومن الذى أودع الكائنات هذه القوة لتتطور لو سلمنا جدلاً بالتطور

---

(٤١) هذا ما حاول مثله ، عالم الطبيعة البيولوجوية ، فرانك ألن في كتاب« الله يتجلى في عصر العلم » ترجمة الدكتور سرحان .
ركائز الايمان للأستاذ الغزالي ص ٥٧ ، ٥٨ .

المعهود ؟ [٤٢]

أما دارون نفسه فيهرب ويقول :

« إنه شيئ ميكانيكى »

والشيءالميكانيكى لموجود أصلاً من حيث المادة كما هو معروف عندهم ، وكما كانوا يدعون [٤٣] .

فكيف يكون الشيء الميكانيكى خالقاً لمادة من عدم ؟

وتنوع القائلون نوعين من جانب آخر :

نوعاً مؤمناً يفسر الأصول بأنها من صنع الخالق الحكيم . ونوعاً مادياً يقول : هكذا كان .

و « هكذا » تشبه كلمة الطفل حينما يجيب ، والجاهل حينما لا يعى علة للأشياء .

فكيف يكون مادياً ولا يثبت بداية أصله المادي ؟

١٤ ــ كيف يكون الخالق أحط من المخلوق ؟

هذا السؤال يناقش من يدعي أن الطبيعة بنفسها دون قوة أخرى هي التي ولدت الحياة ، أو أخرجت الحياة ، ووهبتها للكون كما مر بنا عن بعضهم بادعاء التولد الذاتي .

طبيعة جامدة بكماء لا تعي ولا تفقه ، تستطيع أن توجد وتبدع الحركة الواعية المدركة من الانسان والحيوان والنبات . ويأتي الانسان ليسخر هذه

---

(٤٢) أرجو أن يعرف القارئ أن التطور المعهود هو تطور الأنواع من بعضها كتطور الإنسان من الحيوان ، والحيوان من النبات مثلاً .

(٤٣) يلاحظ في مكان لاحق مناقشة قاعدة « المادة لا تفنى ولا تستحدث » .

الطبيعة ، أو على زعمهم ليسخر خالقه .

وكيف يكون هذا ؟

عندما يغيب عقل الانسان وإدراكه ، وعندما يزيف له الحقائق ، فيعتمد على أساس فاسد لا أصل له ، ويقع في شراك محبوكة لا يستطيع الفكاك منها .

أما السؤال فى العنوان يجيب عنه « لامارك » مصطنعاً الهدوء دون أساس يعتمد عليه بقوله :

« إن المادة الخرساء الجامدة الميتة قد صنعت كل كائن حي ، وأشرفت على تطويره وترقيته ، ومن ذلك الإنسان العاقل المدرك المفكر » (٤٤) .

هكذا يجيب « لامارك » دون مقدمات معتمدة ، وعلى الرغم من مخالفة تلميذه « دارون » لهذا الاعتقاد

١٥ — كيف صنعت الطبيعة الحياة ؟

ولنفترض جدلاً بأن الطبيعة قد صنعت الحياة كما قال « لامارك » الفرنسي أستاذ « دارون » .

فكيف إذن صنعت الطبيعة هذه الحياة ؟

ولنستمع إلى إجابتهم أولاً . إنهم يجيبون بقولهم :

« إن المادة التي نسب إليها القدرة على الخلق والإبداع مسيّرة لا مخيّرة ، ومحكومة لا حاكمة »

فمن الحاكم إذن ؟

لابد أن يقولوا : إن هناك قوة أكبر من قوة الطبيعة سخرتها ، وسيرتها .

ولمن هذه القوة ؟

ولابد أن نصل إلى هذه النتيجة .

---

(٤٤) ص ٢٩ من كتاب الاسلام ونظرية دارون .

« إنها لخالق هذه المادة ، وهذه الطبيعة ، وبالتالى خالق الإنسان والحيوان والنبات .

وهذا الخالق الذي اعترفتم به مجبرين هو المبدع لهذا الكون ، وهو المرسل للرسل ، وهو المنزل للكتب ، وهو الذي عرفنا أن اتباع غير الشخص لابد أن يكون عن دليل فالإسلام علم أتباعه أن الأمور لا تساق هكذا دون برهنة علمية أو فعلية أو عقلية ، والإسلام قد علمهم أيضاً أن يعيشوا فى رحاب هذا الكون وينظروا ويتأملوا فيستفيدوا أمرين :

١ ـــ كشف أسرار الكون وقوانينه ، فتستغل فى إسعاد البشرية ، وتسخر لخدمة الإنسان .

٢ ـــ أن هذا الكون البديع المنظم المحكم إنما كان عن مبدع حكيم خالق قادر .

ويترتب على هذين الإيمان الكامل بأن مبدع هذا الكون ، وخالق الإنسان ، هو الذى يعلم علماً يقينياً أن خير هذا الإنسان فى اتباع الدين القويم الإسلام ، وأن التشريع الذي قد شرعه لخلقه هو التشريع الأقوم ،

﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾

١٦ ـــ العلم البشرى لا يعلم نهايات الأشياء :

العلم فى تغير دائم .

هذه حقيقة ، بمعنى أن العلم لا يصل إلى نهايات الأشياء ، ولو وصل إلى هذه النهايات لجمد ، ولتوقفت حركة الإنسان .

فنظرية الأمس ، تعدل اليوم ، ثم تنقض غداً .

والتعديل أو النقض بناء عما اكتشف من قوانين جديدة أو أسرار كونية جديدة .

ولا أريد أن أضرب لذلك نظريات متداعية ، ولكنى سأضرب مثلاً أقوى

« قانوناً من قوانين الطبيعة » هذا القانون هو :

« المادة لا تفنى ولا تستحدث »

درس هذا القانون عشرات السنين إن لم يكن أكثر في المختبرات العلمية ... وبالطبع لا يمكن لإنسان أن يعارضه أو يناقشه ، حتى ولو اعتمد على أدلة دينية ..

وانقضت حقبة طويلة من الزمن بدأ الإنسان الحديث بعدها بارتياده الفضاء (بمجهوده العلمي) وظهر له في أبحاثه الجديدة شيء جديد .

فما هذا الجديد ؟

الجديد هو تحول المادة إلى غير المادة .

تحولت المادة إلى طاقة ، وتحولت الطاقة إلى مادة وقرأت بحثاً للدكتور أحمد زكي فى مجلة العربي يعلن فيه أن القاعدة الجديدة هي :

« مجموع الطاقة والمادة لا يفنى ولا يستحدث »
والأمثلة كثيرة وخطيرة ...

كان « الاعتقاد السائد أنه لا توجد قوة على ظهر الأرض تستطيع أن تشطر الذرة ، بل مشاهير الفيزيائيين العالميين بما فيهم « إنشتين » و « بلانك » و « رزرفورد » و « بور » كانوا يعتقدون بعدم إمكان تفتيت الذرة » (٤٥)

وجاء بعد ذلك « إيرنكو فرمى » الذي اكتشف خطأ هذا الاعتقاد ، واهتدى إلى تفتيت ذرة « اليورانيوم » (٤٦)

أما لماذا يشتهر إنشتين أكثر من فرمي فهذا غريب .

ولماذا لم يشتهر أيضاً أمثال العالم المصرى علي مصطفى مشرفة الذي

---

(٤٥) المهندس قيس القرطاس مجلة الشهاب عدد ١٥ أيلول ٧٠ نقلاً عن كتاب على أطلال المذهب المادي لفريد وجدي .

(٤٦) نفس المصدر السابق .

اكتشف خطأ وقع فيه إنشتين مما جعل الأخير يختاره مساعداً له ، فأمر أشد غرابة .

البحث العلمي أمانة ، على المرء أن يقول : توصلت إلى كذا ويأتي دور غيري ليضيف جديداً ...

أما أن أدعي أني وصلت إلى الحقيقة التي لا جدال فيها كما سنرى في فصل لاحق فأمر لا يمت إلى الحقيقة بشيء .

ومن الخير للبشرية أن تعتقد بأنها لم تصل إلى نهايات الأشياء حتى تستمر في البحث وتكشف عن المجهول ، وتعلم ما لم تكن تعلم ولأن في ذلك بعثاً على الحركة وعدم الجمود على قاعدة .

١٧ ــ مواقف مخزية لبعض علماء التطور تظهر كذبهم :

أضعك أيها القارئ العزيز أمام نقولات موجزة وسريعة لبعض علماء التطور ، وعلى رأسهم « دارون » أستاذهم الأكبر ، وقد مرت بنا إشارات إلى هذا .

١ ــ دارون

نقل عن دارون قوله :

« إن تفسير النشوء والارتقاء بتدخل الله هو بمثابة إدخال عنصر خارق للطبيعة فى وضع مَيكانيكي بحت » (٤٧) .

وتشبه هذه العبارة عبارة « لامارك » السابقة وقد نوقشت فى حينها .

ونقل عن دارون أيضاً :

« يستحيل على العقل الرشيد أن تمر به ذرة من الشك في أن هذا العالم

---

(٤٧) التطور والثبات لمحمد قطب .

الفسيح بما فيه من الآيات البالغة ، والأنفس الناطقة المفكرة ، قد صدر عن مصادفة عمياء ، لأن المصادفة لا تخلق نظاماً ، ولاتبدع حكماً ، وذلك عندي أكبر دليل على وجود الله » (٤٨) .

وكتب إليه طالب ألماني في سنة ١٨٧٩ يسأله عن عقيدته الدينية ، وعن العقيدة التي يدعو إليها الأخذ بمذهب التطور ، فكلف أحد ذويه أن يجيبه ويجيب غيره ممن يوجهون إليه هذه الأسئلة قائلاً :

« إن مستر داروِن يعتذر لكثرة الرسائل التي ترد إليه ولا يتيسر له الرد عليها جميعاً ، ويود أن يقول : إن مذهب التطور يوافق كل الموافقة إيمان المؤمن بالله ، غير أننا يجب أن نذكر أن الناس يختلفون كثيراً فى تعريفهم لما يعنونه بالإله » (٤٩) .

فإنكار الخالق كما يُفهم من العبارة الأولى المماثلة لعبارة « لامارك » يتغير إلى إيمان بالخالق فى العبارتين الأخيرتين وما ذكره من اختلاف الناس فى تعريفهم للإله مرجعه تعريف اليهود والنصارى للإله كما سبق ...

٢ ـــ جوليان هكسلي :

جوليان هكسلي فى كتابه « الإنسان في العالم الحديث » وهو من علماء الدارونية الحديثة يقول :

« وبعد نظرية داروِن لم يعد الإنسان تجنب نفسه حيواناً » (٥٠)

وقد ألف كتاباً آخر أسماه :

« الإنسان يقوم وحده » أي هكذا دون خالق (٥١) .

---

(٤٨) بين الدين والعلم لنوفل ص ١٢٤ .

(٤٩) ص ١٢٤ من كتاب الانسان في القرآن الكريم للاستاذ العقاد .

(٥٠) ترجمة حسن خطاب ومراجعة عبد الحليم منتصر نقلاً عن التطور والثبات .

(٥١) عن مقدمة للدكتور أحمد زكي لكتاب العلم يدعو إلى الايمان لكريسي موريسون .

وانبرى له عالم آخر فألف كتاباً أسماه :

« الإنسان لا يقوم وحده » أراد بذلك أن يقول : إنه يقوم في هذه الدنيا ومعه الله .

وقد قال موريسون :

« إن المتفق عليه عموماً هو أنه لا البيئة وحدها ، ولا المادة ، مهما كانت موائمة للحياة ، ولا أي اتفاق في الظروف الكيموية والطبيعية قد تخلقه المصادفة ، يمكنها أن تأتي بالحياة إلى الوجود » (٥٢) .

٣ ــ هيكل :

يقول هيكل وهو أحد علماء التطور :

« إنه لو أعطي ماءً ، ومواد كيموية ، ووقتاً كافياً لاستطاع أن يخلق إنساناً » (٥٣) .

ولو سلم جدلاً لهيكل ، بل حتى لو استطاع أن يخلق إنساناً ، فذلك دليل على أن هذا الإنسان الجديد خلق من تدبير وتنظيم ولم يُخلق صدفة ، عكس ما يريد هيكل تماماً .

﴿ إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ﴾ (٥٤) .

٤ ــ توماس هكسلي :

توماس هذا جد جوليان هكسلي ، وقد كان معاصراً لدارون .

---

(٥٢) العلم يدعو إلى الايمان لكريسى موريسون ص ٩٧ ترجمة الفلكي .

(٥٣) مقدمة الكتاب السابق للدكتور أحمد زكي ص ٤٥ .

(٥٤) سورة الحج ، الآية رقم ٧٣ .

أثار توماس أكبر ضجة ومهاترة ، وحمل لواء الحرب بين العلم والدين لفترة طويلة .

وهو الذي سبق دارون بالقول بنظرية التطور وتطبيقها على الإنسان ... ظل مدة طويلة يدرس كيف بدأت الحياة ؟

فقد كان من الشائع الاعتقاد بالتولد الذاتي ، حيث يُشاهد الناس الحشرات تظهر فى اللحم الميت ، وكذلك تتولد داخل الأوانى المغلقة ، فلما أثبت الطبيب الإيطالي « فرانشسكوردي » أن الحشرات لا تظهر مطلقاً فى اللحم إذا غطى بقماش رقيق ، استمر دليل التولد الذاتى قائماً على مشاهدة وجود الديدان المعوية في الإنسان ، حتى ظهر « تندول » و « باستور » وقُضي على هذه الخرافة قضاء تاماً ، إذ عرف أن هذه الديدان إنما تنشأ عن بويضات يتناولها الإنسان على هيئة ميكروب أو جراثيم في طعامه أو شرابه ، وتقدمت الأبحاث إلى أن عرف أن البروتوبلازم هي مادة الحياة الأساسية ، وأمكن معرفة مكوناتها ، ولما اكتشف بعضهم وجود مادة هلامية في قاع البحار اعتقد هكسلي أنها حلقة الانتقال من الجماد إلى المادة الغروية المعروفة باسم البروتوبلازم ، ونادى بنظريته بخلق الحي من الجماد ، ولما اتضح أن هذه المادة إنما هى طين به رواسب مواد عضوية ، اعترف بذلك في دعابة لطيفة في أثناء مؤتمر علمي بشفليد في عام ١٨٧٩ وأعلن أسفه لأنه كان السبب فى تضليل كثيرين اعتمدوا على شهرته ، واستشهدوا به في تأييد التولد الذاتي » (٥٥) .

٥ ـــ برتراند راسل :

الفيلسوف الانجليزي « برتراند راسل » يقول في صفاقة نادرة :

« ليس وراء نشأة الإنسان غاية أو تدبير ، إن نشأته وحياته وآماله ومخاوفه وعواطفه ، وعقائده ليست إلا نتيجة لاجتماع ذرات جسمه عن طريق المصادفة » (٥٦) .

---

(٥٥) بين الدين والعلم لعبد الرزاق نوفل ص ١٢٦ .

(٥٦) ركائز الايمان للاستاذ محمد الغزالي ص ٦٠ .

وبذلك ضم رسل نفسه إلى جوليان ، وهيكل ولامارك فى هذه المزاعم دون أي دليل أو برهان علمي .

وقد أبطل هذا الزعم علماء النشوء أنفسهم كما سبق .

٦ ــ أوبارين :

أوبارين هذا عالم سوفياتي طبيعى كبير ، يردد اليوم نفس المزاعم التي كان يرددها فلاسفة الإلحاد أمثال : ــ هيكل ، ولامارك ــ فهو يزعم :

« أن المادة بطبعها دائمة التحرك والتحول ، والتدرج ، وأنه بإمكان الإنسان صنع كائن حي عن طريق مزج عناصر مخصوصة ، تتفاعل بذاتها تفاعلاً كيماوياً ، وبيولوجياً كما حدث بزعمه عند ظهور الحياة الأولى منذ ملايين السنين ولكن العالم الشيوعي قد ارتج عليه عندما سأله البعض :

هل هذا التفاعل الكيماوي في المادة قادر الآن على إيجاد الحياة بالطريقة التي زعم انبثاق الحياة الأولى بها ؟ فقد تلعثم ، ولعلمه بأن هذا القول خرافة في خرافة ، ومن المستحيل على أي انسان تحقيقه فقد قال :

إن هذا لا يزال ممكناً .

وحتى لا يطالب بالتدليل عملياً على صحة زعمه قال :

ولكن هذا ممكن في كواكب أخرى غير كوكبنا يعني الأرض .

وهكذا يتملص الملحدون عندما يدعون إلى البرهنة على صحة مزاعمهم الإلحادية عملياً (٥٧) . ويظل السؤال قائماً دون إجابة من أوبارين .

٧ ــ ليسنكو الروسى :

ليسنكو هذا عنوان مهزلة كبرى فى عالم الوراثة والنبات والسياسة ،

---

(٥٧) الاسلام ونظرية دارون لباشميل ص ٢٩ الهامش .

وخطورة المهزلة نشأت من تبنى تجربة فريدة على نوع واحد من النبات لم يكشف عن الظروف التي أحاطت بهذه التجربة إلا أخيراً ...

فماذا كان عن ليسنكو هذا ؟

تحت عنوان « تطويع العلم للسياسة » ذكرت مجلة العربى (٥٨) فى باب أنباء الطب والعلم والاختراع ما يلي :

ظهر كتاب اسمه « ارتفاع ليسنكو وسقوطه » وهو تأليف عالم روسى اسمه « زورروس مدفيدس » يعمل في روسيا ، أما ليسنكو فهو العالم الروسي الذي اشتهر بأنه بسبب تجربة وحيدة قام بها على نبات واحد ، خرج بنظرية تناسلية قصد بها خدمة المذاهب السياسية ، التي كانت جارية عند ذلك ، وذلك في عام ١٩٣٥ ، وعلى الأخص المذهب الذي اعتنقه ستالين مذهباً سياسياً لا دخل له بالعلم .

ونال ليسنكو بذلك حظوة كبيرة عند الساسة .

وملخص نظرية ليسنكو الجديدة هي أن الإنسان يستطيع بواسطة البيئة إكساب النبات صفات وراثية في أنساله لم تكن في الآباء ، وأن يغير بنفس الوسيلة صفات وراثية سابقة في الإنسان .

وكان هذا بالطبع مناقضاً لحقائق علم الوراثة المعروفة ، وقام العلماء في أقصى الأرض يعارضونها أما السياسة فشاءت أن تنتفع بأن ما يجري على النبات يجري على الإنسان ، وأنه بتغيير البيئة الإنسانية سياسياً واجتماعياً يمكن تغيير بعض الصفات من جيل إلى جيل .

وكان سقوط « ليسنكو » في بلده روسيا في عام ١٩٦٢ (أي بعد ٢٧ سنة من التجربة) وكان هذا (أي سقوطه) بسببه فشل مشروعاته الزراعية والاقتصادية التي بناها على نظرياته الوراثية » ا هـ كلام المجلة .

تجربة ناقصة وواحدة على النبات ، وتطبق على الإنسان بأوسع نطاق ، وفي

---

(٥٨) العدد ١٣٤ شوال ١٣٨٩ يناير ١٩٧٠ ص ١٤٠ .

كل النواحي ، ولا يجرؤ فرد على المعارضة حتى تمر هذه الفترة ٢٧ عاماً أي بعد موت مشجع النظرية ستالين بعشر سنوات .

كلام يُساق للعظة والاعتبار . (٥٩)

كيفَ تُدرَّس نظريَّة دَارْوِنْ في بلَادنا ؟

تمهيـد

إن التجاوب العلمي شيء ضروري في حياتنا ، والحديثة بالذات ، والأمة الناهضة هي التي تسعى إلى تعليم أبنائها جانبين :

١ ــ جانب العقيدة .

٢ ــ وجانب البحث والاستكشاف لكل ما يمكن أن تصل إليه أيدينا أو أفكارنا .

وكلا الجانبين مرتبط بالآخر نوعاً ما .

وما انفصل الجانبان عن بعضهما إلا من وَهْم أو جهل ، والحقيقة : أن من يتأمل كوناً منظماً بديعاً ، ويكشف القوانين والأسرار لهذا الكون فتستغل لصالح الإنسان ، يستشعر عظمة الخالق المبدع فيعبده وحده لا شريك له ، ويلتمس منه الهداية الرشاد .

وما كان الانفصال بين الجانبين إلا نتيجة خطأ تربوي كبير . هذا الخطأ هو : أن من يدرس الدين مثلاً لا صلة له بالعلوم التطبيقية غالباً . ومن يدرس هذه العلوم لا صلة له بالعلوم الدينية غالباً إلا النادر من الجانبين ...

---

(٥٩) يمكنك أن ترجع أيضاً فى ذلك إلى عدد الشهاب اللبنانية ١٤ من رمضان ١٣٩٤ هـ ١ من تشرين الأول ١٩٧٤ م تحت عنوان : دارون .. عندما أجهز عليه العلماء ص ١٠ للأستاذ عفيف الأسمر .

والأمر الواجب على كل فرد في الأمة الناهضة أن يتلقى عن فهم وإدراك مقداراً كافياً عن الإسلام ثم يكون التخصص بعد ذلك بما يتناسب وحاجات هذه الأمة ، فلا يجد أي فرد بعد ذلك صعوبة في تجاوب العلم مع الدين أبداً .

والقارئ لما تقدم من فصول عن « نظرية دارون » لابد أن يخرج بأحد أمرين :

١ ـ إما أن يعتقد أن « نظرية دارون » في النشوء والارتقاء وأن الإنسان متطور عن الحيوان ، كذب وباطل .

٢ ـ وإما أن يعتقد أن « نظرية دارون » ليست محل اتفاق بين المختصين من العلماء ، وأنها لم تصل (ولن تصل) إلى درجة الحقيقة العلمية الثابتة عن العلماء باتفاق .

يعتقد المرء الاعتقاد الأول وهو مستريح النفس لأنه قد علم الحقيقة المخالفة لها من دينه . وأن ما عداه كذب .

ويعتقد غير المسلم الاعتقاد الثاني على الأقل ، لأنه يزن الأمور بميزان العلم فقط ...

ولم نتجاهل هذا الصنف الثاني ، بل قد وضعت هذه المذكرة بياناً وإيضاحاً من جهة العلم الذي يؤمن به .

٩٠

فى الملتقى الدولى حول الثقافة

اقتراح غريب فى تربية الجيل :

عُقد فى صفر ١٣٩٤ هـ آذار ١٩٧٤ م (٦٠) مؤتمر للمدرسين والمربين لمناسبة « الملتقى الدولى حول الثقافة الذاتية والوعى القومى » وقد ألقى أحد القادة خطاباً في هذه المناسبة بوصفه رئيساً للمؤتمر ، لانعقاده فى بلده . ومما ورد فى

---

(٦٠) عدد الشهاب اللبنانية ٢٣ من ربيع الأول ١٣٩٤ هـ . ١٥ نيسان ١٩٧٤ م ص ٤

خطابه حسب ما نشرته جريدة الصباح ٣١ / ٣ / ١٩٧٤ ص ٣ العبارات التالية عن المسئولية الفردية ، ومعجزة موسى ، وأهل الكهف :

« وهكذا نرى أن الله منح الإنسان حق الاختيار ، ووفى له إمكانية ذلك ، فالله مطلع على ما جرى وسيجرى ، ولكن الإنسان سيد مصيره يصنعه بنفسه [٦١] ، فهو مسئول عنه ، ومصداق ذلك قوله تعالى :

﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره** ﴾ [٦٢] .

وهناك أمور أخرى مثل قصة عصا موسى ، التى ألقى بها فإذا هى حية تسعى ، وقد كان الإيمان بأن الحياة يمكن أن تخرج من الجماد سائداً فى أوربا أيضاً ، ولكنه انقرض تماماً منذ عهد باستور [٦٣] ، ومن هذه الأساطير التى ظلت موضع إيمان الناس فى البلاد العربية دهراً قصة أصحاب الكهف الذين لبثوا رقوداً مئات السنين ثم انبعثت منهم الحياة »

وينتقل إلى موضوع الشرك الذى زعم أن الرسول أقره (حاشاه) فيقول :

« وحتى يوحد الرسول كلمة العرب ، ولا ينفرهم من دعوته اضطر إلى قبول كثير من طقوسهم التى لا تختلف فى الحقيقة كثيراً عن عبادة الأصنام ، مثل التمسح بالحجر الأسود ، ورجم الشيطان ، ولم يشأ الرسول الذى كان عارفاً بسياسة الناس أن يصدهم دفعة واحدة ، وهم الذين اعتادوا تقديس الحجارة فحطم الأصنام فى الكعبة ، وأبقى على الحجر الأسود الذى ظل الناس بعده يقبلونه [٦٤] ... وقد قال لينين فى هذا المعنى إن الإنسان لن يقدر على تغيير أمر

---

(٦١) ينفى بذلك وجود الخالق سبحانه كما تقول العبارة .

(٦٢) سورة الزلزلة ، الآية رقم ٧ .

(٦٣) ناقض عبارته الأولى لمجرد الطعن دون وعى منه ، شأن المتخبطين فكرياً .

(٦٤) ونسى ما أخرجه البخارى وغيره عن عمر بن الخطاب معتقداً عدم إسناد النفع والضر للحجر ولم يعترض عليه أحد من الصحابة ، فدل على موافقتهم وإجماعهم على ذلك .

يسير إلا إذا تحمل أموراً كثيرة تأباها نفسه » (٦٥) .

ثم انتقل إلى السيرة النبوية فقال :

« وفى سيرة الرسول وقائع لا يذكرها كثير من المشايخ . منها – وقد رويت هذه الواقعة فى خطبى – :

إنه لما كان قاصداً مكة لفتحها أدركهم شهر رمضان فقال للمسلمين ، أفطروا كى نصل مكة أقوياء قادرين على الغلبة .. وأدنى من إناء الماء وشرب منه ، وبذلك قدم مصلحة الدولة على العبادات »

« وأثناء غزوة بدر نزل المسلمون بمكان غير مناسب فسألوا الرسول :

هل هذا وحى من الله يا رسول الله أم هو مجرد رأى ؟

فقال : لا ، إنه مجرد رأى .

فقالوا له : إن المكان خطير ، والأفضل أن نكون على مقربة من الماء .

فأجابهم بقوله : أنتم أعلم بأمور دنياكم » (٦٦)

ثم شرح نظرية التدرج والمرحلية فقال :

« ومن هنا يتضح مفهوم التدرج فى إدخال الأفكار والمعلومات الجديدة على عقول بعض الناس إلا بأفكار ومعلومات أكل عليها الدهر وشرب ، وكثير منها أثبت الواقع خطأه . ولو قيل لمعاصرى الرسول : إن البحر سيقل ذات يوم بواخر تزن أطناناً من الحديد (٦٧) ، أو أن طائرات ثقيلة الوزن أيضاً ، وتحمل الناس داخلها ستحلق فى الفضاء ما كانوا ليصدقوا بث حبال المواصلات فى البحر

---

(٦٥) وأصبح لينين حجة ولا يكذب بينما يسند غير ذلك إلى من يُوحى إليه من السماء .

(٦٦) لا يفهم أن هذه العبارة وردت فى موقف آخر ، فهذا أمر يجهله أمثاله .

(٦٧) ونسى قوله تعالى : ﴿ **ويخلق ما لا تعلمون** ﴾ وقوله : ﴿ **وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام** ﴾ والجوارى هى السفن ، الأعلام هى الجبال .

أو كروية الأرض ، ودورانها بعد أن كان الناس قبله ، وبعده يظنونها منبسطة » .

وقد أورد في خطابه نظريات سياسية وسرداً تاريخياً كان يسوق إليه الشواهد الإسلامية مما يدل على أن شعب دولته ما زال على إيمانه ، وأن المحاولة هى استعياب هذا الإيمان وهز أركانه من الجذور عن طريق الاستشهاد بكتاب الله سبحانه وسنة رسوله ـــ ﷺ ـــ على أحداث لم تكن ، وتحميلها ما لا تحتمل ، وهو وإن استشهد بكتاب الله ليس إلا تدرجاً كما قرر ، وكما قرر أستاذه وإلهه لينين الماركسى ...

وترى أيها القارئ الكريم ماذا يُراد للمدرسين في بقعة ما من الوطن الإسلامى والعربى ؟ .

كتاب الأحياء :

تحت عنوان « الخلاصة » ذكر الكتاب : (٦٨)

« سواء أكان التطور قد تم بواسطة الطفرة كما يرى « دي فري » أم بالانتخاب الطبيعى كما يرى « دارون » أم بالاكتساب من البيئة كما يقول « لامارك » فالحقيقة التي لا جدال فيها هي أن الأحياء تتغير وتتطور وتتنوع تحت تأثير قوى مختلفة ، وعوامل متشابكة ، والأدلة كثيرة واضحة على أن أحياء اليوم غير أحياء الأمس ، وأن إنسان اليوم يختلف كثيراً عن إنسان الأمس ، وقد عثر العلماء على بقايا هياكل وجماجم يرجح أنها لسلالات بشرية بائدة ، تتدرج في صفاتها من سلالات قريبة الشبه بالقردة العليا ، إلى سلالات قريبة الشبه بالإنسان الحديث ، ولايصح أن يُفهم من هذا ما يقترن دائماً بالتطور من معانٍ تتضمن أن الإنسان كان قرداً .

---

(٦٨) ص ٥٥٨ من كتاب الأحياء لطلاب السنة الرابعة الثانوية لمجموعة من المؤلفين . طبعة أواخر الستينيات بالكويت ، والعجيب أن هذه العبارة قد تغيرت حين أسند تعديل الكتاب إلى أحد الأستاذة .

• والأصح أن يُقال :

إن الإنسان والقرد ترتد جميعها إلى أصول واحدة ظهرت منذ فجر الحياة ، وتطورت في اتجاهات وجاء الإنسان الحديث في نهاية اتجاه آخر بحيث يمثل أرق الأحياء جسماً وعقلاً وتكيفاً » ا هـ

هذه أهم فقرة فى الكتاب ، وقد كانت لأهميتها في آخر صفحة تحت عنوان الخلاصة .

وقد بدت الفقرة كما رأى القارئ بالجزم القاطع بعبارتين :

الأولى : فالحقيقة التي لا جدال فيها .

والثانية : والأدلة كثيرة واضحة .

وحين احتاجت الفقرة إلى بيان الدليل الواضح الذي أوصلها إلى درجة الحقيقة العلمية التي لا جدال فيها ، ذكرت أن هناك هياكل وجماجم **يرجح** أنها لسلالات بشرية بائدة .

فالموضوع ترجيح غير يقين ، إذا كان كاتب الكلمة يقصد معناها فعلاً .

فكيف تكون الهياكل في نظر الفقرة لم تصل إلى درجة اليقين ، ولكنها تدل على اليقين ؟

وقد يناقش الكاتب قائلاً إني أقصد « يعتقد » فعلى أي أساس يكون الاعتقاد ، وقد وصل الأمر بالنظرية إما إلى الكذب ، وإما إلى عدم ثبوتها علمياً في دائرة المختصين ..

ولم نقل هذا الكلام الآن جزافاً ، ولكن بعد الجولة السابقة الأمينة ...

ثم ماذا ؟

وتقول الفقرة أيضاً :

« ولا يصح أن يفهم من هذا ما يقترن دائماً بالتطور من معان تتضمن أن الإنسان كان قرداً » ا هـ

قد يتبادر إلى أذهان الساذجين من البشر أن العبارة بدأت تعتدل ، وأن خلق الإنسان على نحو خاص دون الحيوان ...

وكل هذا يذوب إذا قرأنا العبارة اللاحقة :

« والأصح : أن يُقال : إن الإنسان والقرد ترتد جميعها إلى أصول واحدة ظهرت منذ فجر الحياة » .

فلم تقبل الفقرة أن ترد الإنسان إلى القردة العليا ، بل ردت الإنسان إلى ما دون القردة فقد أثبتت ما أوهمتنا أنها تنفيه ...

فلننظر إلى أي مدى خالفت هذه الفقرة الحقائق العلمية ؟ ثم يدعي : أن ما في الفقرة هو الحقيقة العلمية .

كتاب الأحياء ، وكتاب الجيولوجيا وجهاً لوجه :

علمنا من الفقرة السابقة منهج كتاب الأحياء للسنة الرابعة فما المنهج الذي سار عليه كتاب الجيولوجيا لنفس السنة ؟

وهذه عبارات من الكتاب الأخير بما لها وما عليها :

تحت عنوان « فوائد دراسة الحفريات » ذكر الكتاب (٦٩)

« ... إنها تساعد على إثبات نظرية التطور ، فمن اختبار الحفريات التي تحتويها الطبقات المكونة للقشرة الأرضية ، يتضح أن هناك رقياً دائماً مستمراً في الأنواع من أقدم العصور إلى أحدثها ، فأقدم الطبقات لا تحتوي من الحيوانات ، والنباتات إلا أدناها مرتبة ، وأبسطها تركيباً ، بينما الطبقات التي تليها تحتوي بالتدريج الأرقى حتى تبلغ أرقاها في أحدث الطبقات » اهـ

والعبارة الأخيرة كما ترى تثبت دون نقاش أن الحفريات التاريخية تساعد

---

(٦٩) ص ٤٤ .

على إثبات تطور الأنواع عن بعضها ، بما في ذلك الإنسان بالطبع .

ولكن شيئاً جديداً في الكتاب قد ظهر .

الشك فى الآثار والاستنتاجات منها ، وأن العلماء لم يعثروا ما يدل على اليقين والحقيقة التي لا جدال فيها ، ولكنهم منتظرون :

تحت عنوان « الإنسان فى العصور الجيولوجية » (٧٠)

وسنبقى في شك من حيث تحديد العصر الذي بدأ فيه ظهور الإنسان على الأرض حتى تكشف آثار لا يحيط بها أي شك أو غموض » .

وإليك عبارة أخرى :

« ولقد كان البحث يكشف لنا من وقت لآخر آثار الإنسان الأول ـــ في مختلف الطبقات ، استنتج منها بعضهم أن بدء حياته علي سطح الأرض في غضون العصر الميوسيني ، على أن هذه الآثار لم تكن واضحة لدرجة يقبلها الجميع برهاناً على هذه النتيجة ، ذلك لأن العظام التي قيل إنها إنسانية لم تتوافر فيها كل الخواص لعظام الإنسان ، وقد تكون لنوع راق من القردة تشبه الإنسان في بعض صفاته » اهـ

أرأيت أكثر من هذا اعتدالاً وأمانة في عرض المعلومات . هنا الآثار غير واضحة ولا تصلح أن تكون برهاناً وفي عبارة كتاب الأحياء الآثار والدلائل واضحة تماماً حتى العظام التي نسبت زوراً للإنسان ...

تذكر العبارة أنها قد تكون أيضاً لغير الإنسان .

وقد افترضت العبارة جدلاً وجود آثار للإنسان الأول ولكنها لم تقل إن الجميع يؤكدون أن هذه الآثار تدل دلالة واضحة على شيءما بل قالت : إن بعض العلماء وليس كل العلماء .

فأي العبارات صواب إذن ؟؟ !!

---

(٧٠) ص ١٥٣ من الكتاب نفسه .

نظرية الكوارث

مر بنا حديث العالم الأنتروبولوجي فيركو في كتابه : « النوع الإنساني » عرفنا منه احتمال نسبة بعض الحفريات إلى المرضى أو المشوهين الموجودين في كل عصر أو زمن .

وهذا الاحتمال ينسف الاستنتاجات حتى ولو كانت صحيحة .

ولخوف أنصار التطور من ذكر نسبة المرض والتشويه ذكرت لصالحهم هذه العبارة في كتاب الجيولوجيا (٧١)

« وقد أقامت مشاهدات دارون ، وسبنسر وغيرهم من أعلام المفكرين في القرن الماضي البرهان على فساد نظرية الكوارث (٧٢) ، فأثبتوا أن الحياة منذ خلقتها الأولى على وجه الأرض هي دائماً مستمرة ، ولكنها في تغير وتحول بطيء ومستمر ، وأن من الأنواع البدائية البسيطة الأولى نشأت تدريجياً أنواع أرقى فأرقى حتى نشأت أرقى أنواع المخلوقات ذات النظام الجسمي المركب » اهـ

وتذكر العبارة هنا أموراً سبق أن نفتها .

عبارة تنفي وجود برهان ، وأخرى تثبت وجود برهان

وإذا كان من برهان فأين هو ؟ وما مقدار درجته من الناحية العلمية ؟

الخلق الخاص :

المقصود بالخلق الخاص كما مر أن الأنواع خلقت خلقاً خاصاً مستقلاً غير متطور عن نوع آخر ، فنوع الإنسان خلق خلقاً مستقلاً غير متطور عن

---

(٧١) ص ١٣ من الكتاب نفسه .

(٧٢) نظرية الكوارث جاءت هكذا مبهمة ، وإن كانت تدل بوضوح إلى أن ما حدث للأمم السابقة من عقاب بالخسف والصعق كذب في رأيهم ، وينقل المؤلفون هذا في صورة الموافقة ، والدعوة والتأكيد . فتأمل خطورة ذلك .

الحيوان ، وهذا هو الموافق لما سبق من البحث ، وهو الذى قرره الإسلام ، وصار موضوع الخلق الخاص بناء على هذا حقيقة وليس نظرية خاضعة للصواب والخطأ ...

وقد وردت عبارة (٧٣) في كتاب الأحياء تتضمن جانبين :

١ ـــ الجانب الأول عقيدة علماء التطور .

٢ ـــ الجانب الثاني الخلق الخاص .

وإليكم العبارة التي وردت في الكتاب في بداية عرضه لنظرية التطور العضوي :

« ولابد لنا من الإشارة إلى أن الكثير من العلماء ، وأنصار نظرية التطور هذه مؤمنون بالله وبقدرته ، ويرى هؤلاء أن قدرة الله تتجلى في هذا النظام الرائع الذي بنيت الحياة على أساسه ، والذي كان المنظم للتطور بتفاصيله ومبناه ، وهم يرون أن أنصار فكرة الخلق الخاص إنما يخطئون عندما يتلمسون قدرة الله فى خلق كل نوع على حدة ، لأن كثيراً من هذه الأنواع نماذج فاشلة ، انقرض كثير منها . وبقي بعضها متعلقاً بأهداب البقاء » اهـ

وأصبح عرض قضية الخلق الخاص على أنها فكرة ، وليست ديناً حتى يسهل ابتلاعها ، وبالرغم من معارضة العبارة للكثير من علماء التطور أنفسهم ..

وكان لابد على الكتاب بيان فكرة الخلق الخاص كما قال . حتى يوضح كل جانب باعتدال ، ولم يرد في الكتاب عن بيان الخلق الخاص غير هذه الأسطر القليلة وهي :

« ويؤمن أنصار هذه الفكرة بأن الله جلّ وعلا خلق الحياة ، وخلق كل نوع من أنواع الكائنات الحية خلقاً خاصاً مستقلاً بشكله وتركيبه ، بحيث إن الأنواع هذه كانت ولا تزال ثابتة لا تتغير ولا تتطور ، وكل نوع منها مستقل عن

---

(٧٣) ص ٥١٥ من الكتاب نفسه .

أي نوع آخر وغير مرتبط به بأية صلة » اهـ

ولأن خلق آدم مشهور ومعروف لا يمكن إذن لأمثال هؤلاء أن يذكروه ، لأنهم بذلك يثيرون عامة المسلمين ، فعليهم إذن بالكلام العام ، الذي يمكن تفسيره فيما بعد بالتفصيل ...

التشابه والاختلاف :

سبق في المذكرة فصل المقارنات التشريحية بين الإنسان والحيوان ، وظهور الفرق بينهما ...

ومنذ أن كانت الخليقة وكل إنسان يعلم : أن الحيوان يبصر بعينيه كما يبصر الإنسان بعينيه ، وأن العينين في رأس كل منهما .. وأن لكل أذنين وأطرافاً أربعة ... والكل يأكل ويهضم الأكل في الأمعاء ، والكل يتنفس ولكل رئتان ...

هذه أجزاء يتشابه فيها الحيوان والإنسان ...

فمسألة التشابه هذه ليست خفية بل ظاهرة منذ فجر الحياة ، ولم يأت فرد ليقول إن هذه التشابه يعني تطور واحد عن الآخر ...

ولابد لمدعي التطور أن يعقلوا هذا التشابه بين الإنسان والحيوان حتى يثبتوا ما يزعمون ، فإذا ما ذكروا هذا التشابه الواضح المألوف للناس لم يستطيعوا أن يوهموا الناس بحقيقة التطور ،

وجنحوا إلى التشابه الخفي ، وتركوا التشابه الظاهر دون سبب معقول ... ووضعوا أساساً مسبقاً لتفكيرهم في هذا السطر المركز من كتاب الأحياء :

« كل هذا (أي التشابه) لا يمكن تفسيره إلا إذا قبلنا نظرية التطور العضوي » (٧٤)

وضرب الكتاب أمثلة لهذا التشابه متناسياً التشابه الظاهر ذاكراً التشابه

---

(٧٤) ص ٥٤٠ من كتاب الأحياء .

الخفي ، وتلك عبارته :

« فالزائدة الدودية عند الإنسان ، وآكلات اللحم هي عضو ضامر أثري ، بينما نجدها كبيرة فعالة عند الثدييات آكلات العشب » « والفقرات العصعصية عند الإنسان ما هي إلا بقايا ذنب ، ويدل على ذلك تعدد الفقرات الذنبية في الجنين ، وولادة بعض الأطفال بذيول قصيرة (يمكن استئصالها بعملية جراحية) » (٧٥) .

فليست دلالة تقارب الزائدة الدودية في الإنسان وآكلات العشب بأكثر دلالة من توافق العين في كل ، ووحدة الخلق ظاهرة في كل شيء ، لأن الخالق سبحانه واحد ، بل هناك التوافق بين أصغر شيء في الوجود ، وأكبر شيء في علم البشر ...

هذه الذرة التي تكمن في وسطها النواة ، وتدور الكهارب أو الألكترونات حولها بانتظام ، مهما اختلف عدد الكهارب تشبه وتوافق الشمس وتدور حولها عدة من الكواكب ... فالتوافق ظاهر ، بل ويدل على هذه الحكمة . وحدة الخلق لأن الخالق واحد ﴿ **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا** ﴾ (٧٦) .

وكان الذى يجب حين يؤلف هذا أن ينظر إلى ما يرد إلينا نظرة علمية فاحصة ، تناقش ، ولا تسلم دون دليل بحجة أنها واردة من الغرب وفقط ، ويرفض غير الشخص بحجة أنه من بيئتنا فقط أو لسبب أشد من ذلك .

وقد ذكرت الكثير عن هذا الغرب المعارض لما يذكرون من آراء حتى يراجع المؤلفون أنفسهم في اعتقادهم لهذه النظريات ، وعرضهم لها في كتب تعليمية .

ولعلهم أيضاً قد سمعوا من الإذاعة البريطانية القسم العربي جواباً عن سؤال حول نظرية دارون وأصل الإنسان ...

---

(٧٥) ص ٥٤٥ من كتاب الأحياء .

(٧٦) سورة الأنبياء ، الآية رقم ٢٢ .

وكان من الجواب :

أن نظرية دارون وأصل الإنسان ليس عليها دليل ثابت ، وأن الصحيح أن الإنسان خلق خلقاً مستقلاً .

وقد سمعت هذا بأذنى منذ سنة تقريباً أي في عام ١٩٦٩ .

كتاب الأحياء الجديد

وإليك أيها القارئ الكريم ما سجل فى كتاب الأحياء بعد إعادة طبعته وتعديله ، وذلك فى آخر موضوع التطور [٧٧] .

نظرة فى أدلة التطور :

نورد بعضاً من أقوال معارضى نظرية التطور ، وذلك لترك الباب مفتوحاً أمام أفكار الطلاب كما ذكرها أصحابها .

١ — دليل التوزيع الجغرافى :

يرى معارضو نظرية التطور أن هذا الدليل لا يعتبر دليلاً ، وهم يقولون بأنه إذا كان الأصل الحيوي الأول واحداً وكانت البيئة واحدة فى منطقتين متباعدتين ، كان على نتائج التطور أن تكون واحدة وهذا عكس ما ذكرناه ، وما نجده من اختلاف بين أنواع الحيوانات الموجودة فى بيئات متشابهة مناخاً ، ومتباعدة جغرافياً . غير أن علينا التثبت من أن البيئة كانت دوماً واحدة في المنطقتين الجغرافيتين المتباعدتين ، إذ يحتمل أن التشابه الحالى حديث العهد نسبياً .

٢ — دليل التصنيف :

إن التشابه هو الأساس الذى قام عليه التصنيف . ولكن التشابه ليس دليلاً على النشوء ؛ ذلك لأن بين الأنواع هوة سحيقة لا يمكن إغفالها ، هى مشكلة

---

(٧٧) الطبعة الرابعة ١٤٠٠ — ١٤٠١ هـ ١٩٨٠ — ١٩٨١ م ص ١٩٤ ، ١٩٥ .

العقم بين الأنواع ، وهناك من العلماء من يتخذ أسساً أخرى للتصنيف غير التشابه الظاهرى ، حيث إنه يرى أن التصنيف يجب أن يقوم على شروط عامة هى التمايز والتوازن ومطابقة الواقع .

٣ ـــ دليل الأجنة :

يقول العالم تيشوب الأخصائى في علم الأجنة (إن الصور الصحيحة للأجنة والشبه الظاهرى ، لا يكفى لاعتبار ونشوء نوع من نوع) ثم يشير إلى دور الجينات الكبير . كما أن البعض يذكر أن هيكل زور ٨٪ من صور الأجنة التى عرضها لإكمال الشبه ، واعترف فيما بعد بهذا التزوير.. ثم إن جميع أنواع البيض تبدو متشابهة فى مظهرها الخارجى ولكن فيها من الاختلاف الكيميائي الحيوي ما هو أبلغ بكثير من التشابه الخارجى . ويقولون بأن الشبه الخارجى دليل الوحدة فى التخطيط أكثر مما هو دليل النشوء .

٤ ـــ دليل علم الأحافير :

يقول العالم كونانت (إن مدى انطباق المفاهيم المستعملة فى علم الأحافير على المفاهيم المستعملة فى الكيمياء الحيوية وملاءمتها لها مسألة ما زالت تحت البحث) ثم إن هناك كثيراً من الأحافير ما زالت تعتبر معضلات فى تفسيرها تطورياً بل إن هناك شكاً فى تكوينها .

ثم إن القول بالحلقات المفقودة وتركيب الأجزاء من مناطق وحيوانات مختلفة هو المتبع فى كثير من الأحافير . وعلة الأحافير الأساسية أن كثيراً منها مفقود وما حفظ كأحافير لا يمثل إلا جزءاً يسيراً من أعداد تلك الأنواع التي عاشت ولم تحفظ كأحافير .

٥ ـــ دليل التشريح المقارن :

يقول العالم آرثر كيث ـــ أحد علماء التطور (لقد أحصيت الصفات المشتركة بين الإنسان والقرد فوجدتها لا تتجاوز ٨,٧٪) . فما نصيب

الـ ٩١,٣٪ من الصفات غير المتشابهة ؟ .

ثم إن القول بأن الأعضاء الأثرية عديمة الفائدة قول فيه رأى .

كتاب التاريخ الطبيعي للصف الثالث الثانوى بمصر .

تحت عنوان الآراء الحديثة فى التطور قال :

« قد رأيت أن الأدلة المتنوعة تشير إلى حدوث التطور العضوى فى الأحياء ، ولكن الآراء تختلف فى كيفية حدوثه ، كما ظهر لك من استعراض بعض الآراء الرئيسية التى اجتهدت فى فهم طريقة حدوث التطور ، وعلى الأخص اللاماركية والداروينية . ولكن آراء المفكرين والعلماء هى أيضاً قد تطورت ، فأدخلوا على الآراء السابقة تعديلات حتى أنها أصبحت توصف باللاماركية الجديدة والداروينية الجديدة .

وكان دارون ملتفتاً إلى التنوع والتباين فى أفراد النوع الواحد ، ولكنه لم يكن عارفاً بالأسس الوراثية التى اكتشفها مندل والتى لم ينتبه العالم إلى صدقها وإلى أهميتها فى أول الأمر . ثم أن تقدم العلم بجهاز الوراثة من كروموسومات وجينات ، وعلى الأخص من خلال أعمال مورجان ، ثم بحدوث الطفرات ومغزاها ، من خلال أعمال دفريس ومورجان وغيرهما ، ثم بالآراء الحديثة عن الأحماض النووية وشفرة الوراثة . هذا كله قد جعل لعلم الوراثة دوراً هاماً فى فهم طريقة حدوث التطور ، ولكن الذى يجب أن نتنبه إليه هنا أن التطور الحقيقى ، المؤدى إلى ظهور الأنواع الجديدة ، إنما يحدث فى الجماعات لا الأفراد ، ولذلك كانت دراسة الوراثة فى الجماعات لها أهمية فى هذا

المجال » (٧٨) .

العالم يكرم عالماً يقول بالخلق الخاص :

من هذا العالم ؟

إنه مفخرة مصر ، والعرب ، والمسلمين .

إنه الدكتور زغلول النجار .

١ ــ حصل على بكالوريوس العلوم بمرتبة الشرف من جامعة القاهرة ٥٥ وكان أول دفعته فمنحته الجامعة جائزة مصطفى بركة للجيولوجيا عن السنة نفسها .

٢ ــ ثم حصل على درجة دكتوراه الفلسفة في الجيولوجيا من جامعة ويلز ببريطانيا ٦٣ وأوصت لجنة الممتحنين بتبادل الرسالة مع جامعات العالم ونشرها بالكامل .

٣ ــ منحته جامعة ويلز درجة زمالتها سنة ٦٣ كما فاز بدرجة زمالة روبرستون للأبحاث فيما بعد الدكتوراه ، وواصل أبحاثه عليها من سنة ٦٣ إلى سنة ٦٧ وهي أعلى درجة زمالة فى الجامعات البريطانية ، وتمنح مرة كل سنة للمبرزين من العلماء في مختلف مجالات العلوم البحتة والتطبيقية .

٤ ــ له أكثر من ثلاثين بحثاً منشورة وتحت النشر فى بريطانيا والولايات المتحدة والدانمرك وفرنسا وسويسرا وألمانيا وروسيا ، وقد نشر له المتحف البريطانى أحد مؤلفاته في عدد تذكاري خاص من أكثر من ثلاثمائة صفحة وإحدى

---

(٧٨) التاريخ الطبيعى للصف الثالث الثانوى . تأليف دكتور حسين محمد سعيد ، ودكتور كمال واصف ، ودكتور عدلى كامل فرج ، صالح العفيفى ، جمال الدين لطفى . دكتورة فرخندة حسن ، سعد السكرى . مراجعة دكتور عبد الخالق حلمى محمد . طبعة ١٩٨٠ ص ٢٢١ .

وأربعين لوحة ، وقد طبع ذلك المؤلف مرات باللغة الانجليزية كما تُرجم إلى الألمانية والروسية ، وعلق عليه في كثير من المجلات العالمية ، وقد منحته الجمعية الجيولوجية بلندن جائزة أحسن بحث نُشر فى بريطانيا سنة ١٩٦٦ ووسام مشيزون عن نفس السنة .

كذلك نال أحد أبحاثه وقد نُشر بمجلة الجمعية الأميركية لجيولوجي البترول جائزة أحسن نشر بالمجلة سنة ١٩٦٦ .

وللدكتور النجار نظرية جديدة في علم طبقات الأرض تتعلق بطرق تقسيم الصخور (٧٩) .

وإن كنت أذكر كل هذا التعريف لأطمئن الكثير من القراء حول ما أنقل عنه من الكلام .

ألقى الدكتور زغلول النجار محاضرة عن طبقات الأرض والتدرج في الخلق .

فمما قال :

إن الله سبحانه وتعالى أول ما خلق من الكائنات الحية ، النبات وسبق خلق النبات خلق الحيوان لأن الحيوان يحتاج لاستمرار وجوده إلى النبات فكان خلق النبات أسبق لهذه الحكمة . وكان خلق الإنسان بعد خلق الحيوان والنبات ، لأن حياة الإنسان تحتاج لاستمرارها إلى وجود الحيوان والنبات ليسخر الحيوان ويأكله مع النبات ، وما يخرج من ثمار ...

ولو كان العكس لما صح ...

وكان في المحاضرة أشياء أخرى قيمة مثل :

١ — عظمة الله بين قوة التكبير وقوة التصغير .

---

(٧٩) مجلة المجتمع الكويتية ت ٤ – ٨ – ٧٠ ، وقد سمعت مقدماً لإحدى محاضرات الدكتور ويذكر الكلام نفسه أمامه .

٢ ــ كالذكر والأنثى البروتون والألكترون .

٣ ــ نظرية جديدة في أصل الأرض .

٤ ــ دورة الصخور والاتزان الأرضي .

٥ ــ السطح والعمق حركة لا تهدأ .

٦ ــ المجموعات النجمية ...

٧ ــ دورة الهواء معجزة . الخ ...

٨ ــ ما أحوج قلوبنا للتأمل .

وذكر تحت العنوان الأخير :

« وهنا يقف الإنسان الذي لا يتعدى متوسط عمره في أفضل الأحوال ٣٥ عاماً يقف مشدوهاً أمام أرض عمرها ٥٠٠٠ مليون سنة ، وفوق تراب تكونت ذراته منذ أكثر من ٧٠٠٠ مليون سنة ولسانه يردد :

﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (٨٠) .

وتجمع الناس حول المحاضر بعد أن ختم محاضرته ، وذهبت إليه أيضاً لأستوضحه عن موضوع شغلت به ، نظرية دارون ، أو تطور الإنسان عن الحيوان ...

فقلت له سائلاً :

لم تعرفنا عن خلق الإنسان الأول ...

أكان خلقاً مستقلاً عن الحيوان ؟

أم كان متطوراً عن الحيوان كما يقول علماء التطور ؟

---

(٨٠) سورة غافر ، الآية رقم ٥٧ .

فقــال :

إن العلماء إلى الآن لم يستطيعوا أن يثبتوا تطور الإنسان عن الحيوان ، ولا زالت هناك فجوة هائلة جداً بينهما ...

وأن الذى أعتقده ، أن الإنسان الأول كان خلقاً مستقلاً أوله آدم . إهـ •

ما رأى المؤلفين إذن بعد هذا الكلام من ذاك الرجل ؟ .

وما الذى كان سيحدث لو كلف أمثال الدكتور بتأليف الكتاب ؟ .

القرآن والعلم :

فى تاريخ ١٩٨١/١٠/١٩ بتلفزيون الكويت قدم برنامج القرآن والعلم تقديم الدكتور أحمد شوقى إبراهيم الطبيب الباطنى بالمستشفى الأميرى بالكويت موضوع : بدء الخلق .

وقد استضاف فى هذه الحلقة من البرنامج الدكتور : أحمد الكبارينى أستاذ الخلايا بجامعة الكويت ، بكلية العلوم .

ومما استطعت أن ألتقطه من الحوار ، والعرض :

١ ـــ أن ما يُسمى صراعاً هو فى الحقيقة توازن ، وليس بصراع .

٢ ـــ فكرة الخلق التلقائى خاطئة (أى دون خالق) .

٣ ـــ يجب أن تدرس نظرية التطور على أنها نظرية ، كنبذة تاريخية ، ولا ينبنى عليها حقائق أخرى ؛ لأن ما يبنى على الخطأ خطأ .

٤ ـــ بالبحث عن اليرقات تبين أن الحياة أتت من الحياة .

وظهر فى البرنامج بوضوح :

أن الإنسان خلق خلقاً مستقلاً ، وأن آدم هو أول المخلوقات وأن الإنسان والكون كله من خلق الله سبحانه .

مَا الهَدفُ مِنْ إشَاعةِ نظريَّة باطِلة ؟

نعم ما الهدف الذي يكمن وراء ذيوع وانتشار هذه النظرية على الرغم من عدم ثبوتها ، أو عدم الاتفاق عليها من المختصين ؟

ولابد أن نعتمد في ذلك على نصوص قالها عدو لنا والذي يرجع إليه الدور الكبير والأول في انتشار « نظرية دارون » وسنتبين من مناقشة هذه النصوص الغايات والأهداف .

وردت في البرتوكول الثاني من الخطر اليهودي أو برتوكولات حكماء صهيون هذه العبارة : (٨١)

« لا تتصوروا أن تصريحاتنا كلمات جوفاء ، ولاحظوا أن نجاح دارون ، وماركس ، ونيتشه قد رتبناه من قبل ، والأثر غير الأخلاقي لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الأممي (غير اليهودي) سيكون واضحاً لنا على التأكيد » .

وتمالك نفسك أيها القارئ العزيز لتعرف أكثر من هذه السطور المتقدمة .

ينقل كتاب التطور والثبات عن البروتوكلات هذه العبارة (٨٢)

« إن دارون ليس يهودياً ، ولكننا عرفنا كيف ننشر آراءه على نطاق واسع ، ونستغلها في تحطيم الدين » اهـ

أرأيتم الهدف الكامن من انتشار نظرية على الرغم من بطلانها ؟

بذل اليهود جهود الجبابرة لتوسيع الهوة التي قامت بين الدين والداروينية ، على أمل تحطيم الدين فى النهاية ، تحقيقاً لحقدهم القديم ضد غير اليهود عامة ، وحقدهم على المسيحيين بصفة خاصة ، من أجل ما لاقوه منهم من اضطهاد .

---

(٨١) ص ١٢٣ ، ١٢٤ الطبعة الرابعة .

(٨٢) ص ٣٣ من كتاب التطور والثبات لمحمد قطب .

واستغلت اليهودية العالمية نظرية دارون أبشع استغلال ، استغلته على يد ثلاثة من أكبر علمائها ، قاموا بصياغة الفكر الأوربي كله في ميدان الاقتصاد ، وعلّم النفس والاجتماع ، أخطر ميادين ثلاثة في عالم الفكر ، على أساس مُعادٍ للدين ، بل محطم لكل مفاهيمه .

أولئك هم :

ماركس ، وفرويد ، ودوركهايم (٨٣)

ومن مقال للأستاذ العقاد ... قال ما نصه : (٨٤)

« إن إصبعاً من الأصابع اليهودية كامنة وراء كل دعوة تستخف بالقيم الأخلاقية ، وترمي إلى هدم القواعد التي يقوم عليها مجتمع الإنسان في جميع الأزمان .

فاليهودي كارل ماركس وراء الشيوعية التي تهدم قواعد الأخلاق والأديان ،

واليهودي دوركهايم وراء علم الاجتماع الذي يلحق نظام الأسرة بالأوضاع المصطنعة ، ويحاول أن يبطل آثارها في تطور الفضائل والآداب .

واليهودي ــ أو نصف اليهودي ــ سارتر (٨٥) وراء الوجودية التي نشأت

---

(٨٣) ص ٣٤ من التطور والثبات .

(٨٤) عن مقدمة الخطر اليهودي للأستاذ محمد خليفة التونسي ص ٧٧ الطبعة الرابعة ، جريدة الأساس ٢١ / ٤ / ١٩٥٠ م .

(٨٥) وسارتر هو الذي سار في مظاهرات صيف ٦٧ في فرنسا تحت هذا الشعار « **قاتلوا المسلمين** » وخلال أربعة أيام تبرعت الجماهير في فرنسا بمليار فرنك . ونشرت الصحف الشعار في صدر صفحاتها واللافتات في المظاهرات ، وعلى صناديق التبرعات ، وحين عوتب الفيلسوف الوجودي . لم يجد ما يعتذر به إلا أنه أخطأ لمجرد أنه عرف بوجود مسيحيين عرب اهـ . حديث بالأهرام في ٣ / ٧ / ١٩٦٧م عن كتاب « الحق المر » مقالاً في الجنس الوجودي ، وحين قدم سارتر وعشيقته المومس سيمون دي بوفوار تلبية لأسرة تحرير الأهرام بعد هذا التاريخ ، =

معززة لكرامة الفرد فجنح بها إلى حيوانية تصيب الفرد والجماعة بآفات القنوط والانحلال .

ومن الخير أن تدرس المذاهب الفكرية ، بل الأزياء الفكرية كلما شاع منها في أوربة مذهب جديد ، ولكن من الشر أن تدرس بعناوينها وظواهرها دون ما وراءها من عوامل المصادفة العارضة والتدبير المقصود » انتهى كلام العقاد .

ويعقب المترجم بعد نقل النص السابق بقوله :

« وقل مثل ذلك في العلامة سيجموند فرويد اليهودي الذي هو من وراء علم النفس ، يرجع كل الميول والآداب الدينية ، والخلقية والفنية ، والصوفية والأسرية إلى الغريزة الجنسية كي يبطل قداستها » اهـ كلام التونسي .

نصوص خطيرة تبين بداية الخيط والمؤامرة ، والوسيلة التي استغلت ...

وهذا نص آخر يبين السلوك اليهودي في منتصف المؤامرة .

« في سنة ١٩٠٠ دخل قره صوه أفندي على السلطان بفضل الفريق عارف بك ، وأبلغه أنه موفد من قبل الجمعية الصهيونية ، وأنه قادم يطلب إليه إعطاء تلك الجمعية الأراضي الواقعة في المثلث القائم بين يافا وغزة والبحر الميت مقابل خمسة ملايين ليرة ذهبية عثمانية ، تدفعها الجمعية الصهيونية هدية إلى الخزينة السلطانية الخاصة ، وعشرين مليوناً تعرضها الجمعية إلى الحكومة دون فائدة لمدة تعينها الحكومة ، فغضب السلطان وطرده من حضرته .

(وقد كان السلطان عبد الحميد قد أصدر فرماناً في ١٨٨٨ بمنع الهجرة الجماعية اليهودية إلى أراضي الدولة العثمانية ، ومنها فلسطين طبعاً ، كذلك قرر عدم السماح للحجاج اليهود بالبقاء أكثر من ثلاثة أشهر في فلسطين) .

وعلى الأثر ألف اليهود جمعية سرية أكثر أعضائها من اليهود المعروفين

أعلن عن الندوات . الراديو ، والتلفزيون ، ووفد إليها أساتذة مصر ، وسيدات مصر آنئذ . عن كتاب الإسلام في وجه الزحف الأحمر للشيخ محمد الغزالي ، ص ٣٤ ، ٣٥ طبعة المختار الإسلامي الخامسة ١٣٩٥ هـ ١٩٧٥ م .

بالدونمة ، والدونمة كما هو معروف لقب يطلقه الأتراك على جماعة اليهود الذين هاجروا من أسبانيا واستوطنوا « سلانيك » وهم طائفة يتظاهر أفرادها بالإسلام مع احتفاظهم باطناً بالدين اليهودي (وبمجرد نجاح المؤامرة ، واستيلاء تنظيمهم على السلطة ، أعلنوا يهوديتهم التي أخفوها أربعة قرون ... فتأمل)

ومنهم جاويد بك ، وبعض كبار رجال الاتحاد والترقي .

فاتصلت بأحرار الترك .. ودخل أعضاؤها حزب الاتحاد والترقي ... وتعاونوا مع كثيرين من شبان الضباط كأنور ونيازي ، وكانت لهم اليد الطولى في الانقلاب الثاني ، وخلع عبد الحميد ، وتبلغ المأساة الذروة .

ومما يؤسف له أن الأحرار لم يختاروا لتبليغ قرار الخلع إلى عبد الحميد غير عمانوئيل قره صو أفندي زعيم يهود « سلانيك » الذي طرده عبد الحميد (٨٦) اهـ

وهذه العبارة التاريخية التي تصور لقاء اليهود في منتصف الطريق ، تبين إلى أي مدى استغلت الآراء والأفكار في تحطيم الدين .

ألا ما أبشع هذا الاستغلال !

وما أبشع أن نكون جهلاء بحقيقة الدور الذي تلعبه اليهودية في تزييف الحقائق ، ونشر ما يبعث على الفساد والانحلال .

وما أبشع أن نقف نحن اليوم ضد عبد الحميد ، ومع عمانوئيل قره صوه !!
ويمكن من خلال هذه القصة التي ذكرت أن نعلم :

---

(٨٦) هامش كتاب خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية ص ٣٧٩ ، ٣٨٠ للأستاذ عبد الله التل ، وصرح المؤلف بأن القصة نقلتها أيضاً مجلة فلسطين البيروتية بعددها رقم ٣١ من مذكرات السيد فخري البارودي ..
وذكرت العبارة أيضاً في كتاب : القومية والغزو الفكرى لمحمد جلال كشك ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ وقد صرح بأنه نقل العبارة من كتاب « خطر الصهيونية على الإسلام والمسيحية » وذكر موجز العبارة على غلاف مجلة المجتمع ٤ - ٨ - ١٩٧٠ .

لماذا يشيع في مجتمعاتنا الحقد الدائم والكره المستمر لكلمة خليفة وبخاصة إذا وصفت بكلمة عثماني ، دون دراية بأن الوضع الذي أزال هذا الخليفة الذي لم يرض بأي حال أن يوطن اليهود في فلسطين ، هو الذي اعترف بوجود إسرائيل على أرض فلسطين .

وبذلك نفّس الحقد اليهودي عن نفسه ، غير البعيد عن الأبعاد الحقيقية لقضيته ، واستطاع أن يغير مفاهيم الأشياء بالتزوير والتزييف ...

والأمة الناهضة التي تريد لنفسها الخير عليها أن تكشف التزوير الذي يحاك ضدها ، حتى تتبين الخير من الشر .

مغالطـات :

قالـوا :

إن المبادئ الجديدة المعتمدة على فكرة التطور الداروني تبنى الرجال الأقوياء الذين تعتمد عليهم دولهم .

وقالـوا :

إن الدين مخدر للشعوب ، وأفيون الشعوب .

وقالوا فى تعريف الإسلام : (٨٧)

إنه « يبرز الظلم الاجتماعي ، ويصد الناس عن الكفاح الثوري ، ويدفعهم إلى انتظار بليد للسعادة في الآخرة » اهـ

إن التطبيق للفكر اليهودي بالحرف ، حتى في تعريف الإسلام ، في معجم رسمي دولي .

---

(٨٧) المعجم الفلسفي المكتوب من وجهة النظر الشيوعية (موسكو ١٩٦٧) نقلاً عن هامش كتاب ماركسية القرن العشرين لسكرتير الحزب الشيوعي الفرنسي للمترجم نزيه الحكيم ص ٢٥ .

وصارت الدعاية المزيفة البعيدة عن الحقائق ضد الإسلام على أوسع نطاق ، تلعب اليهودية الدور الأكبر ظاهراً أو باطناً فيه .

وبعد هذا التزييف ما الذي صار ؟

ضيـــاع .

كان الضياع .

ففي عام ١٩٦٢ صدر تصريح من خروشوف قال فيه :

« إن الشباب قد بدأ ينحرف ، ويفسده الترف وإن من بينه « عصبجية وصيعا » وأنذر بأن معسكرات جديدة قد تفتح في سيبريا للتخلص من الشباب المنحرف ؛ لأنه خطر على مستقبل روسيا » (٨٨) .

خبر مفجع للكثيرين لأنهم لم يتصوروا مثله

ألقى نيكيتا خروشوف عام ١٩٥٦ بياناً قيل عنه « فضيحة البيان السري » فأيقظ به الكثير من الماركسيين أمثال روجيه غارودى ، فجعلته ـــ كما قال عن نفسه ، وعن بعض زملائه فى مقدمة كتاب « ماركسية القرن العشرين » لروجيه غارودى سكرتير الحزب الشيوعي الفرنسى فى أوائل الستينيات . قال روجيه فى مقدمته للكتاب : لا يجحد ولاءه السابق للماركسية ؛ لأنه يعود عن النور بل ينطلق إلى البحث عن ملاذٍ ليقينه من جديد ، فعل ذلك ، لا عن تصميم بألا يؤمن بشيء بعد الآن ، بل عن تصميم بألا يؤمن بعد الآن إلا وعيونه مفتحة ، ولم يكن أمامه من سبيل إلى هذه العيون المفتحة إلا النقد الذاتى أولاً ، لمسئولياته الخاصة ، وللقالب القيصرى الذى تجمدت فيه الفلسفة الماركسية ، وإلا النظر الإيجابى الواعى إلى ما لدى الآخرين من جديد جدير بالنقاش كانت نواميس « البابوية الستالينية » قد أصدرت مراسيم تحريمه بتهمة « البورجوازية » أو « الرجعية » أو « الانحطاط » لم يكن من سبيل إلى العيون المفتحة إلا الحوار (٨٩).

---

(٨٨) مقدمة المترجم نزيه الحكيم ، فى ١٩٦٧/١٠/٢٢ ص ١٧ من المقدمة .

(٨٩) المرجع السابق .

وقال أيضاً :

« وإن كنت وأنا أكتب هذه الدراسة واعياً أشد الوعى لواجبى ــ كفيلسوف ــ تجاه حزبى وتجاه مكتبه السياسى الذى يشرفنى ، ويزيد من مسئوليتى أن أكون أحد أعضائه .

ذلك أن قبول آراء ستالين فى الفلسفة دون تمحيص لم يكن مجرد ضلال نظرى ، إذ أن تأييد أحكام الإدانة الصادرة باسم معتقدات الدين الرسمى (أى دين الماركسية) كان ييسر مهمة أولئك الذين يمنعون فلاناً من الكتابة أو التصوير ، أو يحرمونه حق الحياة ، وحتى لايتكرر ذلك أبداً من جديد لابد لنا من القيام بجهد جماعى ، وبالتالى علنى ، نستكشف به مصادر الضلال ، ونكشف عنها ؛ لنستطيع أن نستعيد فى هذه المرحلة الجديدة ، روح الماركسية الأصيلة (٩٠).

وفى النصين السابقين نرى :

١ ــ اعتراف روجيه الصريح باتخاذه الماركسية مذهباً رسمياً ، وعضويته لحزبه .

٢ ــ أن بيان خروشوف فى ١٩٥٦ أبرز الفضائح التى تمت باسم الماركسية فى عهد ستالين .

٣ ــ أن ستالين أغلق العيون ، وحرم النقد مستغلاً مصطلحات ماركسية ، كالرجعية ، وأول ما تنصب هذه الكلمة عندهم « الدين » فقد صار مشهوراً لديهم « الدين أفيون الشعوب » فصاروا هم فى نظر روجيه أفيون الشعوب بضلالهم ، وحرمان الناس حق الحياة .

٤ ــ تهاوى الفكر الماركسى بين أبنائه على أى نمط من الأنماط ، وأن هذا التهاوى لحق نفسيات القادة فى الدين الماركسى .

---

(٩٠) مقدمة المؤلف روجيه غارودي ص ٤٠ من الكتاب ــ طبعة دار الآداب بيروت ١٩٦٧ م .

٥ ــ وأن هذا التهاوى لا يمكن أن يثبت من الناحية الفكرية أمام دعوة الإسلام الحق ــ إن شاء الله .

هذا وفى تاريخ ١٩٨٣/١/١١ نشرت صحيفة القبس الكويتية فى العدد رقم ٣٨٣٠ ص ٣ ما نصه :

« روجيه غارودى يصل اليوم ، ويحاضر السبت عن الإسلام والحضارة »

...يصل إلى البلاد اليوم قادماً من دولة قطر المفكر الفرنسى المعروف روجيه غارودى فى زيارة للكويت تستغرق أسبوعاً ، يلتقى خلالها مع عدد من كبار المسئولين ، والفعاليات الدينية والثقافية ، كما يلقى محاضرة بعنوان : الإسلام ، والحضارة الساعة السادسة مساء السبت المقبل ٨٣/١/١٥ بقاعة الاحتفالات الكبرى بمجمع الإعلام ، يحضرها رجال الدين ، والسياسة ، والفكر ، والمهتمون بالثقافة والإعلام .

وقد أبدى الترحيب الحار بزيارة الأخ المسلم المفكر الكبير للبلاد[٩١] ، وقيل : إنه يحل ضيفاً عزيزاً بين إخوته فى الإسلام ، وأعلن عن الثقة بأن العطاء الفكرى للأخ المفكر الكبير سيثرى المكتبة الإسلامية ــ إن شاء الله ــ وسيكون له دور بارز بالفكر الإنسانى وقد أعد له برنامج زيارة حافل يطلع من خلاله المفكر الكبير على معالم البلاد الإسلامية والتاريخية ، والتراثية . اهـ

ترى أهذه السنوات الفائتة ازداد فكر روجيه اتزاناً ، وعمقاً ، وفهماً صحيحاً للإسلام ، وعدم تطويع الإسلام للماركسية ؟؟ هذا ما نأمله ، ونرجوه له ، ولكل الناس .

---

(٩١) ومن الغريب أن « خالد محيى الدين » أحد قادة حركة الجيش المصرية ، حين قرأ كتاب « الاقتصاد محرك التطور الاجتماعى » لغارودى ، تأثر بالفكر الماركسي ، عن كتاب « صفحات من التاريخ » للأستاذ صلاح شادي . الطبعة الثانية ص ١٣٤ ، فى حين أن الكاتب غير فكره من الماركسية إلى الإسلام ، وغير اسمه ، فأصبح ، رجا غارودى – في رمضان ١٤٠٢ هـ .

وضم عام ١٩٦٢ اعترافين خطيرين في موسكو :

الأول : اعتراف بفشل المزارع التي أسست على نظريات لسنكو بعد ٢٧ عاماً من تطبيق نظرية خاطئة ، تعتمد على إلغاء الوراثة كما تقدم .

الثاني : اعتراف بأن النظام الجديد لم يخلق رجالاً كما زعموا وأعلنوا ... ولكن النظام كان سبباً في خلق شباب مائع منحل .

وانتهى صاحب الاعترافين إلى الأبد ، حتى لا يكون اعتراف ثالث .

وفي نفس العام ١٩٦٢ قال كيندي :

« إن الشباب الأمريكي مائع منحل مترف ، غارق في الشهوات ، وإنه من بين كل سبعة شبان يتقدمون للتجنيد يوجد ستة غير صالحين ، بسبب انهماكهم في الشهوات ، وأنذر بأن هذا الشباب خطر على مستقبل أمريكا ، وأهاب بالعلماء والمصلحين الاجتماعيين أن يبحثوا هذا الخطر ، ويقرروا العلاج » (٩٢) .

واتسم موقف كيندي بالجد .

فماذا كان له ؟

كانت له نهاية أسوأ من زميله خروشوف .

رصاصة وسط جموعٍ غفيرة لأكبر رجل في أكبر دولة فيقتل ، ولا يعلم أحد مصدرها . غريب فعلاً ...

وحينما تشير بعض الأصابع إلى واحد بالاتهام سريعاً ما يقتل بحجة الحماسة ، لتختفى الجريمة إلى الأبد .

وليتعلم الناس أن الحرية لها ثمن كبير قد يكون النفس .

وأن من يريد الإصلاح ومواجهة الواقع ، يكون جزاؤه الاغتيال تماماً كمن يحاول نشر أو طبع البروتوكولات التي تفضح اليهود من عام ١٩٠٥ إلى الآن .

---

(٩٢) نفس المصدر السابق ص ١٢٣ .

وأصبح داورن قائداً :

نعم أصبح دارون قائداً ، أو صنع الملايين من البشر منه قائداً ، كما اعترفت البروتوكولات .

ويجب أن نعلم علماً أكيداً أن بعض النظريات العلمية الوافدة إلينا ، أو التي فتحت لها نوافذ بيوتنا لتدخل منها ، لم توضع أصلاً للدعوة إلى الإلحاد والتحلل ... ولكن دعاة الكفر والإباحية استغلوا شهرة هذه النظريات استغلالاً كبيراً فجعلوا منها الوسائل المتنوعة والمتعددة ، للتغرير بالقاصرين السطحيين من البشر ، حتى يجروهم إلى هاوية الكفر والضلال ، أو البعد عن مراكز القوة ، ليكون المغرر الماكر فقط هو المتسلط في الأرض ، وغيره من البشر لا يدري ما يحاك له وما يدبر بشأنه .

المهم أن دارون أصبح بنظريته قائداً على أي حال ؛ وضع أساس الحط من شأن الإنسان لأنه وجد نفسه فاقد الأم والحنان في بداية حياته .

فكانت نظريته انعكاساً لما يعانيه من ألم ، وكانت رحلته إلى إحدى الجزر ليرى طيوراً مختلفة عن منطقته الأولى ، فيوحي إليه الاختلاف بالتطور ...

وتوقف دارون عند هذا الحد .

وجاء بعده زبانية استغلوا هذه النظرية ، كما اعترفت البروتوكولات ، ليجعلوا هذا النهج سلوكاً ، ومذاهب ، ليدفنوا الأخلاق ، والمثل العليا ، ولتقاد البشرية كالسائمة البلهاء إلى الهاوية .

ماركس يأتي ويقول :

لا قيمة لهذا الإنسان ، ولكن القيمة للقمة الخبز التي تحركه وتدفعه ، وتصنع منه شيئاً ، فعلى المرء أن يصنع هذا الإله ، ويهتم به جيداً ، ويكون المنطلق البشري أي لقمة الخبز والتفسير المادي للتاريخ .

وبذلك انحط الإنسان كما أراد دارون .

وفرويد يأتي ويقول :

إن الجنس أي الغريزة الجنسية هو كل شيء ، وهو الدافع الحقيقي لكل حياة الإنسان ، وأن ما عداه دونه ، أو لا فائدة منه ، وألغى حنان الأم والأب ، أو شك في حنانهما ، وكما هو معروف في تفسيره بعقدة أوديب وعقدة ألكترا .

وذلك كله للحط من قيمة الإنسان كما أراد دارون .

ودور كهايم يأتي ويقول :

إن المجتمع هو صانع الأفراد . القيمة له . وأن الأفراد مصيرون له ، فعلى الأفراد أن يلتزموا ما يدعو إليه المجتمع ، وعليهم أن يلبوا رغبات المجتمع راضين أو كارهين .

وذلك كله ليدار مجتمعه بأيد ملوثة ، وعلى الأفراد الطاعة للسير بهم إلى الهاوية .

وبذلك ينحط الإنسان كما أراد دارون .

وسارتر يأتي ويقول :

« إنه لا يوجد لدى الله أي حل لأي مشكلة من مشكلات الوجود ، لأن الله غير موجود ، ولأن الحلول الدينية للمشكلات تحد من الحرية الوجودية ، لأن الوجودي لم يختر هذا الحل ، وإنما فرض عليه فرضاً .

فالدين عنده خرافة ، لأنه نسيج من الاتجاهات العقلية أو الغيبية ، يجب أن تؤمن بها ولو لم تحسها في نفسك » (٩٣) .

وتتضح من النص الأخير ، هذه الحرب للدين التي أعلنت عنها البروتوكولات ، وامتثال سارتر لمبدأ الحرب .

وذلك كله لينحط الإنسان كما أراد دارون .

ويمكنك أن تفسر إذن المقصود من الدعاية الفخمة التي نالها سارتر

---

(٩٣) الوجودية والإسلام لمحمد لبيب البوهي ص ٢٠ .

وعشيقته حينما كانا بمصر ، قد كان يُقال إن علاقته بعشيقته أسمى من علاقات أزواجنا ، إلى هذا الحد !! .

طالما أن المبدأ هو محاربة الدين بكل الصور ودون أساس .

ثم كان للوجودية دعاة آخرون ، منهم جبريل مارسيل الذي أعلن فلسفته عام ١٨٨٩ قائلاً :

« إن محور فلسفته الوجودية هو الجسد ، فكل إنسان تنبه إلى أول شيء في وجوده فوجد نفسه ، فالجسد الإنساني هو الأصل الذي وجدت الذات نفسها فيه ، وإذا كانت أهم مبادئ الوجودية هي الانفرادية ، فكل إنسان إذن يختلف عن الآخر في اتجاهه الوجودي ما دام يرى نفسه حراً . » (٩٤) .

وصارت الوجودية التي استغلت نظرية دارون سبباً في انحدار ملايين من البشر خُلقياً وسلوكياً .

ويلتقي دارون ، وماركس ، وفرويد ، ودور كهايم ، وسارتر عند نقطة واحدة : هي حيوانية الإنسان ...

ويحسون مقدار الخطورة عليهم جميعاً حينما يقف أمامهم جندي يعلن : **﴿ ولقد كرمنا بني آدم ﴾** (٩٥) .

---

(٩٤) الوجودية والإسلام ص ٤٠ .

(٩٥) سورة الإسراء ، الآية رقم ٧٠ .

خـاتمـة

المتصفح لآيات القرآن الكريم يجد الدعوة صريحة إلى النظر فى الكون ، والتأمل فيه ، وكشف أسراره وقوانينه لخير الإنسان ، وليعلم الناس عظمة الخالق سبحانه وتعالى وأنهم أمام كتابين :

الكتاب الأول الكتاب المسطور وهو القرآن الكريم .

الكتاب الثاني الكتاب المنثور وهو الكون الفسيح الذي يحوطنا .

وكلا الكتابين من صنع الخالق سبحانه .

والشيئان الصادران عن حكيم لا يمكن أبداً وبأي حال من الأحوال أن يتعارضا ...

فلا تعارض أبداً بينهما ...

فالله سبحانه وتعالى إذا أقر أمراً فهو لخير الإنسان حتماً ، وهو الحق حتماً ، وهو الصواب حتماً .

والدعوة الصريحة في القرآن الكريم إلى العلم والتأمل .

وبعد أن عرض الله سبحانه في سورة فاطر ، البحر والفلك التي تسير فيه ، وما يستخرج منه من أسماك ولؤلؤ ، والناس والدواب والنبات وقد اختلف كل نوع منها ، والأرض والجبال بألوانها ذكر بعد هذا العرض قوله تعالى :

﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ (٩٦)

---

(٩٦) سورة فاطر ، الآية رقم ٢٨ .

أي هذا الصنف من الناس الذين تأملوا البحر ، ورأوا ما فيه من قوانين الطفو وكذا وكذا ... وكيفية الصيد ، واستخدام أحسن الطرق في الصيد وتوسيع الاستفادة منه بالتعليب وغيره وقل مثل ذلك في الجبال طبقاتها وما يكتشف فيها من معادن . هذا الصنف من الناس هم أول من يدرك عظمة الخالق سبحانه .. وهم الذين يخشونه ويخافونه .

إن الدين يعلن أن الكون مسخر للإنسان بشرط أن يكون لخير هذا الإنسان ويحارب الخراب والدمار والفساد في الأرض .

إن القرآن الكريم يعلن إعلاناً صريحاً أن السير في الأرض واجب ، والنظر والاستنتاج واجبان ، ودراسة الأحياء واجبة .

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ **قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ، ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير** ﴾[٩٧]

صدق الله العظيم

---

(٩٧) سورة العنكبوت ، الآية رقم ٢٠ .

إدريس ـــ عليه السلام

إدريس ــ عليه السلام .

يقول الله تعالى :

﴿ واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبيا ، ورفعناه مكاناً علياً ﴾ (١) .

فذكر إدريس ــ عليه السلام ــ بالثناء عليه بأنه كان صديقاً نبيا ، وأن الله سبحانه رفعه مكانا عليا فى إحدى السموات السبع .

فعن أنس بن مالك ، قال : كان أبو ذر ــ رضى الله عنهما ــ يحدث أن رسول الله ــ ﷺ ــ . قال : (أى فى حديث الإسراء) .

« .. عرج بى إلى السماء الثانية ، فقال له خازنها : مثل ما قال الأول (أى خازن السماء الأولى ، كما فى تكملة الحديث) ففتح ، قال أنس : فذكر أنه وجد فى السموات آدم ، وإدريس ، وموسى ، وعيسى ، وإبراهيم ــ صلوات الله عليهم وسلامه ــ ولم يثبت كيف منازلهم ؟ غير أنه وجد آدم فى السماء الدنيا ، وإبراهيم فى السماء السادسة ، قال أنس : فلما مر جبريل (بالنبى ــ ﷺ ــ) بإدريس . قال : مرحباً بالنبى الصالح ، والأخ الصالح ، فقلت : من هذا ؟ قال : هذا إدريس »(٢) .

وفى رواية أخرى حددت مكان وجود إدريس ــ عليه السلام .

فعن أنس ، عن مالك بن صعصعة ــ رضى الله عنهما ــ قال : قال النبى ــ ﷺ :

« .. فأتينا السماء الرابعة . قيل : من هذا ؟ قيل : جبريل . قيل : من

---

(١) سورة مريم . الآيتان ٥٦ ، ٥٧ .

(٢) أخرجه البخارى . كتاب الصلاة ، باب . كيف فرضت الصلاة ؟ ج ١ ص ٩٧ ، ٩٨ قال صاحب الفتح « وفى حديث أبى ذر الطويل الذى صححه ابن حبان أن إدريس كان نبيا رسولا ، وأنه أول من خط بالقلم » فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ١٣ ص ١١٤ رقم الحديث ٣٣٤٣ طبعة مكتبة الكليات الأزهرية .

معك ؟ . قيل : محمد ـ ﷺ . قيل : وقد أرسل إليه ؟ . قيل : نعم . قيل : مرحباً به ، ولنعم المجيء جاء . فأتيت على إدريس فسلمت عليه . فقال : مرحبا من أخ ، ونبى .. »[3] .

وفى رواية ثالثة :

« .. فإذا أنا بإدريس . فرحب بى ، ودعا لى بخير ، قال الله عز وجل : ﴿ ورفعناه مكاناً عليا ﴾ »[4] .

ولم يرد نص يحدد تاريخ بعثة إدريس ـ عليه السلام ـ أو بعد أى نبى كان ، وما ذكر من آثار فى ذلك فقد كانت عن استنباط وفهم للنصوص فقط .

ومما ورد فى ذلك فى ضوء تفسير قوله تعالى : **﴿ أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ، وممن حملنا مع نوح ، ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ، وممن هدينا واجتبينا ، إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا ﴾**[5] قال السدى وابن جرير :

فالذى عنى به من ذرية آدم : إدريس .

والذى عنى به من ذرية من حملنا مع نوح : إبراهيم .

والذى عنى به من ذرية إبراهيم : إسحق ، ويعقوب ، وإسماعيل .

والذى عنى به من ذرية إسرائيل : موسى ، وهارون ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى بن مريم .

ولذلك فرق أنسابهم ، وإن كان يجمع جميعهم آدم ؛ لأن فيهم من ليس من

---

(٣) المصدر السابق . كتاب الأنبياء ج ٤ ص ١٣٣ .

(٤) أخرجه مسلم . المختصر . كتاب الإيمان ، باب الإسراء بالنبى ـ ﷺ ـ إلى السموات ، وفرض الصلوات ج ١ ص ٢٦ رقم ٧٦ ، كما رواه أيضاً النسائى ، والترمذى ، وأحمد ، وابن هشام .

(٥) سورة مريم . الآية رقم ٥٨ .

ولد من كان مع نوح فى السفينة ، وهو إدريس ، فإنه جد نوح . قال ابن كثير : هذا هو الأظهر(٦) .

وقيل : إنه من أنبياء بنى إسرائيل أخذاً من حديث الإسراء ، حيث قال فى سلامه على النبى ـــ ﷺ : مرحباً بالنبى الصالح ، والأخ الصالح ، ولم يقل : والولد الصالح . كما قال : آدم ، وإبراهيم ـــ عليهما السلام(٧) .

وقال البخارى : يذكر عن ابن مسعود ، وابن عباس ـــ رضى الله عنهم ـــ أن إلياس هو إدريس(٨) .

ويبعد هذا الرأى قول الناس يوم القيامة لنوح : أنت أول المرسلين ، وهذا لا يوافق ظاهر التعبير فى القرآن الكريم ﴿ **وإن إلياس لمن المرسلين** ﴾(٩) . كما لا يوافق أيضاً اعتبار إدريس ـــ عليه السلام ـــ رسولا فبقى أن نفهم : أن إدريس ـــ عليه السلام ـــ نبى ، وليس برسول ، وأنه قبل نوح ـــ عليه السلام ـــ والله أعلم بالصواب .

وقد وصفه ربه سبحانه بالصبر ، مما يدل على تحمله فى سبيل الدعوة إلى الله سبحانه ، والسير على منهاجه ، وفى ذلك يقول الله تعالى : ﴿ **وإسماعيل وإدريس ، وذا الكفل ، كل من الصابرين** ﴾(١٠) .

والمتأمل فيما ورد من نصوص فى سيرة إدريس عليه السلام يرى :

ـــ أن الصدق فى القول يرفع مكانة صاحبه عند الله سبحانه .

ـــ أن الحارس لابد له من الاستيثاق من كل داخل ، ليكون أداؤه للأمانة الملقاة على كاهله على خير وجه .

---

(٦) وهذا الرأى يوافق ما رواه ابن سعد فى طبقاته .
(٧) تفسير ابن كثير لسورة مريم .
(٨) صحيح البخارى ، باب وإن إلياس لمن المرسلين ج ٤ ص ١٦٤ .
(٩) سورة الصافات . الآية رقم ١٢٣ .
(١٠) سورة الأنبياء . الآية رقم ٨٥ .

ـ وأنه من السنة الترحيب بالزائر ، أو المار بأطيب الكلام ، وأحبه إلى النفس .

ـ وأن من السنة حين يسأل صاحب الدار : من الطارق ؟ أن تكون الإجابة بالاسم .

ـ وأن الذين التزموا منهج الله سبحانه فى العبادة ، وغيرها من الطاعات هم الذين أنعم الله سبحانه عليهم .

ـ وأن الأنبياء والرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ أسرة واحدة ، تسير فى موكب الهدى والإسلام ، ويجب على المسلم أن يؤمن بهم جميعاً .

نوح ـ عليه السلام

ـ أول الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام .
ـ نوح ـ عليه السلام ـ وقومه .
ـ نوح ـ عليه السلام ـ يلجأ إلى ربه سبحانه .
ـ تحدى قوم نوح ـ عليه السلام ـ له .
ـ نوح ـ عليه السلام ـ وزوجته ، وابنه .
ـ نوح ـ عليه السلام ـ والطوفان .
ـ إنذار نوح ـ عليه السلام ـ قومه من الدجال .
ـ دروس وعبر .

أول الرسل ـــ عليهم الصلاة والسلام :

وردت فى القرآن أكثر من آية تعبر عن إرسال نوح ـــ عليه السلام ـــ إلى قومه . ومن هذه الآيات ، قوله تعالى :

﴿ **إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه ، أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم** ﴾(١) .

وفى حديث الشفاعة ما يدل على أنه أول الرسل ، يقول آدم ـــ عليه السلام :

« .. **نفسى ، نفسى . اذهبوا إلى غيرى ، اذهبوا إلى نوح . فيأتون نوحاً ، فيقولون : يا نوح ، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض ، وسماك الله عبداً شكوراً**(٢) **. أما ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى إلى ما بلغنا ؟ ألا تشفع لنا إلى ربك ؟ ، فيقول : ربى غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولا يغضب بعده مثله ، نفسى . نفسى . ائتوا النبى ـــ ﷺ** .. »(٣) .

وفى مجموع حديث الشافعة يستشفع الناس بأول البشر ، وأول الرسل ، وأفضل الرسل ـــ عليهم الصلاة والسلام .

وروى عن ابن عباس ـــ رضى الله عنهما ـــ أن بينه ، وبين آدم ـــ عليه السلام ـــ عشرة قرون ، على اختلاف فى فهم القرن بما يتناسب والسياق(٤) .

نوح ـــ عليه السلام ـــ وقومه :

دعا نوح ـــ عليه السلام ـــ قومه إلى عبادة الله وحده ، وتقواه ،

---

(١) سورة نوح . الآية رقم ١ .

(٢) وفى ذلك يقول الله تعالى : ﴿ **إنه كان عبداً شكوراً** ﴾الإسراء ، الآية رقم ٣ .

(٣) أخرجه البخارى . كتاب الأنبياء ، باب قول الله تعالى : ﴿ **إنا أرسلنا نوحاً** ﴾ ج ٤ ص ١٦٢ ارجع إلى ما يتصل بالتعليق على هذا الحديث ، وآية ﴿ **إن الله اصطفى آدم** ﴾ فى فصل آدم عليه السلام .

(٤) أخرجه البخارى ، نقلا عن ابن كثير فى البداية والنهاية ، قصة نوح ـــ عليه السلام .

وتوحيده بالعبودية له سبحانه . يقول الله تعالى على لسانه :

﴿ **قال : يا قوم ، إنى لكم نذير مبين ، أن اعبدوا الله ، واتقوه ، وأطيعون** ﴾[5] .

وبين لهم أن طاعتهم لله سبحانه تمحو ما مضى من السيئات التى ارتكبوها .

﴿ **يغفر لكم من ذنوبكم ، ويؤخركم إلى أجل مسمى ، إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون** ﴾[6] .

واستمر نوح ـــ عليه السلام ـــ يدعو قومه إلى توحيد الله سبحانه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، قال تعالى :

﴿ **ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فأخذهم الطوفان ، وهم ظالمون** ﴾[7] .

وواصل دعوته الليل والنهار فى هذه المدة على طولها .

﴿ **قال : رب ، إنى دعوت قومى ليلًا ونهاراً** ﴾[8] .

فماذا كان من أمر هؤلاء القوم ؟ .

أعلن قومه الكفر بالدعوة ، وزعموا أن الرسول لا يكون بشراً ، وازدادوا تمسكا بما كان عليه آباؤهم من شرك ، قال الله تعالى :

﴿ **ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم : قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، والذين من بعدهم ، لا يعلمهم إلا الله ، جاءتهم رسلهم بالبينات ، فردُّوا أيديهم فى**

---

(٥) سورة نوح . الآيتان ٢ ، ٣ .

(٦) سورة نوح . الآية رقم ٤ .

(٧) سورة العنكبوت . الآية رقم ١٤ .

(٨) سورة نوح . الآية رقم ٥ .

أفواههم ، وقالوا : إنا كفرنا بما أرسلتم به ، وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب . قالت رسلهم : أفى الله شك ! فاطر السموات والأرض ؛ يدعوكم ؛ ليغفر لكم من ذنوبكم ، ويؤخركم إلى أجل مسمى . قالوا : إن أنتم إلا بشر مثلنا ، تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا ، فأتونا بسلطان مبين . قالت رسلهم : إن نحن إلا بشر مثلكم ، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ، وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ (٩) .

ووصل بهم الأمر أنهم اتهموه فى عقله بالجنون . قال تعالى :

﴿ كذبت قبلهم قوم نوح ، فكذبوا عبدنا ، وقالوا : مجنون وازدجر ، فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر ﴾(١٠) .

إنه قد دعا قومه ، ولم يسألهم أجراً مقابل هذا الجهد فى الدعوة ، وعلى الرغم من ذلك أنذروه هو وقومه من الفقراء بالطرد ، والرجم بالحجارة . قال عالى :

﴿ وما أسألكم عليه من أجر . إن أجرى إلا على رب العالمين ، فاتقوا الله ، وأطيعون . قالوا : أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ؟ قال : وما علمى بما كانوا يعملون ؟ إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون ، وما أنا بطارد المؤمنين ، إن أنا إلا نذير مبين . قالوا : لئن لم تنته يا نوح ، لتكونن من المرجومين ﴾(١١) .

وقد امتد تكذيب هؤلاء القوم ، وإنكارهم إلى يوم القيامة ، على الرغم من طول عهدهم به فى الدنيا ؛ فعن أبى سعيد الخدرى ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ــ ﷺ :

---

(٩) سورة إبراهيم ، الآيات ٩ ــ ١١ .
(١٠) سورة القمر ، الآيتان ٩ ، ١٠ .
(١١) سورة الشعراء ، الآيات ١٠٩ ــ ١١٦ .

« يجيء نوح وأمته فيقول الله تعالى : هل بلغت ؟ فيقول : إى ، رب . فيقول لأمته : هل بلغكم ؟ فيقولون : لا . ما جاءنا من نبى . فيقول لنوح : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد ـ ﷺ ـ وأمته ، فتشهد أنه قد بلغ ، وهو قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ﴾(١٢) والوسط العدل .

ولذا اعتبر تكذيبهم لنوح ـ عليه السلام ـ تكذيباً لجميع الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ قال تعالى :

﴿ كذبت قوم نوح المرسلين ﴾(١٣) .

وقال :

﴿ وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم ﴾(١٤) .

وقد دمغهم الله سبحانه مع التكذيب بالفسق ، والظلم والطغيان ، فقال :

﴿ إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾(١٥) ، ﴿ إنهم كانوا هم أظلم وأطغى ﴾(١٦) .

نوح ـ عليه السلام ـ يلجأ إلى ربه سبحانه :

وحين وصل الأمر إلى درجة فقدان الأمل فى إيمان القوم ، أو إيقاف شرهم عنه ، وعن أتباعه المؤمنين ، تضرع إلى الله سبحانه بالدعاء على هؤلاء القوم الفاسقين الظالمين ، الطاغين المتكبرين . قال الله تعالى :

﴿ ونوحاً إذ نادى من قبل فاستجبنا له ، فنجيناه وأهله من الكرب

---

(١٢) أخرجه البخارى . كتاب الأنبياء ، ج ٤ ص ١٦٣ ، الباب السابق .
(١٣) سورة الشعراء ، الآية رقم ١٠٥ .
(١٤) سورة الفرقان ، الآية رقم ٣٧ .
(١٥) سورة الذاريات ، الآية رقم ٤٦ .
(١٦) سورة النجم ، الآية رقم ٥٢ .

العظيم ، ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا؛ إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين ﴾[١٧] .

وإذا كان نوح ـــ عليه السلام ـــ قد طلب إلى قومه الإجابة ، فلم يجيبوه ، على الرغم من طول دعوتهم ، فقد طمأن الله سبحانه نوحاً ـــ عليه السلام ـــ بأنه قد بلغ ، وأدى الأمانة التى كلف إياها ، وأنه سبحانه عليم به ، وحسبه أن قد أعذر إلى ربه الكريم ، قال تعالى :

﴿ ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون ، ونجيناه وأهله من الكرب العظيم ، وجعلنا ذريته هم الباقين ، وتركنا عليه فى الآخرين سلام على نوح فى العالمين ، إنا كذلك نجزى المحسنين ؛ إنه من عبادنا المؤمنين ﴾[١٨] .

وقدم نوح ـــ عليه السلام ـــ إلى ربه سبحانه كشف أعماله ، ورَدّ قومه له ، وهو العليم بما صنع . كيف دعا ؟ وكيف ثابر ، ووصل الليل بالنهار ، أملاً فى هدايتهم ؟ وكيف قام بتجربة السرية والعلنية فى الدعوة ؟ ولكنهم أمام هذا كله أصروا على الكفر ، ووضعوا أصابعهم فى آذانهم ؛ حتى لا يصل إليها أى صوت من رسولهم ، وتواصوا بالإقامة على عبادة أصنامهم. فكان حريا بنوح ـــ عليه السلام ـــ استنزال عقاب الله سبحانه ، قال تعالى :

﴿ قال : رب ، إنى دعوت قومى ليلاً ونهاراً ، فلم يزدهم دعائى إلا فراراً ، وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم ، واستغشوا ثيابهم ، وأصروا واستكبروا استكباراً ، ثم إنى دعوتهم جهاراً ، ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً ، فقلت : استغفروا ربكم ؛ إنه كان غفارا ؛ يرسل السماء عليكم مدراراً .. ﴾[١٩] .

وأعلن نوح ـــ عليه السلام ـــ عصيان قومه ، واستحقاقهم الهلاك . قال تعالى :

---

(١٧) سورة الأنبياء ، الآيتان ٧٦ ، ٧٧ .
(١٨) سورة الصافات ، الآيات ٧٥ ـــ ٨١ .
(١٩) سورة نوح ، الآيات ٥ ـــ ١١ .

﴿ قال نوح : رب ، إنهم عصونى ، واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً ﴾[٢٠] .

وقال :

﴿ وقال نوح : رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ؛ إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ، ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ﴾[٢١] .

وبقى لنوح ــ عليه السلام ــ أن يطلب المغفرة لنفسه ، ولمن آمن معه ؛ تحقيقاً لمعنى العبودية لله سبحانه ، قال تعالى :

﴿ رب ، اغفر لى ولوالدى ، ولمن دخل بيتى مؤمناً ، وللمؤمنين ، والمؤمنات ، ولا تزدِ الظالمين إلا تباراً ﴾[٢٢] .

كما طلب النجاة له ، ولقومه المؤمنين ، قال تعالى :

﴿ فافتح بينى وبينهم فتحا ، ونجنى ومن معى من المؤمنين ﴾[٢٣] .

تحدى القوم له :

طلب قوم نوح ــ عليه السلام ــ إنزال العذاب الذي توعدهم به ؛ زيادة في السخرية برسولهم . قال تعالى :

﴿ قالوا : يا نوح ، قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ، فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾[٢٤] .

ورموه بالكذب فى هذه الدعوة ، وأنه قد افترى عليهم **﴿ وما نرى لكم علينا من فضل ، بل نظنكم كاذبين ﴾**[٢٥] . **﴿ أم يقولون افتراه ، قل : إن**

---

(٢٠) سورة نوح ، الآية رقم ٢١ .

(٢١) سورة نوح ، الآيتان ٢٦ ، ٢٧ .

(٢٢) سورة نوح ، الآية رقم ٢٨ .

(٢٣) سورة الشعراء ، الآية رقم ١١٨ .

(٢٤) سورة هود ، الآية رقم ٣٢ .

(٢٥) سورة هود ، الآية رقم ٢٧ .

افتريته فعلى إجرامى ، وأنا برىء مما تجرمون ﴾[٢٦] .

وأعلنوا لقومهم جميعاً فى تبجح : **﴿ لا تذرن آلهتكم ، ولا تذرن ودًّا ، ولا سواعاً ، ولا يغوث ويعوق ، ونسراً ﴾**[٢٧] .

نوح ـــ عليه السلام ـــ وزوجته ، وابنه :

إن هدى الله سبحانه نور يضعه فى قلوب من يشاء من عباده ، وكل نفس بما كسبت رهينة؛ رهينة بما كسبت من إيمان وعمل ، وعلاقة سليمة . قال الله تعالى :

﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾[٢٨] .

فإذا ما أصر قريب نسباً على الكفر انفصمت عرى القرابة ، وبقيت عرى الإيمان وثيقة مع البعيد فى النسب ، وضرب المثل فى ذلك بنوح ـــ عليه السلام ـــ مع زوجته . قال تعالى :

﴿ ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح ، وامرأة لوط ؛ كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما ، فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً ، وقيل : ادخلا النار مع الداخلين ﴾[٢٩] .

وتمنى نوح ـــ عليه السلام ـــ أن يكون ابنه ضمن المؤمنين الناجين من عذاب الله تعالى . قال سبحانه :

﴿ ونادى نوح ابنه ، وكان فى معزل : يا بنى ، اركب معنا ، ولا تكن

---

(٢٦) سورة هود ، الآية رقم ٣٥ .

(٢٧) سورة نوح ، الآية رقم ٢٣ .

(٢٨) سورة الحجرات ، الآية رقم ١٠ .

(٢٩) سورة التحريم . الآية رقم ١٠ ، والخيانة المرادة هنا والله أعلم ، لا يقصد بها الفحشاء والزنا ، فبيوت الأنبياء مبرأة من ذلك ، وإنما يراد بها الخيانة فى إفشاء الأسرار ، وعدم الإيمان بالله سبحانه .

مع الكافرين . قال : سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء . قال : لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ﴾(٣٠) .

وحين فكر نوح ـــ عليه السلام ـــ بشأن ابنه بدافع الأبوة ، أيقظه الله سبحانه على الحق .

﴿ قال : يا نوح ، إنه ليس من أهلك ، إنه عمل غير صالح ، فلا تسألن ما ليس لك به علم ؛ إنى أعظك أن تكون من الجاهلين ﴾(٣١) .

نوح ـــ عليه السلام ـــ والطوفان :

وقضى الأمر بشأن قوم نوح ـــ عليه السلام ـــ واستحقوا إنزال العقاب عليهم(٣٢) .

فماذا كان من أمرهم ؟ .

طلب الله سبحانه إلى نوح ـــ عليه السلام ـــ أن يصنع سفينة . وكان عليه أن ينفذ أمر ربه سبحانه ، مهما كان من سخرية القوم منه ، وبعد اكتمالها كلف أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين ، ومن اتبعه من المؤمنين ، وتجمع بالسفينة نماذج للحياة التى تبدأ المسيرة من جديد . وكان الطوفان من المياه من كل جانب ، ولم يرتفع على سطح المياه إلا سفينة نوح ـــ عليه السلام ـــ بمن فيها وما فيها . وغطى الطوفان وجه الأرض ، واعتلى قمم الجبال ، ونزل وعيد الله سبحانه لمن عصى من قوم نوح ـــ عليه السلام ـــ حتى الابن ، والزوجة . قال الله تعالى :

﴿ مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً ، فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً ﴾(٣٣) .

---

(٣٠) سورة هود . الآيتان ٤٢ ، ٤٣ .

(٣١) سورة هود . الآية رقم ٤٦ .

(٣٢) تنوعت صور العقاب للأمم السابقة ؛ إما أن يكون كل عقاب مناسباً لكل أمة نزل بها ، وإما يكون للدلالة على قدرة الله سبحانه . والله أعلم .

(٣٣) سورة نوح . الآية رقم ٢٥ .

ونفذ أمر الله سبحانه .

﴿ وقيل : يا أرض ، ابلعى ماءك ، ويا سماء أقلعى ، وغيض الماء ، وقضى الأمر ، واستوت على الجودى ، وقيل : بعداً للقوم الظالمين ﴾(٣٤) .

إنذار نوح ــ عليه السلام ــ قومه من الدجال :

على الرغم من العناد الذى لاقاه نوح ــ عليه السلام ــ من قومه ، وإصرارهم على الشرك ، وعبادة الأصنام ، كما عبدها آباؤهم ، وأجدادهم . على الرغم من ذلك ، فقد أكمل ما كلفه الله سبحانه إياه ، وأنذرهم من المسيح الدجال .

قال ابن عمر(٣٥) ــ رضى الله عنهما ــ قام رسول الله ــ ﷺ ــ فى الناس ، فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم ذكر الدجال . فقال :

« إنى لأنذركموه ، وما من نبى إلا أنذر قومه . لقد أنذر نوح قومه ؛ ولكنى أقول لكم فيه قولا لم يقله نبى لقومه : تعلمون أنه أعور ، وأنّ الله ليس بأعور »(٣٦) .

ورواية أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ فيها :

---

(٣٤) سورة هود . الآية رقم ٤٤ .

(٣٥) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب - رضى الله عنهما - أسلم صغيراً بمكة ، وأول مشاهده الخندق ، وعمّر طويلا ، وروى عنه خلائق ، كان من أوعية العلم ، وكانت وفاته بمكة سنة ٧٣ من الهجرة ، ودفن بذي طوى فى مقبرة المهاجرين . قال فى شأنه النبى ــ ﷺ : « **نعم الرجل عبد الله** » قال سالم (أحد الرواة) : فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلا . أخرجه الشيخان . اللؤلؤ والمرجان رقم ١٦١١ مختصر مسلم رقم ١٦٩١ .

(٣٦) أخرجه الشيخان . اللؤلؤ والمرجان رقم ١٨٥٤ ، واللفظ للبخارى . كتاب الأنبياء . باب قول الله تعالى : ﴿ **إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه** ﴾ ج ٤ ص ١٦٢ ، ١٦٣ .

« وإنه يجيء معه بمثال الجنة والنار . فالتى يقول : إنها الجنة ، هى النار ، وإنى أنذركم كما أنذر به نوح قومه »(٣٧) .

دروس وعبر :

ـــ اتباع الرسل ـــ عليهم الصلاة والسلام ـــ يجنب البشر من الشر والعذاب فى الدنيا والآخرة ، وأن الدعوات السماوية جاءت لخير البشرية وإسعادها .

ـــ الداعية المسلم واضح الدعوة للناس ؛ يقدمها لهم دون تعقيد ، ويعتمد أول ما يعتمد على العقيدة الموحِّدة لله سبحانه وتعالى ، وإن المنكرين يرفضون الاستماع ولا يفكرون ، ويرضون بالتقليد لما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم وتقاليدهم ، وعاداتهم .

ـــ الداعية المسلم يتعامل مع الله تعالى فى دعوته للناس ؛ فلا يأس ولا ملل . بل مثابرة واطمئناناً ، يواصل بالليل والنهار فى السر والجهر ، ويبذل كل ما يستطيع أن يبذله من جهد ، دون مقابل مادّى من قومه .

ـــ على الداعية أن يتوقع من قومه الإيذاء ، والاتهام من كل جانب له ، ولمن اتبعه من المؤمنين ، على الرغم من تقديم البينات على صدق الدعوة .

ـــ من أنواع الإيذاء :

ما يكون نفسيا : بالاتهام بالجنون ، والخبل فى التفكير ، والطرد من الوطن .

وما يكون اجتماعيا : برمى من اتبع الهدى بالتحقير ، والتهوين من شأنه بين الناس .

وما يكون ماديا : بالعقوبة والضرب بالحجارة .

---

(٣٧) المصدر السابق رقم ١٨٥٧ وفى البخارى ج ٤ ص ١٦٣ .

ــ إن المسلم يجب أن يؤمن بكل الرسل ــ عليهم الصلاة والسلام ــ وإن الكفر بواحد منهم كفر بالجميع .

ــ إن الداعية يتقوى بالتوكل على الله سبحانه ، وإن البقاء للأصلح : ومن يحسن فى عمله .

ــ إن الإيمان بالمنهج السماوى يحقق الخير فى الأرض من أموال وبنين ، بالإضافة إلى دخول الجنة في الآخرة .

ــ إذا ما بذل فى الدعوة كل ما من شأنه أن يبذل ، فإن من الجائز شرعاً استنزال العقاب ؛ لتكون العظة للأجيال اللاحقة .

ــ لا يفت فى عضد الداعية أن يخالفه أقرب الناس إليه من زوجة وولد ، فالدعوة الإسلامية ليست وراثية ، ولا يعيبه أيضاً أن يخالفه الأقربون ؛ فكل نفس بما كسبت رهينة .

ــ لا تطلب النجاة لكافر مهما كانت قرابته ، ولا يتوسط له لوظيفة دنيوية لها تأثير دينى ؛ لما فى ذلك من اتساع دائرة الضرر على المسلمين ، والأمة المسلمة .

ــ على الداعية المسلم أن يحافظ على كل ما تمتد به الحياة وتنمو من نبات ودواب ، وإنسان .

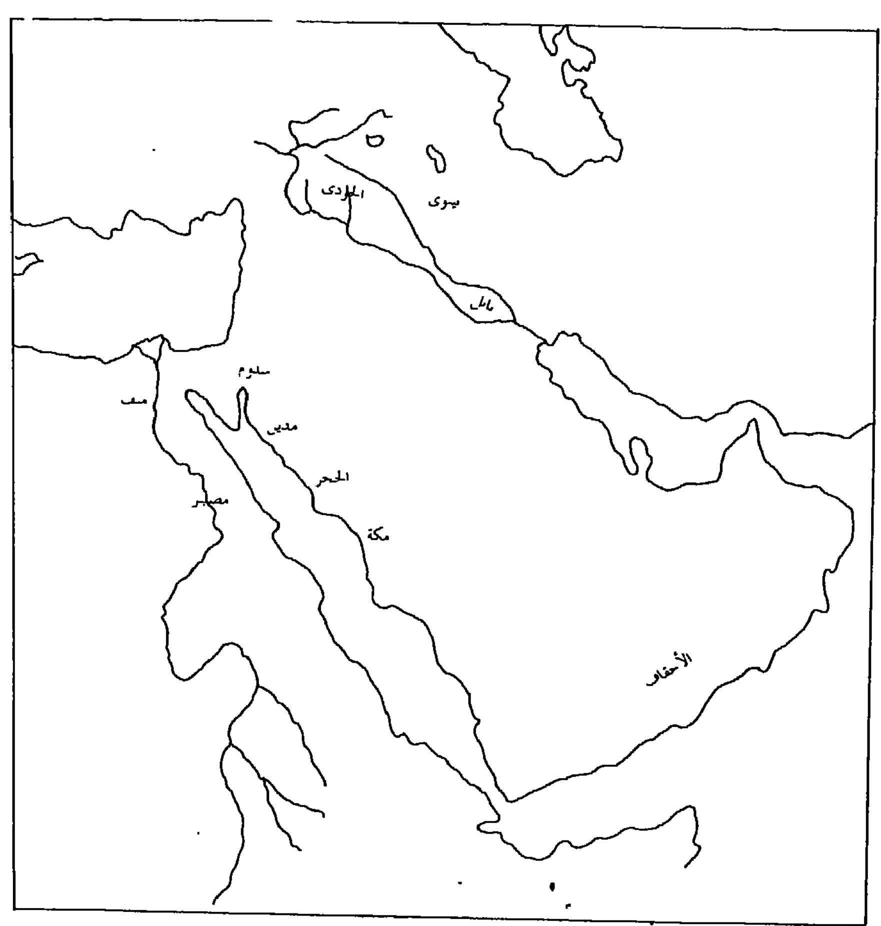
ــ إن الرجال يقاسون بالدعوة ، ولا تقاس الدعوة بالناس . وإن العرف يحكم عليه ولا يحتكم إليه . فلا يغتر بشخص كالدجال وإن ظهرت على يديه ما يخيل للمرء أنها من الخوارق ، والعبرة بالموافقة لمنهج الله سبحانه .

قال الشافعى ، والليث ــ رحمهما الله :

لو رأيتم الرجل يمشى على الماء ، ويطير فى الهواء ، فلا تغتروا به ؛ حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة .

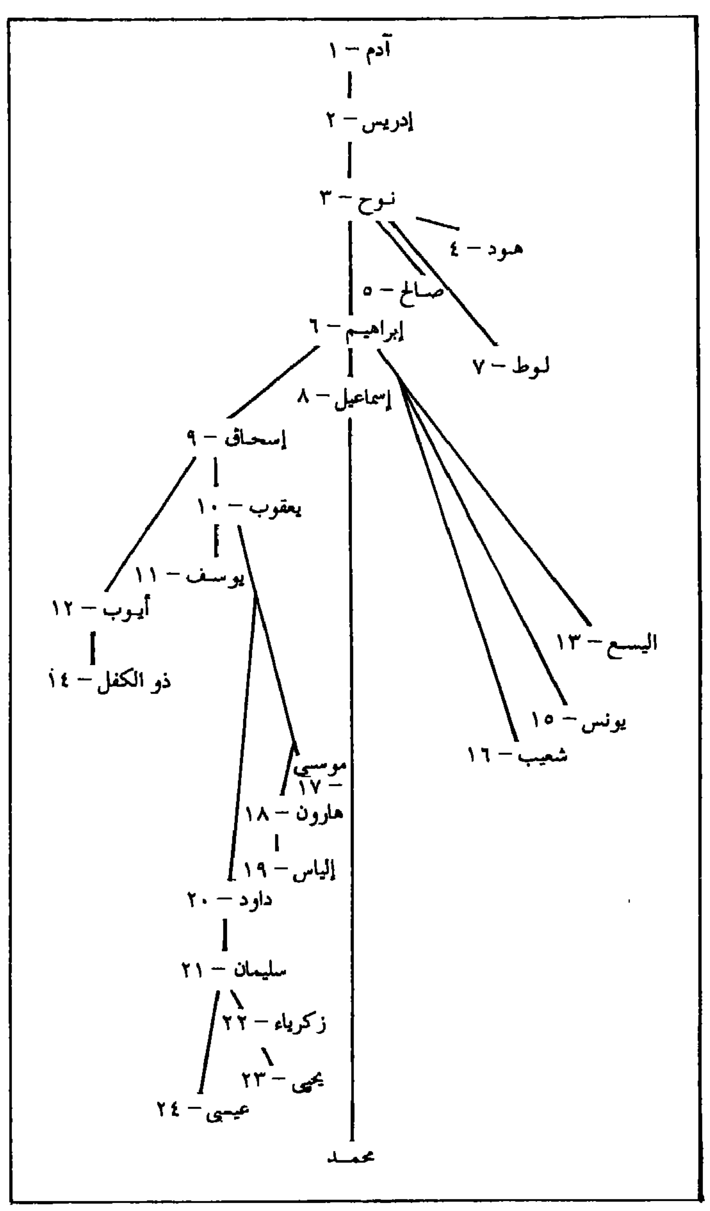
ــ أيا كان الشخص فى مركز أدبى ، أو مادى ، أو اجتماعى ، فلا قيمة لمثل هذه المراكز إذا ما فقد الأساس الإيمانى الصحيح .

— كما أن المسلم فى تحيته لإخوانه يجب عليه ألا يدخل هذه المراكز بالتمييز بينهم ؛ لما فى ذلك من المفسدة ما فيه .



خريطة تبيّن بعض الأماكن التاريخية القديمة

روجعت على خريطة قديمة موجودة بقسم الجغرافيا - جامعة الكويت



شجرة الأنبياء والرسل - عليهم الصلاة والسلام

هود ــ عليه السلام

ــ قبيلة عاد .
ــ أين كانت تسكن قبيلة عاد الأولى ؟
ــ هود ــ عليه السلام ــ يدعو قومه .
ــ موقف عاد من دعوة نبيهم .
ــ إهلاك عاد .
ــ نجاة هود ــ عليه السلام ــ ومن آمن معه .
ــ دروس وعبر .

قبيلة عاد :

يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد ، التى لم يُخلق مثلها فى البلاد ﴾ (١) .

فماذا من شأن هذه القبيلة حتى يوصفوا بهذا الوصف ؟

قبيلة عاد المتحدث عنها هنا هى عاد الأولى ، من أحفاد نوح ــ عليه السلام ــ ، وهى عاد إرم . كانت لها البيوت من الشعر المرتفعة بالأعمدة الطويلة ، كان لأبنائها البسطة والاعتدال فى الجسم ، ولكنهم استغلوا هذه القوة فى الإفساد بالأرض ، قال الله تعالى :

﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ، وزادكم فى الخلق بسطة ، فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ﴾ (٢) .

وحسبوا أن هذه القوة من صنعهم ، وما دروا أن الله سبحانه هو الذى أنعم عليهم بها اختباراً وابتلاءً ، فاستكبروا على غيرهم ، وأعلنوا ذلك ، قال تعالى:

﴿ فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق ، وقالوا : من أشد منا قوة ، أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ﴾ (٣) .

وقال أيضاً فى مَعْرِض استجابتهم لدعوة رسولهم :-

﴿ ويزدكم قوة إلى قوتكم ﴾ (٤) .

وكانت لهم القدرة على إقامة البنيان ، واختيار الأماكن المرتفعة الظاهرة لمن يمر ، ولم يكن البنيان على هذا الشكل ضرورة لحياتهم ، بل عبثاً ، وبطرا ، واعتداءً على الآخرين ، كما استطاعوا إقامة مصانع للادخار والحفظ ، وكانت لهم

---

(١) سورة الفجر ، الآيات ٦ - ٨ . (٢) سورة الأعراف ، الآية رقم ٦٩ .
(٣) سورة فصلت ، الآية رقم ١٥ . (٤) سورة هود ، الآية رقم ٥٢ .

ثروة حيوانية ، وثروة زراعية ، وطاقة بشرية تدير المصانع ، وتشرف على تنمية الثروات بأنواعها . ولكنهم لم يضعوا النعمة موضعها ، قال الله تعالى :

﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ، وإذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جبارين ، فاتقوا الله وأطيعون ، واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون ، أمدكم بأنعام وبنين ، وجنات وعيون ﴾ (٥) .

أين كانت تسكن عاد الأولى ؟ .

كانت تقيم عاد الأولى بالأحقاف ، وذلك على وجه اليقين ، لقول الله تعالى :

﴿ واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف ... ﴾ (٦) .

أى الذين يسكنون بالأحقاف ، أى الجبال ، وما فيها من مغارات ، وتدل الآيات القرآنية على قرب الأحقاف من قريش المطلوب إليها أن تعتبر ، وتتعظ ، فقد قال الله تعالى :

﴿ ألم تر كيف فَعَلَ ربك بعاد ﴾ (٧) .

وقال :

﴿ وعاداً وثمود ، وقد تبين لكم من مساكنهم ﴾ (٨) .

وقال :

﴿ فأصبحوا لا يُرى إلا مساكنهم ﴾ (٩) .

---

(٥) سورة الشعراء ، الآيات ١٢٨ - ١٣٤ .

(٦) سورة الأحقاف الآية ٢١ ، والأحقاف جمع حقف وهو الجبل من الرمل ، أو الجبل والغار .

(٧) سورة الفجر ، الآية ٦ . (٨) سورة العنكبوت ، الآية رقم ٣٨ .

(٩) سورة الأحقاف ، الآية رقم ٢٥ .

وفى ضوء هذه الآيات ، وغيرها ذُكرت آراء تدل على أن الأحقاف فى جنوب الجزيرة العربية شمالى حضرموت .

هود ـــ عليه السلام ـــ يدعو قومه :

تبدأ دعوة كل رسول قومه بإقرار الوحدانية للخالق سبحانه ، والواهب للنعم الكثيرة ، فلا يليق بالإنسان أن يكون عبداً لمخلوق مثله ، بل يكون الجميع عبيداً لله سبحانه ، وفى الآيات التى تتحدث عن هود ـــ عليه السلام ـــ وقبيلة عاد الأولى تتضمن الدعوة إلى توحيد الله سبحانه قال الله تعالى :

﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً ، قال : يا قوم ، اعبدوا الله ، ما لكم من إله غيره ، أفلا تتقون ؟! ﴾ (١٠) .

وقال :

﴿ إذ قال لهم هود : ألا تتقون ؟! ﴾ (١١) .

وهود ـــ عليه السلام ـــ إذ يدعوهم ، ويلح عليهم أن تكون عبادتهم صحيحة ، يكمل الوجه الآخر للدعوة بالتحذير من مغبة الشرك ، قال تعالى :

﴿ واذكر أخا عاد ، إذ أنذر قومه بالأحقاف ﴾ (١٢) .

وبذل لقومه من وسائل الترغيب من كل جانب ؛ فيؤكد لهم أنه ناصح أمين فى دعوته ، ولا يطلب عليها أجراً ؛ وهذا دليل مادى على أمانته ، كما يوضح خوفه عليهم من عذاب يوم عظيم . وهو إذ يبين هذه الجوانب ينبههم أيضاً إلى أن ما أوتوا من نعم هى من الخالق سبحانه ، المستحق للعبادة دون غيره ، قال تعالى على لسانه :

---

(١٠) سورة الأعراف ، الآية رقم ٦٥ ، وسورة هود ، الآية رقم ٥٠ .
(١١) سورة الشعراء ، الآية رقم ١٢٤ . (١٢) سورة الأحقاف ، الآية رقم ٢١ .

﴿ **إنى لكم رسول أمين ، فاتقوا الله ، وأطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر ، إن أجرى إلا على رب العالمين** ﴾ (١٣) .

وقـال :

﴿ **إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم** ﴾ (١٤) .

موقف عاد من دعوة نبيهم :

على الرغم من وضوح الدعوة وبساطتها ، وموافقتها للمنطق والعقل ، والفطرة السوية . وقفت عاد فى وجه هذه الدعوة ، وألغت عقولها ، وتفكيرها ، ورضيت أن تكون امتداداً للباطل الذى كان عليه الآباء والأجداد ، وهذا داء كل الأمم ، داء التقليد لما ورثوه من باطل دون أن يُناقش وينقى ، قال الله تعالى على لسانهم :

﴿ **قالوا : أجئتنا لنعبد الله وحده ، ونذر ما كان يعبد آباؤنا . فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين** ﴾ (١٥)

وازدادوا إصراراً وجحوداً .

﴿ **وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم** ﴾ (١٦) .

وبدءوا اتهام رسولهم فى عقله ، وكأنه أُصيب بمس من آلهتهم :

﴿ **إن نقول : إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء** ﴾ (١٧) .

واعتبر التمادى فى هذا الشرك تكذيباً لهود ، وكل الرسل ــ عليهم السلام ــ بناء على قاعدة وحدة الدعوة ، قال تعالى :

---

(١٣) سورة الشعراء ، الآيات من ١٢٥ إلى ١٢٧ .

(١٤) سورة الشعراء ، الآية رقم ١٣٥ . (١٥) سورة الأعراف ، الآية رقم ٧٠ .

(١٦) سورة هود ، الآية رقم ٥٩ . (١٧) سورة هود ، الآية رقم ٥٤ .

﴿ كذبت عاد المرسلين ﴾ [١٨] .

كما اعتبر أيضاً تكذيباً لما أنذرهم وأوعدهم من عذاب :

﴿ كذبت ثمود وعاد بالقارعة ﴾ [١٩] .

إهلاك عاد :

إن أشد شيء على النفس البشرية أن يأتى هلاك مما ظن وتوهم أنه خير وحياة . هذا ما حدث لعاد ؛ رأوا سحاباً على البعد ، انتظروا منه ماءً يُنبت الأرض ، ويسقى الحرث والنسل ، ويبعث على الحياة فى أرضهم ، وفى أنفسهم كالعهد بالغيث ، ولكنه لم يكن غيثاً بل مطراً ، فالغيث إغاثة وخير ، عكسه المطر ؛ إنهم قد خابوا فألاً ورجاءً ؛ لأنهم لم يشكروا الخالق الوهاب ، ولم يوحدوه بالعبادة ؛ قال تعالى :

﴿ فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم ، قالوا : هذا عارض ممطرنا ، بل هو ما استعجلتم به ، ريح فيها عذاب أليم ، تدمر كل شيء بأمر ربها ، فأصبحوا لا يُرى إلا مساكنهم ؛ كذلك نجزى المجرمين ﴾ [٢٠] .

وجمعت هذه الريح كل صفات التدمير ، فهى ريح عقيم ليس من ورائها خير ، قال تعالى واصفاً إياها :

﴿ صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ [٢١] .

﴿ وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ﴾ [٢٢] .

﴿ كذبت ثمود وعاد بالقارعة ﴾ [١٩] .

---

(١٨) سورة الشعراء ، الآية رقم ١٢٣ . (١٩) سورة الحاقة ، الآية رقم ٤ .

(٢٠) سورة الأحقاف ، الآيتان ٢٤ ، ٢٥ . (٢١) سورة فصلت ، الآية رقم ١٣ .

(٢٢) سورة الذاريات ، الآية رقم ٤١ .

﴿ وأما عاد فأُهلكوا بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال ، وثمانية أيام حسوماً ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية ؟ ﴾ (٢٣) .

وأذاقهم الله عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشد وأخزى وهم لا يُنصرون .

عن ابن عباس (٢٤)ـــ رضى الله عنهما ـــ عن النبى ـــ ﷺ :

« **نُصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور** » (٢٥) .

نجاة هود ـــ عليه السلام ـــ ومن آمن معه :

ويكتمل الدرس ؛ فتلك الريح تميز بين نوعين من البشر ، يعيشان فى بقعة

---

(٢٣) سورة الحاقة ، الآيات من ٦ إلى ٨ .

(٢٤) هو حيث أطلق بحر الأمة ، وحبرها عبد الله بن العباس ، ولد قبل الهجرة بثلاث سنين ، وشهرة إمامته فى العلم ببركات الدعوة النبوية بالحكمة ، والفقه فى الدين ، والتأويل تُغنى عن التعريف به ، كانت وفاته بالطائف سنة ثمان وستين فى آخر أيام ابن الزبير بعد أن كُف بصره .

أخرج الشيخان عنه ، أن النبى – ﷺ – دخل الخلاء ، فوضعتُ (بتاء المتكلم وهو ابن عباس) له وَضوءاً (بفتح الواو وهو الماء الذى يُتوضأ به ، وأما الذى بضم الواو فهو عمل الوضوء لا ماء الوضوء) ، قال : (أى النبى ـــ ﷺ ـــ) : « **من وضع هذا ؟** » فأُخبر (أى بمن وضع هذا الماء وهو ابن عباس) ، فقال : « **اللهم فقهه فى الدين** » اللؤلؤ والمرجان رقم ١٦١٠ وفى إحدى روايات صحيح مسلم أن الذى أخبر بمن وضع الماء هو أبو بكر ـــ رضى الله عنه ـــ المختصر رقم ١٦٩٠ .

(٢٥) صحيح البخارى ، كتاب الأنبياء جـ ٤ ص ١٦٦ ، صحيح مسلم ، المختصر رقم ٤٥٠ ، واللؤلؤ والمرجان رقم ٥١٩ ، بهامشه : « **نُصرت بالصبا** » وهى الريح التى يكون مهبها من مشرق الشمس ، ونصرته عليه الصلاة والسلام بالصبا كانت يوم الأحزاب ، والدبور هى الريح العقيم التى أهلكت عاداً وقطعت دابرهم .

واحدة ، نوع يدمر ، ويهلك ، ونوع آخر لا يصيبه أى سوء .

قال الله تعالى :

﴿ فأنجيناه والذين معه برحمة منا ، وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا ، وما كانوا مؤمنين ﴾ (٢٦) .

وبقيت القصة على مدار التاريخ ذكرى وعظة . من أعمل عقله ، وفكره كانت له نوراً يهديه إلى الإيمان بالله تعالى ، وتوحيده بالعبادة ؛ولذا أمر النبى – ﷺ – بأن يذكر قريشاً بتلك العظات السابقة .

قال تعالى :

﴿ واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف ، وقد خلت النذر من بين يديه ، ومن خلفه ، ألا تعبدوا إلا الله ؛ إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ (٢٧) .

فهل استفادت قريش ، ومن على شاكلتها من قصص الأنبياء ـــ عليهم السلام ـــ وأحداث أقوامهم ؟! .

---

(٢٦) سورة الأعراف ، الآية رقم ٧٢ .

(٢٧) سورة الأحقاف ، الآية رقم ٢١ .

دروس وعبر :

ـــ التقدم المادى ؛ العمرانى ، والصناعى ، له جذوره فى الأحقاب الماضية ؛ فقبيلة عاد الأولى ، التى كانت تسكن بجنوب الجزيرة العربية ، امتلكت قوة فى الجسم ، والبناء المرتفع على قمم مرتفعة ، والمصانع للادخار والحفظ ، والثروة الحيوانية والزراعية ، والطاقة البشرية .

ـــ ولم يكن ارتباط بين التقدم المادى هذا ، والفكر السائد لدى قوم عاد ، فقد كان التخلف الفكرى ، والرضا بتقليد الآباء والأجداد ، ولم تسعفهم الحضارة المادية فى تشغيل عقولهم إلا فى المزيد من الماديات ، وازدادوا طغياناً وكفراً وجحوداً .

ـــ الحضارة المادية مهما اتسعت دائرتها ، وتنوعت مجالاتها ، وأخذت الأرض بها زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، مهما كانت نتائجها من ضخامة وفن ، وفكر ، إذا لم يُدعم هذه الحضارة إيمان بواهب هذه الحضارة ، والهادى إليها ستكون إلى بوار وهلاك ، وفى تاريخ قوم عاد عبرة وعظة ، وما يذكر إلا أولو الألباب .

ـــ الداعية المسلم يتوجه فى دعوته إلى الرصيد الضخم من قصص الأنبياء ـــ عليهم الصلاة والسلام ـــ فينهل منها ، ويذكر بها ، فالتجربة التى تمت أحداثها على مسرح الحياة أبلغ أثراً فى النفس من غيرها .

ـــ المسلم فى سيره فى الأرض يتأمل ، وينظر إلى ما طُبع على الأرض من أحداث السابقين ، ويضيف ما استفاده بالمشاهدة إلى ما استفاده من الاستماع .

ـــ إن الأمة المسلمة مأمورة شرعاً بإعداد الأكفاء فى التنقيب عن الآثار للأمم السابقة ، والتأمل فيها بالدراسة والمقارنة والبحث ، ولذا كان الأمر فى القرآن الكريم للجماعة وليس للفرد قال تعالى :

﴿ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض ، فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ (آل عمران ، ١٣٧) وقال أيضاً :

﴿ **قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق** ﴾ (العنكبوت ٢٠)

ـــ أساس الدعوة إلى الله سبحانه توحيده ، وعلى الداعية أن يكون بعيداً عن مواطن الريبة والشك ، ولابد أن يُعرف بين قومه بأنه ناصح أمين ، لا يحقق ربحاً مادياً على دعوته ، ولا يجعلها سلعة تجارية فى سوق الدعوات الأخرى .

ـــ من طبع الجاهليين المعادين اتهام من يريد إنقاذهم بالجنون ، وعلى الداعية أن يوطن نفسه لتلقى مثل هذه التهمة ، مع حرصه فى الوقت نفسه على البعد عن مواطن الشبهة . ولا ييأس حين يُفاجأ بالاتهام زوراً وبهتاناً .

ـــ المسلم يؤمن بجميع الرسل والأنبياء ـــ عليهم الصلاة والسلام ؛ لأنهم جميعاً رسل الله سبحانه ، ويدعون إلى حقيقة إيمانية واحدة هى توحيد الله ونبذ الشرك .

ـــ على الداعية المسلم أن يوقن بأن العاقبة للمتقين ؛ عزة فى الدنيا فليس عبداً لمخلوق ، ثم فوزاً عظيماً فى الآخرة ، ويختار الله سبحانه على درب المسيرة شهداء .

ـــ يُختار الداعية من بين القوم ، ليكون معلوم السيرة الحميدة قبل الدعوة ، ويكون التأثير المرجو أقرب إلى التحقيق ﴿ **أخا عاد إذ أنذر قومه** ﴾ ﴿ **وإلى عاد أخاهم هوداً** ﴾ .

ـــ إن الآفة الفكرية التى تصيب البشرية على مدى الأحقاب هى الشرك والتقليد للآباء والأجداد ، وإن الشيطان يأتى للمرء بتبريرات وتعليلات ، ويزين الآفة على أنها صواب .

صالح ـ عليه السلام

ـ قبيلة ثمود .
ـ موطن ثمود .
ـ صالح ـ عليه السلام ـ يدعو قومه .
ـ موقف ثمود من دعوة نبيهم .
ـ سوء العاقبة .
ـ دروس ، وعبر .

قبيلة ثمود :

يقول الله تعالى على لسان صالح ــ عليه السلام ــ مخاطباً قومه :

﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ، وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصوراً ، وتنحتون الجبال بيوتاً ، فاذكروا آلاء الله ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾ (١) .

وقال أيضاً :

﴿ هو أنشأكم من الأرض ، واستعمركم فيها ﴾ (٢) .

وقال :

﴿ فى جنات وعيون ، وزروع ونخل طلعها هضيم ، وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين ﴾ (٣) .

تحدد الآيات الكريمة السابقة الملامح المميزة لقبيلة ثمود .

فأهلها جاءوا بعد تجربة سابقة فى قبيلة عاد الأولى ، وكان عليهم أن يستفيدوا من هذه التجربة فيسرعوا إلى الإيمان ، والنجاة ، وأنهم قد تمكنوا من موطنهم ، واستقروا فيه .

وأنه قد تحققت لهم فى هذا الموطن حضارة مادية ؛

عمرانية ببناء القصور فى السهول .

أمْنيَّة بنحت الجبال ، واتخاذ مغاراتها بيوتاً أكثر أمناً .

زراعية حيث تفجرت العيون ، وانساب ماؤها بين الحدائق ذات البهجة والثمر .

---

(١) سورة الأعراف ، الآية رقم ٧٤ . (٢) سورة هود ، الآية رقم ٦١ .
(٣) سورة الشعراء ، الآيات ١٤٧ – ١٤٩ .

وتدل المظاهر على ما كان لقبيلة ثمود من حضارة مادية على الرغم من إيغالها فى التاريخ البشرى .

موطن ثمود :

عن ابن عمر — رضى الله عنهما — أن رسول الله — ﷺ — لما نزل الحجر فى غزوة تبوك ، أمرهم ألا يشربوا من بئرها ، ولا يستقوا منها ، فقالوا : قد عجنا منها واستقينا ، فأمرهم أن يطرحوا ذلك العجين ، ويهريقوا ذلك الماء .

وفى رواية أخرى :

أن الناس لما نزلوا مع رسول الله — ﷺ — أرض ثمود الحجر .. وأمرهم أن يستقوا من البئر التى كان تردها الناقة . (٤) .

ويفهم من الروايتين أن الحجر موطن ثمود ، وهذا ما أكده البخارى فى صحيحه (٥) ، وأن هذا المكان كان بالطريق إلى تبوك ، وأن الآثار كانت واضحة

---

(٤) أخرج الروايتين البخارى ، ومسلم ، وأحمد ، وابن هشام ، والدارقطنى ، واللفظ للبخارى ، كتاب الأنبياء ، باب قول الله تعالى : ﴿ **وإلى ثمود أخاهم صالحاً** ﴾ جـ ٤ ص ١٨١ .

(٥) البخارى هو الإمام القدوة فى فن رواية الحديث النبوى الشريف . محمد بن إسماعيل البخارى ، ولد فى شوال سنة ١٩٤ هـ ببلدة بخارى ، وهى إحدى بلاد ما وراء النهر شمالى سمرقند ، وتقع حالياً فى جمهورية أزبكستان السوفييتية ، وهى والجمهوريات الثلاث الأخرى : تركمانستان ، وطاجكسان ، وقرخيزية — على حدود الصين وأفغانستان ، وإيران — رفرف عليه علم الإسلام حقبة طويلة ناصعة من الدهر ، وأنتجت عباقرة أمثال البخارى ، وبها كثافة سكانية ، نفى الشيوعيون منهم الملايين إلى ثلوج سيبريا فى الشمال ليموتوا تحت التعذيب والجليد ، وليفصلوا عن أبنائهم الذين مسختهم يد الإلحاد الشيوعى ، وقد بدلوا أسماءهم .

طلب البخارى هذا الفن صغيراً ، ورد على بعض مشايخه غلطاً وهو فى إحدى عشرة سنة ، سمع الحديث ببلدة بخارى ، ثم رحل إلى عدة أماكن ، وسمع الكثير ، وألف الصحيح =

لهم ؛ حيث أمكن التمييز بين ماء وماء ، وأن الحكم الشرعى الذى أُعلن على لسان صالح — عليه السلام — ظل سارياً دون نسخ حتى زمن النبى — ﷺ .

صالح — عليه السلام — يدعو قومه :

رجل معروف لدى قومه ، ومن أبناء قبيلتهم ، فهو أخ لهم ، ومعلوم السيرة فيهم ، وغير منكر منهم ؛ إنهم يسمعون صوتاً طالما استمعوا إليه من قبل وأنسوا إليه وأحبوه ، ولكنهم يستمعون الآن إلى قضية جديدة .

دعاهم إلى عبادة الله وحده ، ونبذ عبادة الآلهة الباطلة ، وذكرهم بنعم الله سبحانه عليهم ، وأنهم صاروا خلفاء لمن نجا من عاد الأولى قبيلة هود — عليه السلام — التى كانت بالجنوب . (أما ثمود فكانت بالشمال الغربى من الجزيرة العربية قبل تبوك من جهة المدينة المنورة كما سبق فى روايتى البخارى السابقتين) .

ولأول مرة فى تاريخ الدعوات تسبق المعجزة العاقبة — كما يظهر من السير السابقة — آية على صدق دعوة النبى صالح — عليه السلام .

قال الله تعالى :

﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً ، قال : يا قوم ، اعبدوا الله ، ما لكم من إله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم ، هذه ناقة الله لكم آية ، فذروها تأكل فى أرض الله ، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب إليم ، واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ، وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصوراً ، وتنحتون الجبال

= منه من زهاء ٦٠٠,٠٠٠ حديث (ستمائة ألف حديث) ألفه بمكة ، وقال : ما أدخلت فيه إلا صحيحاً ، وله عدة كتب . أشهرها الجامع الصحيح ، وكانت وفاته بقرية سمرقند ليلة السبت ليلة عيد الفطر سنة ٢٥٦ هـ عن اثنتين وستين سنة ، ولم يُخلف ولداً ، رحمه الله رحمة واسعة . وتأكيده أن الحجر موطن ثمود فى الكتاب والباب السابقين فى رقم ٤ وقد فسر الحجر بقوله : الحجر موضع ثمود ، وكل ممنوع فهو حجر محجور ، والحجر : كل بناء بنيته ، وما حجرت عليه من الأرض فهو حجر .

بيوتاً ، فاذكروا آلاء الله ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾ (٦) .

وطلب إليهم أن يستغفروا الله سبحانه ، ويتوبوا إليه ، قال الله تعالى على لسانه :

﴿ واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه ؛ إن ربى رحيم ودود ﴾ (٧) .

إنه يتودد إليهم فى دعوته ، ويرفق بهم ، ويدعوهم إلى ما يصلح حياتهم :

﴿ إذ قال لهم أخوهم صالح : ألا تتقون ؟ إنى لكم رسول أمين ، فاتقوا الله ، وأطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر ، إن أجرى إلا على رب العالمين ﴾ (٨) .

وحذرهم من مغبة الإسراف ، والإفساد فى الأرض :

﴿ ولا تطيعوا أمر المسرفين ، الذين يُفسدون فى الأرض ولا يصلحون ﴾ (٩) .

موقف ثمود من دعوة نبيهم صالح ــ عليه السلام .

لم يكتف القوم بالإنكار على النبى صالح ــ عليه السلام ــ بل زعموا أنه ؛ هو ومن آمن معه مصدر شؤم لهم ــ والعياذ بالله ، قال تعالى على لسانهم :

﴿ قالوا : اطيرنا بك ، وبمن معك . قال : طائركم عند الله ، بل أنتم قوم تُفتنون ﴾ (١٠) .

كما اتهموه فى عقله ، وأنه مسحور ، وزعموا أن النبى لا ينبغى أن يكون

---

(٦) سورة الأعراف ، الآيتان : ٧٣ ، ٧٤ . (٧) سورة هود ، الآية رقم ٩٠ .
(٨) سورة الشعراء ، الآيات : ١٤٢ – ١٤٥ .
(٩) سورة الشعراء ، الآيتان : ١٥١ ، ١٥٢ .
(١٠) سورة النمل ، الآية رقم ٤٧ .

بشراً ، وأعطوا لأنفسهم ــ بالباطل ــ حق الاختيار للرسول :

﴿ قالوا : إنما أنت من المسحرين ، ما أنت إلا بشر مثلنا ، فأت بآية إن كنت من الصادقين . قال : هذه ناقة لها شرب ، ولكم شرب يوم معلوم ﴾ (١١) .

وأصابتهم الآفة الكبرى التى تُصيب البشرية فى كل مراحلها ، آفة التقليد ، منكرين على نبيهم خروجه على هذا التقليد .

﴿ قالوا : يا صالح ، قد كنت فينا مرجواً قبل هذا . أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ؟ وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب ﴾ (١٢) .

وقد تسلم زمام المواجهة المستكبرون منهم فتندروا بمن آمن ، وتحدوا الآية المعجزة ؛ فعقروا الناقة . قال الله تعالى :

﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استُضعفوا لمن آمن منهم : أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه ؟ قالوا : إنا بما أُرسل به مؤمنون . قال الذين استكبروا : إنا بالذى آمنتم به كافرون ، فعقروا الناقة ، وعتوا عن أمر ربهم ، وقالوا : يا صالح ، ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ﴾ (١٣) .

وانتدبوا لعقر الناقة رجلاً ذا عزة ومنعة ، وقوة فى قومه ، فتحمل جريرة ارتكاب هذا الجُرم ، وصار بذلك أشقى القوم ، قال تعالى :

﴿ إذ انبعث أشقاها ﴾ (١٤) .

عن عبد الله بن زمعة (١٥) ــ رضى الله عنه ــ قال : سمعت النبى ــ ﷺ ــ وذكر الذى عقر الناقة ، قال :

« انتدب لها رجل ذو عز ومنعة فى قومه كأبى زمعة » (١٦) .

---

(١١) سورة الشعراء ، الآيات ١٥٣ – ١٥٥ . (١٢) سورة هود ، الآية رقم ٦٢ .
(١٣) سورة الأعراف ، الآيات ٧٥ – ٧٧ . (١٤) سورة الشمس ، الآية رقم ١٢ .
(١٥) يشير الحديث الذى رواه إلى أنه كان قوياً فى جسمه ، عزيزاً بين أهله .
(١٦) أخرجه البخارى جـ ٤ ص ١٨١ .

سوء العاقبة :

وكانت النتيجة أن دمدم الله سبحانه عليهم ؛ بسبب ارتكاب هذا الذنب ، ذنب عقر الناقة المعجزة ، قمة التحدى منهم والكفر والعناد لما طلب إليهم نبيهم صالح — عليه السلام — من عبادة الله وحده ، ونبذ عبادة الأوثان ، والاعتدال فى الإنفاق ، والإصلاح فى الأرض . قال الله تعالى :

﴿ فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ﴾ (١٧) .

واعتبر تكذيبهم لنبيهم صالح — عليه السلام — تكذيباً لجميع المرسلين ، وهذا الأمر تكرر سابقاً ، وسيتكرر لاحقاً ، وذلك لأن الدعوة إلى الله سبحانه تقوم أساساً على التوحيد وبقية أركان الإيمان .

قال الله تعالى :

﴿ كذبت ثمود المرسلين ﴾ (١٨) .

وظلت ثمود درساً قاسياً على مدى التاريخ .

فعن ابن عمر — رضى الله عنهما — قال : قال رسول الله — ﷺ — :

« لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم ، إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابهم » .

وفى رواية أخرى ، زيادة « **ولما مر بالحجر قال** » وفى ختامها « **ثم تقنع** — أى النبى — ﷺ — **بردائه ، وهو على الرحل** » (١٩) .

---

(١٧) سورة الحاقة ، الآية رقم ٥ . (١٨) سورة الشعراء ، الاية رقم ١٤١ .

(١٩) أخرج الروايتين البخارى . والرواية الثانية عن سالم بن عبد الله عن أبيه — رضى الله عنهم — كتاب الأنبياء . باب **﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً ﴾** جـ ٤ ص ١٨١ .

فقد طلب النبى — ﷺ — إلى أصحابه ، برغم أنهم متجهون إلى لقاء الروم فى تبوك صيفاً ، أن يأخذوا العبرة والعظة من أحداث الأمم السابقة ، واختيرت أحداث ثمود هنا لما للمشاهدة من أثر تربوى فى نفوس المسلمين ، كما اتضح الهدف ، وهو النجاة والسلامة فى الدنيا من الهلاك والفساد .

دروس وعبر :

— إن الله سبحانه وتعالى ، يعطى الدنيا من يستحق ، ومن لا يستحق ؛ ابتلاءً ، واختباراً ، وأولى بالإنسان وقد توالت عليه نعم الله سبحانه أن يشكره عليها بتوجيه هذه النعم وجهتها الصحيحة .

— مفهوم الوطن والحرص عليه وجد مع الإنسان فى غابر الأزمان ، ولكن قبيلة ثمود لم تُحافظ عليه المحافظة المرجوة ؛ بسبب عصيانها لله سبحانه ، فكان الهلاك والدمار لمن عاش فيه ، وما أُقيم عليه من حضارة مادية .

— إن الرسل جميعاً أسرة واحدة ، يدعون إلى الإيمان بالله سبحانه ، وتوحيده بالربوبية ، وحرص النبى — ﷺ — والقرآن الكريم على إيقاظ هذا فى نفوس المسلمين كما حدث فى تبوك .

— الحكم الشرعى الذى فُهم من طلب صالح — عليه السلام — إلى قومه ، ظل سارى المفعول حتى زمن النبى الخاتم ، حيث لم يرد نسخ لهذا الحكم .

— يُختار الداعية المسلم المعروف بالسيرة الحميدة بين قومه ، وعليه أن يقدم دعوته إليهم مع تودد ، ورفق ، وموعظة حسنة .

— على الداعية المسلم أن يوطن نفسه على تحمل الأذى فى سبيل الدعوة ؛ فقد يُتهم فى عقله ، وفى اختياره هو دون غيره ، وعليه أن يفهم أن آفة البشرية فى البقاء على الشرك هى التقليد ، وأن الشيطان يستغل هذه الآفة لمحاربة أى دعوة إصلاحية تزيل ما ران على المجتمع من فساد ، وما لحق بالدعوات السابقة من تحريف .

— الحذر من المستكبرين المعاندين ؛ فهم الذين يملكون المواجهة ، والتأثير فيمن دونهم .

— الاستفادة من سير السابقين ، وقصصهم ، وعدم الوقوف على الأحداث بالسرد دون الاعتبار بها .

لوط ــ عليه السلام

- قوم لوط ــ عليه السلام ــ وموطنهم .
- لوط ــ عليه السلام ــ يدعو قومه .
- عصيان القوم ، وإهلاكهم .
- عقوبة اللواط .
- دروس ، وعبر .

قوم لوط ــ عليه السلام ــ وموطنهم :

خاطب الله سبحانه وتعالى قريشاً مذكراً إياهم ، ومحذراً من سوء العاقبة إن تمادوا فى الكفر ، فقال :

﴿ **ولقد أتوا على القرية التى أُمطرت مطر السوء . أفلم يكونوا يرونها ؟ بل كانوا لا يرجون نشوراً** ﴾ (١) .

فالآية الكريمة السابقة تَذْكُرُ أن قريشاً وهم موضع الحديث أتت على القرية ، وما يُذكر من آيات لاحقة أن القرية التى أُمطرت مطر السوء هى القرية التى أرسل إلى أهلها لوط ــ عليه السلام .

ويُفهم من الآية أيضاً أن بقايا ، وأثاراً تدل على مكان القرية موجودة حتى زمن نزول القرآن الكريم ؛ حيث يكون مجال الرؤية المتحدث عنها أيضاً ، قال الله تعالى فى موضع آخر :

﴿ **وإنكم لتمرون عليهم مصبحين ، وبالليل . أفلا تعقلون** ﴾ (٢) .

وهذا يؤكد معاودة الرؤية لهذه القرية .

وقد دلت الاكتشافات الحديثة على صدق هذا ، وأن القرية كانت بجوار البحر الميت ، واسمها سدوم أو أدوم

لوط ــ عليه السلام ــ يدعو قومه :

شاعت فى قوم لوط – عليه السلام – جريمة ارتكبت لأول مرة فى تاريخ البشرية ، تلك هى إتيان الرجل الرجل شهوة من دون النساء ، وكانت هذه الجريمة وحدها كافية لأن يُرسل إلى مرتكبيها رسول هو لوط ــ عليه السلام ــ يقوم بالنصح ، ويحذر من سوء العاقبة ، ولكن القوم تمادوا فى غيهم ،

---

(١) سورة الفرقان ، الآية رقم ٤٠ . (٢) سورة الصافات ، الآيتان ١٣٧ ، ١٣٨ .

وفعل جريمتهم ؛ فاستحقوا غضب الله تعالى :

﴿ ولوطاً إذ قال لقومه : أتأتون الفاحشة ؟ ماسبقكم بها من أحد من العالمين ؛ إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون ﴾ (٣) .

وقد بلغ بهم الأمر أن رأوا أضياف لوط ــ عليه السلام ــ وما دروا أنهم ملائكة الله سبحانه ، فهرع القوم إليه ، فحاول لوط ــ عليه السلام ــ أن يوقظ عقولهم ورشدهم ، ويحذرهم أن فعلتهم مخالفة لسنة الله تعالى فى الكون ، وقد تمنى أن تكون له القوة البشرية على ردهم ومنعهم .

قال الله تعالى :

﴿ ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً ، وقال : هذا يوم عصيب ، وجاءه قومه يهرعون إليه ، ومن قبل كانوا يعملون السيئات . قال : يا قوم ، هؤلاء بناتى هن أطهر لكم ، فاتقوا الله ، ولا تخزون فى ضيفى . أليس منكم رجل رشيد ؟ قالوا : لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق ، وإنك لتعلم ما نريد ، قال : لو أن لى بكم قوة ، أو آوى إلى ركن شديد ﴾ (٤) .

وفى ذلك ما رُوى عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال :

« .. ويرحم الله لوطاً ، لقد كان يأوى إلى ركن شديد » (٥) .

---

(٣) سورة الأعراف ، الآيتان : ٨٠ ، ٨١ .

(٤) سورة هود ، الآيات : ٧٧ – ٨٠ .

(٥) أخرجه الشيخان . صحيح البخارى ، كتاب الأنبياء ، باب **﴿ ولوطاً إذ قال لقومه :... ﴾** جـ ٤ ص ١٨٠ ، مختصر مسلم . كتاب ذكر الأنبياء وفضلهم جـ ١ ص ١٨٥ رقم ١٦٠٨ واللفظ لمسلم .

أى يأوى إلى الله سبحانه ، وهو الأكبر والأقوى ، ولوط ـــ عليه السلام ـــ يعتقد اعتقاداً جازماً بذلك ، ولكن اللفظ يدل على تمنى القوة البشرية والركن المادى ، دون خدش للحقيقة الإيمانية ، وكان عليه أن يبرز الحقيقة الإيمانية فى قوله ، وهو يجابه القوم .

وقد ناشد لوط ـــ عليه السلام ـــ فيهم المروءة ، وأخوته لهم ، وأمانته بينهم ، وأنه لا يبغى من وراء جهده معهم إلا صالحهم ، وأن أجره على الله سبحانه الذى أرسله إليهم ، الذى خلقهم ، وخلق للرجال النساء ، وللنساء الرجال ؛ ليتم من التقاء الجنسين بقاء النوع الإنسانى ، وأن مجاوزة ذلك إلى ما هم عليه من فحشاء عدوان وظلم ، ثم هو بالاستمرار عليه سبيل إلى انقراض الجنس البشرى الذى خُلق لإعمار الأرض لا الإفساد فيها . قال الله تعالى :

﴿ إذ قال لهم أخوهم لوط : ألا تتقون ؟ إنى لكم رسول أمين ، فاتقوا الله ، وأطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر ، إن أجرى إلا على رب العالمين . أتأتون الذكران من العالمين ؟ وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم ؟ بل أنتم قوم عادون ﴾ (٦) .

عصيان القوم ، وإهلاكهم :

وأمام إصرار لوط ـــ عليه السلام ـــ على دعوته لقومه ، اتخذوا موقفاً منكراً ، قال تعالى :

﴿ قالوا : لئن لم تنته يا لوط ، لتكوننِ من المخرجين ﴾ (٧) .

أى بشاعة من القوم أشد من عزمهم على طرد نبيهم من القرية ؟! لا لشىء إلا أنه يريد لهم الطهر ، والعفة ، وهم يريدون الإيغال فى نجس الفحشاء ، وزاد

---

(٦) سورة الشعراء ، الآيات : ١٦١ - ١٦٦ .
(٧) سورة الشعراء ، الآية رقم ١٦٧ .

أمرهم بشاعة عزمهم أيضاً على إخراج كل من آمن بلوط ــ عليه السلام ــ ولماذا هذا كله ؟ قال الله تعالى على لسانهم :

﴿ إنهم أناس يتطهرون ﴾ (٨) .

فأى غباء أحط من هذا وأسوأ ؟! .

الطرد من القرية التى يسكنون فيها ، للوط ــ عليه السلام ــ ومن آمن به من القوم ؛ لأنهم يريدون الطهر ، إنهم لم يخجلوا من أنفسهم وهم ينسبون الطهر للوط ــ عليه السلام ــ ومن آمن به ، وهم أيضاً فى نفس الوقت يدمغون أنفسهم بالنجس ، وحبهم له ، ورغبتهم فيه .

وزادت المشكلة فى وجه النبى لوط ــ عليه السلام ــ حيث انضمت إليهم زوجته العجوز تخبرهم عن مكانه وهو يدعو الناس إلى الله سبحانه وإلى نبذ الفحشاء ؛ ليلاحقوه حيث هو ، ويبطلوا عليه دعوته ، وجهوده .

انقسمت القرية إلى معسكرين :

معسكر المؤمنين : بقيادة لوط ــ عليه السلام ــ ويسير حسب منهج الله سبحانه والفطرة التى فطر الناس عليها ، والسعى فى قضاء الشهوة بطريقها الصحيح ، ونبذ جريمة اللواط التى انتشرت بين أهل قرية سدوم .

ومعسكر الكفر ؛ ويضم غالبية أهل القرية ، كما يضم زوجة لوط ــ عليه السلام ــ وقد أقر هذا المعسكر الفحشاء ، وتركها تنخر فى عظامهم ، بل شجعها ، وحارب من يحاربها ، وكان دور زوجة لوط ــ عليه السلام ــ دور المخبر السرى الذى يدل القوم على مكان وجود النبى ــ عليه السلام ــ ولم يتعد دورها إلى ارتكاب الفحشاء فبيوت الأنبياء مبرأة من ذلك .

وبعد أن استنفد لوط ــ عليه السلام ــ جهده ، وبذل كل ما فى وسعه

---

(٨) سورة النمل ، الآية رقم ٥٦ .

أعلن من جهته أنه تارك هذه القرية ، فهاجر إلى الله سبحانه ، راجياً من الله سبحانه النجاة من إهلاكٍ سيقع بالقوم الكافرين .

قال الله تعالى :

﴿ قال : إنى لعملكم من القالين ، رب نجنى وأهلى مما يعملون ، فنجيناه وأهله أجمعين إلا عجوزاً فى الغابرين ﴾ (٩) .

وأرسل الله سبحانه ملائكة ظنهم لوط ــ عليه السلام ــ أضيافاً ، ولكنهم أخبروه بأنهم رسل ربه سبحانه ، وأنهم أتوا لإهلاك قوم أصروا على الكفر ، وطلبوا إليه وإلى من آمن الخروج من القرية ليلاً .

قال تعالى على لسان الملائكة :

﴿ قالوا : يا لوط ، إنا رسل ربك ، لن يصلوا إليك ، فأسر بأهلك بقطع من الليل ، ولا يلتفت منكم أحد ، إلا امرأتك ؛ إنه مصيبها ما أصابهم ، إن موعدهم الصبح ، أليس الصبح بقريب ؟ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها ، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك ، وما هى من الظالمين ببعيد ﴾ (١٠) .

وكان إهلاك القرية وكفارها بعملين :

قلب هذه القرية ليصبح عاليها سافلها ، وفى ذلك من التدمير ما فيه .

ثم قذف هذه القرية بعد قلبها بالحجارة المُحْمَاة ، لأنها من سجيل جهنم .

وتُوصلنا الآيات الأخيرة إلى أن هذا العقاب الذى عُوقب به السابقون ليس ببعيد عن أى ظالم فى الأرض أيا كان ؟ ومتى كان ؟ فى الجاهلية الأولى أو فى جاهلية القرن العشرين .

---

(٩) سورة الشعراء ، الآيات ١٦٨ - ١٧١ .

(١٠) سورة هود ، الآيات ٨١ - ٨٣ .

عقوبة اللواط :

عن عكرمة عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ـ ﷺ :

« من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » (١١)

وقد اختلف أهل العلم فى عقوبة الفاعل للواط ، والمفعول به بعد اتفاقهم على تحريمه ، وأنه من الكبائر للأحاديث المتواترة فى تحريمه ولعن فاعله .

فذهب جمع من الصحابة منهم ابن عباس وعلى وأبو هريرة ـ رضى الله عنهم ـ إلى أن حده القتل ، ولو كان بكراً سواءً أكان فاعلاً أو مفعولاً به .

وإليه ذهب الشافعى ، واستدلوا بحديث الباب ، وبما ذكر من آثار وقد اختلفوا فى كيفية قتل اللوطى :

فرُوى عن على ـ رضى الله عنه ـ أنه يُقتل بالسيف ، ثم يُحرق لعظم المعصية .

وذهب عمر وعثمان ـ رضى الله عنهما ـ إلى أنه يُلقى عليه حائط .

وذهب ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ إلى أنه يُلقى من أعلى بناء فى البلد

وقد حكى صاحب الشفاء إجماع الصحابة على القتل .

وقد حكى البغوى عن الشعبى والزهرى ومالك وأحمد وإسحاق أنه يُرجم .

وحكى ذلك الترمذى عن مالك ، والشافعى ، وأحمد وإسحاق .

ورُوى عن النخعى أنه قال :

---

(١١) أخرجه الإمام أحمد ، والترمذى ، وأبو داود ، وابن ماجة والحاكم والبيهقى . نيل الأوطار للشوكانى جـ ٧ ص ١٢٢ وما بعدها ، كتاب الحدود ، باب « من عمل عمل قوم لوط » . وقال الحافظ : رجال الحديث موثوقون إلا أن فيه اختلافاً .

لو كان يستقيم أن يُرجم الزانى مرتين لرجم اللوطى .

وقال المنذرى :

حرق اللوطية بالنار أبو بكر وعلى وعبد الله بن الزبير ، وهشام ابن عبد الملك .

وذهب سعيد بن المسيب وعطاء بن أبى رباح والحسن وقتادة والنخعى ، والثورى ، والأوزاعى ، وأبو طالب ، والإمام يحيى ، والشافعى فى قول له إلى أن حد اللوطى حد الزانى ، فيُجلد البكر ويُغرب ، ويُرجم المحصن ، وحكاه فى البحر عن القاسم بن إبراهيم . ورُوى عن المؤيد بالله القتل مطلقاً .

وقد عقب الشوكانى بعد ذكره الآراء السابقة بقوله :

وما أحق مرتكب هذه الجريمة ، ومقارف هذه الرذيلة الذميمة بأن يُعاقب عقوبة يصير بها عبرة للمعتبرين ، ويُعذب تعذيباً يكسر شهوة الفسقة المتمردين . فحقيق بمن أتى بفاحشة قوم ما سبقهم بها من أحد من العالمين أن يصْلى من العقوبة بما يكون فى الشدة والشناعة مشابهاً لعقوبتهم ، وقد خسف الله تعالى بهم ، واستأصل بذلك بكرهم وثيبهم .

دورس وعبر :

والمتأمل فى قصة لوط ـــ عليه السلام ـــ مع قومه يرى :

ـــ أن الله سبحانه يريد للبشرية حياة الطهر والسعادة ، وأن منهج الله تعالى فى كتابه الكريم ، وسنة نبيه ـــ ﷺ ـــ منهج نظيف بعيد عن الرجس والنجس ودنس الجاهلية بكل صورها .

وأن البشرية بعصيانها لله تعالى تتردى فى حمأة الرذيلة فتهلك ، وتجنى الفساد والدمار .

ـــ وأن كل نفس رهينة بما كسبت ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، فقد عُوقبت العجوز زوجة لوط ـــ عليه السلام ـــ لأنها كفرت ، ولم ينفعها إيمان زوجها .

كما أن الأهل الحقيقيين للمسلم هم من آمنوا بمنهج الله سبحانه ﴿ **فأسر بأهلك** ﴾ ولم تدخل فى الأهل تلك العجوز ، ودخل فى عداد الأهل كل مؤمن ، ولو كان بعيداً فى النسب ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾ .

ـــ أن الإنسان اليقظ يفيد نفسه حين يتأمل المشاهد فى الأرض من آثار تدل على السابقين ، وأنه إذا لم يستعمل عقله سيقع فيما وقع السابقون فيه .

ـــ أن جريمة اللواط من أعظم الجرائم يجب حربها بما يتناسب وعظم الجُرم ، ويدل على عظمها ما يظهر من إرسال رسول لمقاومتها ، ومقاومة أهلها ، والعقوبة التى نزلت بمرتكبيها تشير إلى ما وضع من حد فيها .

المجتمع المصاب بهذه الجريمة مجتمع قذر غير طاهر يحاربه الإسلام ويأباه ، كما يحاربه كل عاقل سوى التفكير .

ـــ قد يعترف المجرم بجريمته ، ومع ذلك يصر على فعلها ، ويحارب من يخالفه فيها ، شأن قوم لوط ـــ عليه السلام .

ـــ الله سبحانه يبرئ الأنبياء من أزواج يرتكبن الفاحشة ، وإن كان يحدث منهن المخالفة فى الدعوة ، كما حدث من زوج لوط ـــ عليه السلام ـــ وابن نوح ـــ عليه السلام ـــ اختباراً وابتلاءً وتأكيداً لقاعدة المسئولية الفردية فى الإسلام .

إبـراهيــم « عليـه السـلام »

ـــ من صفات إبراهيم ـــ عليه السلام .
ـــ إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ يتأمل فى الكون .
ـــ حواره مع أبيه .
ـــ اعتزال إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ لأبيه وقومه .
ـــ إبراهيم ولوط ـــ عليهما السلام .
ـــ البشرى بإسماعيل ـــ عليه السلام .
ـــ هاجر وإسماعيل ـــ عليه السلام ـــ بواد غير ذى زرع .
ـــ إبراهيم وإسماعيل ـــ عليهما السلام ـــ يرفعان القواعد من البيت .
ـــ قصة الذبح والفداء .
ـــ البشرى بإسحاق ـــ عليه السلام .
ـــ الكذبات الثلاث .
(ا) الموقف الأول ، وقوله : « إنى سقيم » .
(ب) الموقف الثانى ، وقوله : « بل فعله كبيرهم هذا » .
(جـ) الموقف الثالث ، وقوله عن سارة : « أختى » .
(د) الموقف الرابع ، وقوله حين طلب الشفاعة : « نفسى نفسى » .
ـــ دروس وعبر .

من صفات إبراهيم ـــ عليه السلام :

اختص الله سبحانه وتعالى إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ بأن اتخذه خليلاً له ، وتلك مكرمة جليلة لم ينلها نبى أو رسول ؛ فقد قال الله تعالى فى شأنه :

﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾ (١) .

وذلك لأنه إمام يقتدى به ؛ حيث وصل إلى غاية ما يتقرب به العباد له ، فإنه انتهى إلى درجة الخلة التى هى أرفع درجات المحبة ، وما ذاك إلا لكثرة طاعته لربه ، فقد وصفه ربه سبحانه بقوله :

﴿ وإبراهيم الذى وفّى ﴾ (٢) .

أى وفّى أمور طاعته لربه سبحانه ، وقال تعالى فى هذا الشأن أيضاً :

﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ، قال إنى جاعلك للناس إماماً ﴾ (٣) .

وقد نال النبى الخاتم محمد ـــ ﷺ ـــ هذه المنزلة أيضاً ؛ فعن أبى سعيد الخدرى ـــ رضى الله عنه ـــ أن رسول الله ـــ ﷺ ـــ قال :

« إن من أمنّ الناس علىّ فى صحبتى أبا بكر ، ولو كنت متخذا خليلاً من أمتى لاتخذت أبا بكر ، إلا خلة الإسلام .. » (٤) .

---

(١) سورة النساء ، الآية رقم ١٢٥ .

(٢) سورة النجم ، الآية رقم ٣٧ .

(٣) سورة البقرة ، الآية رقم ١٢٤ .

(٤) أخرجه الشيخان ، اللؤلؤ والمرجان ، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل أبى بكر الصديق ـــ رضى الله عنه ، رقم ١٥٤١ ص ٦٣١ . مختصر مسلم نفس الكتاب ، والباب السابقين رقم ١٦٢٢ جـ ٢ ص ١٩٠ . =

وكانت توفية الخليل إبراهيم لأمور الطاعة ، والعبادة ، وإتمامه لها مؤهلاً لأن يكون جديراً بالإمامة للناس ، كما ورد فى الآية الكريمة .

وقد قال الله سبحانه وتعالى فيه أيضاً :

﴿ إن إبراهيم كان أمة ، قانتاً لله حنيفاً ، ولم يك من المشركين ﴾.(٥)

فأما الأمة : فهو الإمام الذى يُقتدى به ، والقانت : هو الخاشع المطيع ، والحنيف : هو الذى ابتعد عن الشرك إلى التوحيد ، وليس هذا بعجيب ؛ فقد آتاه الله سبحانه الرشد ، حيث قال فى محكم كتابه :

﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل ، وكنا به عالمين ﴾ (٦) .

ومن الصفات التى نالها الخليل إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ ولم ينلها غيره « خير البرية » ؛ فعن أنس بن مالك ـــ رضى الله عنه ـــ قال :

جاء رجل إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ فقال : يا خير البرية ، فقال رسول الله ـــ ﷺ :

= واختار ابن كثير رواية أخرى عزاها إلى الصحيحين عند تفسيره لآية النساء **﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾** رقم الآية ١٢٥ جـ ٢ ص ٤٠٣ ، وتتضمن روايته زيادة : « **ولكن صاحبكم خليل الله** » كما ذكر فى نفس المقام رواية ثالثة عن ابن مسعود ـــ رضى الله عنه ـــ عن النبى ـــ ﷺ ـــ قال : « **إن الله اتخذنى خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً** » .

ومن معانى الخلة : الافتقار الانقطاع ، فخليل الله : المنقطع إليه .

وقيل : الخلة : الاختصاص .

وقيل : الاصطفاء .

وسمى إبراهيم خليلاً ؛ لأنه والى فى الله وعادى فيه ، وخلة الله تعالى له نصره ، وجعله إماماً لمن بعده ، والمعنى : أن حب الله تعالى لم يبق فى قلب الخليل موضعاً لغيره سبحانه .

(٥) سورة النحل ، الآية رقم ١٢٠ ، وتفسير الألفاظ لابن كثير .

(٦) سورة الأنبياء ، الآية رقم ٥١ .

« ذاك إبراهيم عليه السلام » (٧) .

وفى صفاته الجسمية ما حدث سمرة ـــ رضى الله عنه ـــ (٨) قال :

قال رسول الله ـــ ﷺ :

أتانى الليلة آتيان . فأتينا على رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طولاً ، وإنه إبراهيم ـــ ﷺ » (٩) .

هذا من جانب طول قامته ، أما من ناحية الشكل العام فهو على هيئة النبى الخاتم ـــ عليهما الصلاة والسلام ؛ فقد سمع ابن عباس ـــ رضى الله عنهما ـــ يقول : قال رسول الله ـــ ﷺ :

« ... أما إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم » (١٠) .

وأول من قام بسنة الاختتان هو الخليل إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ واستمرت خصلة من خصال الفطرة إلى يوم القيامة ؛ فعن أبى هريرة ـــ رضى الله عنه ـــ قال : قال رسول الله ـــ ﷺ :

« اختتن إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم » (١١)

---

(٧) أخرجه مسلم ، كتاب ذكر الأنبياء وفضلهم ، المختصر جـ ٢ رقم ١٦٠٦ ص ١٨٥ .

(٨) هو أبو سعيد فى أكثر الأقوال ، سمرة بن جندب الفزارى ، حليف الأنصار . نزل الكوفة ، وولى البصرة ، وعداده فى البصريين ، كان من الحفاظ المكثرين بالبصرة ، مات سنة تسع وخمسين . (سبل السلام ، جـ ١ ص ٨٦) .

(٩) أخرجه البخارى كتاب الأنبياء ، باب قوله تعالى : ﴿ **واتخذ الله إبراهيم خليلاً** ﴾ جـ ٤ ص ١٧٠ .

(١٠) أخرجه البخارى . الصحيح جـ ٤ ص ١٧٠ .

(١١) أخرجه الشيخان ، صحيح البخارى جـ ٤ ص ١٧٠ ، مختصر مسلم جـ ٢ ص ١٨٥ رقم ١٦٠٧ .

وهو أول من يُكْسَى يوم القيامة ؛ فعن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ عن النبى ــ ﷺ ــ قال :

« إنكم محشورون حفاة عراة غُرْلاً » ثم قرأ : ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ، وعداً علينا ، إنا كنا فاعلين ﴾ (١٢) وأول من يُكسى يوم القيامة إبراهيم ــ ﷺ » (١٣) .

إبراهيم ــ عليه السلام ــ يتأمل فى الكون

إن الله سبحانه وتعالى الذى أرسل رسله مبشرين ، ومنذرين ، هو الذى خلق هذا الكون الفسيح ، وما فيه من كواكب وأقمار ، وشموس ، وأفلاك ، وما على الأرض من دواب ونبات ، وجبال وأنهار . وقد طلب إلى الإنسان أن يتأمل هذا الكون لهدفين :

الهدف الأول : إثبات قدرة الله سبحانه وعظمته فى خلقه .

والهدف الثانى : التعرف على الكون ، واستكشاف أسراره المقدورة لدى البشر ، واستغلال طاقاته الكامنة ، وتصنيع خاماته المتنوعة ، والمسخرة من الله سبحانه للإنسان .

وقد وجه الله سبحانه نبيه الخليل إبراهيم ــ عليه السلام ــ إلى هذا الطريق ، طريق التأمل والنظر ؛ فقد تأمل النجم ليلاً فوجد فيه ما ليس فى غيره من علو وارتفاع ، ولكنه غاب بعد مدة ، والإله لا يغيب ، ثم تأمل القمر وهو أكبر فى الظاهر من النجم ، حيث اعتبار الظاهر أصلاً دون إرجاعه إلى الحقيقة ، ووجد القمر قد غاب عن الأنظار أيضاً كالنجم ، وصّعد اختياره فى الكون فوجد الشمس حيث فاقتهما ضياءً وحجماً ، وليس بعدها فى الظاهر شيء ، ولكنها أيضاً

---

(١٢) سورة الأنبياء ، الآية رقم ١٠٤ . والغرلة : ما يُقطع فى عملية الختان .

(١٣) أخرجه البخارى . الصحيح جـ ٤ ص ١٦٩ .

جرى عليها التغير كسابقيها فثبت يقينه بمن خلق الكون كله وما فيه من شمس ، وقمر ، ونجم ، وبرئ من الشرك والمشركين ، وتوجه إلى الله سبحانه خالصاً من أى شائبة ، وحينئذ كانت المحاجة لقومه :

﴿ وحاجه قومه ، قال : أتحاجونى فى الله وقد هدان ؟ ولا أخاف ما تشركون به ، إلا أن يشاء ربى شيئاً ، وسع ربى كل شىء علماً ، أفلا تتذكرون ﴾ (١٤) .

وقد طلب الخليل إبراهيم — عليه السلام — إلى ربه سبحانه صراحة أن يريه كيف يحيى الموتى ؛ ليطمئن قلبه أكثر إلى الإيمان ، بعد أن استقر الإيمان فى قلبه أصلاً ، قال تعالى :

﴿ وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى ؟ قال : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبى . قال : فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ، ثم ادعهن يأتينك سعياً ، واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾ (١٥) .

وحينئذ قال لمن حاجه فى ربه ، وزعم أنه يحيى ويميت : إن الله يأتى بالشمس من المشرق ؛ حيث يشاهد المرء ذلك فى الظاهر بعينه المجردة ، فإن كنت صادقاً فى زعمك بإحياء الموتى ، فأت بالشمس من المغرب — طلب واضح ومعجز — فبهت الذى كفر ، والله لايهدى القوم الظالمين . قال الله تعالى :

﴿ ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه ، أن آتاه الله الملك ، إذ قال إبراهيم : ربى الذى يحيى ويميت ، قال : أنا أحيى وأميت ، قال إبراهيم : فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذى كفر ، والله لايهدى القوم الظالمين ﴾ (١٦) .

---

(١٤) سورة الأنعام ، الآية رقم ٨٠ .

(١٥) سورة البقرة ، الآية رقم ٢٦٠ .

(١٦) سورة البقرة ، الآية رقم ٢٥٨ .

حواره مع أبيه :

تعجب إبراهيم ــ عليه السلام ــ من أبيه وهو يتخذ أصناماً آلهة من دون الله تعالى ، ووصف هذا بالضلال عن الصراط المستقيم ، ولم يكن هناك من حجة لأبيه على ما يصنع ويعبد إلا تلك الحجة الموروثة عن الضالين السابقين ، حجة التقليد للآباء والأجداد ، قال تعالى :

﴿ إذ قال لأبيه وقومه : ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟ قالوا : وجدنا آباءنا لها عابدين . قال : لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين ﴾.(١٧)

وقال أيضاً :

﴿ يا أبت ، لم تعبد ما لا يسمع ، ولا يبصر ، ولا يغنى عنك شيئاً ؟ يا أبت ، إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك ، فاتبعنى أهدك صراطاً سوياً ﴾ (١٨) .

إنه يبين لأبيه ، وقومه مدى تفاهة هذه الأصنام ، وتفاهة العقول التى اتخذتها آلهة من دون الله سبحانه ، ويُعرف أباه أيضاً أن الدعوة التى تقوم على علم وبصيرة هى دعوة الحق وهى دعوة إبراهيم ــ عليه السلام ــ ولذا فقد وصف ربه سبحانه بما ورد على لسانه :

﴿ الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطعمنى ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذى يميتنى ثم يحيين . والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ﴾ (١٩) .

كما قال تعالى فى شأنه :

---

(١٧) سورة الأنبياء ، الآيات من ٥٢ إلى ٥٤ .

(١٨) سورة مريم ، الآيتان ، رقم ٤٢ ، ٤٣ .

(١٩) سورة الشعراء ، الآيات من ٧٨ إلى ٨٢ .

﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ﴾ (٢٠) .

فماذا يقول آزر وقد أبطلت الحجة تقليد الآباء ؟ إنه صرف النظر عنها ، وأغمض عينيه ، وبدأ لا يعلن إلا العجز عن الحجة .

قال الله تعالى على لسان آزر :

﴿ أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم ؟ لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى ملياً ﴾ (٢١) .

ولم يقف إبراهيم ــ عليه السلام ــ موقفاً سلبياً من هذا التحدى ، بل بادر بالتخطيط للمواجهة ، قال تعالى :

﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ، فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً هم لعلهم إليه يرجعون ﴾ (٢٢) .

ولم يهرب من الميدان حين عَلِمَ القومُ بالحقيقة ، بل واجههم موبخاً ، ومتهكماً من عقولهم :

﴿ قال : أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ، ولا يضركم ؟ أف لكم ، ولما تعبدون من دون الله . أفلا تعقلون ؟ ﴾ (٢٣) .

وإذا كان القوم قد استطاعوا أن يستعملوا قوتهم المادية ، فقد عجزوا تماماً عن أى قوة عقلية تمنحهم الرد المعتمد على الدليل والحجة ، وإذا كانوا قد أمكنهم إلقاءه فى النار ، فقد جعل الله سبحانه هذه النار برداً ، وسلاماً ، وهذا دليل جديد على صدق دعوته ، وأن الله الخالق هو الذى يضر ، وهو الذى ينفع .

---

(٢٠) سورة الأنعام ، الآية رقم ٨٣ .

(٢١) سورة مريم ، الآية رقم ٤٦ .

(٢٢) سورة الأنبياء ، الآيتان رقم ٥٧ ، ٥٨ ، والجذاذ : الفتات ، الجذّ : الكسر ،والقطع .

(٢٣) سورة الأنبياء ، الآيتان رقم ٦٦ ، ٦٧ .

﴿ وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين ﴾ (٢٤) .

إنهم رأوا بأعينهم أنهم فعلاً الأخسرون . فها هو ذا إبراهيم ــ عليه السلام ــ ينجو من نارهم التى أججوها ، وظنوا أنهم بذلك سيخمدون صوت الحق المرسل إليهم من السماء ، ولكن الصوت ظل عالياً مرتفعاً .

﴿ وقال : إنى ذاهب إلى ربى سيهدين ﴾ (٢٥) .

وبدأت مرحلة جديدة فى مسيرة الدعوة إلى توحيد الله سبحانه .

اعتزال إبراهيم ــ عليه السلام ــ لأبيه وقومه .

ومرت الدعوة بتجربة خاضها الخليل ــ عليه السلام ــ فى أقرب الناس إليه ، وهو أبوه آزر ، حين رفض الدعوة إلى التوحيد برغم نصاعة الحجة ووضوحها ، وأصر على عبادة التماثيل من دون الله سبحانه ، وعزم على رجم ابنه بالحجارة ، والطرد ، أو يسكت عن مواصلة الدعوة ، وعلى الرغم من التهديد المعلن فقد اختار الخليل ــ عليه السلام ــ الاعتزال .

﴿ قال : سلام عليك ، سأستغفر لك ربى ، إنه كان بى حفياً ، وأعتزلكم ، وما تدعون من دون الله ، وأدعو ربى ، عسى ألا أكون بدعاء ربى شقياً ﴾ (٢٦) .

ويتضح من النص الكريم عزم إبراهيم ــ عليه السلام ــ على طلب المغفرة لأبيه ، ثم الاعتزال عن القوم وقد أصروا على الشرك ، والاعتزال فى ذاته مرحلة من مراحل الإنكار للمنكر ، حين لا يملك الفرد القدرة على التغيير بشكل من

---

(٢٤) سورة الأنبياء ، الآية رقم ٧٠ .

(٢٥) سورة الصافات ، الآية رقم ٩٩ .

(٢٦) سورة مريم الآيتان ٤٧ ، ٤٨ . الحفىّ : المبالغ فى البر واللطف .

الأشكال ، وقد طلب الخليل — عليه السلام — المغفرة لأبيه ، بناء عن موعدة وعدها إياه .

أما طلب المغفرة للأب مع إصراره على الشرك فهو مخالف لما قرره القرآن الكريم . قال تعالى :

﴿ ما كان للنبى ، والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ، ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ، وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ؛ إن إبراهيم لأواه حليم ﴾ (٢٧) .

فآزر عدو لله سبحانه لا يجوز الاستغفار له ، وإن كان المستغفر هو الخليل إبراهيم — عليه السلام — ابن آزر ، كما أن ابن نوح — عليه السلام — لا يجوز الاستغفار له ؛ لأنه عدو لله سبحانه ، كما أن المنافقين أعداء الله سبحانه ، وأعداء دينه لا تجوز موالاتهم والاستغفار لهم بل يجب الحذر منهم وتعريتهم وكشف طويتهم ؛ حتى لا ينخدع بهم الساذجون من المسلمين .

وقد خاطب الله سبحانه نبيه محمداً — ﷺ — بعد الحديث عن الكفار والمنافقين بقوله :

﴿ استغفر لهم ، أو لا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ؛ ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله ، والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾(٢٨) .

وعن أبى هريرة — رضى الله عنه — عن النبى — ﷺ — قال :

« يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة ، وعلى وجه آزر قترة ، وغبرة . فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك : لا تعصنى ؟ فيقول أبوه : فاليوم لا أعصيك ، فيقول إبراهيم : يا رب ، إنك وعدتنى ألا تخزنى يوم يبعثون .

---

(٢٧) سورة التوبة ، الآيتان ١١٣ ، ١١٤ .

(٢٨) سورة التوبة ، الآية ٨٠ .

فأى خزى أخزى من أبى الأبعد ؟ فيقول الله تعالى : إنى حرمت الجنة على الكافرين . » (٢٩) .

وتنفصم كل علاقة لا تقوم أساساً على الإيمان بالله تعالى ، مهما كانت درجتها . ويتميز معسكر الخير عن معسكر الشر تميزاً واضحاً فى الدنيا طبقاً لهذه القاعدة .

إبراهيم ولوط ــ عليهما السلام :

كان لوط ممن آمن بالخليل إبراهيم ــ عليهما السلام ــ وقد عرفنا ذلك سلفاً ، قال الله تعالى :

﴿ فآمن له لوط ، وقال : إنى مهاجر إلى ربى ؛ إنه هو العزيز الحكيم ﴾ (٣٠) .

وحين حقت العقوبة على قوم لوط – عليه السلام – مرت الملائكة – الذين كُلفوا إنزال هذه العقوبة فى طريقها إلى سدوم – بالخليل إبراهيم – عليه السلام – وكانوا أضيافاً عنده .

﴿ قال : فما خطبكم أيها المرسلون ؟ قالوا : إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ؛ لنرسل عليهم حجارة من طين ، مسومة عند ربك للمسرفين ﴾.(٣١)

ونجى الله سبحانه لوطاً ، كما نجى إبراهيم ــ عليهما السلام ــ وكان موطن

---

(٢٩) أخرجه البخارى ، كتاب الأنبياء ، باب قوله تعالى : **﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾** جـ ٤ ص ١٦٩ .

(٣٠) سورة العنكبوت ، الآية رقم ٢٦ ، وفاعل قال : هو الخليل ــ عليه السلام . قال المفسرون : هاجر من سواد العراق إلى فلسطين والشام .

(٣١) سورة الذاريات ، الآيات أرقام ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ .

النجاة الأرض المباركة بفلسطين . قال الله تعالى :

﴿ ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين ﴾ (٣٢) .

وهى مسرى النبى الخاتم محمد بن عبد الله ـــ ﷺ ـــ قال تعالى :

﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله ﴾ (٣٣) .

البشرى بإسماعيل ـــ عليه السلام :

كانت الحقبة الأولى من حياة الخليل ـــ عليه السلام ـــ مواجهة مباشرة للشرك والمشركين ؛ يفند مزاعمهم ، ويتحداهم ، فانتصر عليهم بالحجة والبرهان ، وقد صحبته فى تلك الحقبة زوجته الأولى سارة ولم تنجب ولداً حينئذ ، وأراد الله سبحانه أن تكون لهما رحلة مليئة بالمفآجات والأخطار ينجوان منها ، ويرجعان بهدية هى هاجر .

عن أبى هريرة ـــ رضى الله عنه ـــ قال : بينا هو ذات يوم ، وسارة ، إذ أتى على جبار من الجبابرة ، فقيل له : إن ها هنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس . فأرسل إليه فسأله عنها ، فقال : من هذه ؟ قال : أختى ، فأتى سارة قال : يا سارة ، ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى ، وغيرك ، وإن هذا سألنى ، فأخبرته أنك أختى . فلا تكذبينى . فأرسل إليها . فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده ، فأُخذ ، فقال : ادعى الله لى ولا أضرك ، فدعت الله فأطلق ، ثم تناولها الثانية ، فأُخِذَ مثلها أو أشد ، فقال : ادعى الله لى ولا أضرك ، فدعت فأطلق ، فدعا بعض حجبته فقال : إنكم لم تأتونى بإنسان ، إنما أتيتمونى بشيطان . فأخدمها هاجر ، فأتته (أى الخليل ـــ عليه السلام) وهو قائم يصلى ، فأومأ

---

(٣٢) سورة الأنبياء ، الآية رقم ٧١ .

(٣٣) سورة الإسراء ، الآية رقم ١ .

بيده : مهيم ، قالت : رد الله كيد الكافر ــ أو الفاجر ــ فى نحره ، وأخدم هاجر » قال أبو هريرة ــ رضى الله عنه ــ تلك أمكم يا بنى ماء السماء (٣٤) .

وكان الخليل ــ عليه السلام ــ بعد هذه الحادثة أن دعا ربه سبحانه راجياً أن يرزقه بولد صالح ، فاستجاب الله تعالى له بأن رزقه من هاجر بإسماعيل ــ عليه السلام ــ غلاماً حليماً ، صادق الوعد ، يأمر بالخير ، مرضياً عند ربه تعالى قال الله تعالى فى شأنه :

﴿ رب هب لى من الصالحين ، فبشرناه بغلام حليم ﴾ (٣٥) .

وقال أيضاً :

﴿ واذكر فى الكتاب إسماعيل ؛ إنه كان صادق الوعد ، وكان رسولاً نبياً ، وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة ، وكان عند ربه مرضياً ﴾ (٣٦) .

وحمد الخليل إبراهيم ــ عليه السلام ــ ربه سبحانه وشكره على تلك البشرى الطيبة ، قال تعالى على لسانه :

﴿ الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل ، وإسحاق ؛ إن ربى لسميع الدعاء ﴾ (٣٧) .

هاجر ، وإسماعيل ــ عليه السلام ــ بواد غير ذى زرع :

---

(٣٤) أخرجه الشيخان . اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الفضائل ، رقم ٤٣ ، باب رقم ٤١ ، ص ٦٢٤ ، رقم الحديث ١٥٣١ ، صحيح البخارى جـ ٤ ص ١٧١ .
وأخذ : أى أصابه ضر .

(٣٥) سورة الصافات ، الآيتان رقما ١٠٠ ، ١٠١ .

(٣٦) سورة مريم ، الآيتان رقما ٥٤ ، ٥٥ .

(٣٧) سورة إبراهيم ، الآية رقم ٣٩ .

أمر الله سبحانه وتعالى خليله إبراهيم — عليه السلام — بأن يسكن هاجر ، وطفلها إسماعيل — عليه السلام — مكاناً نائياً ، وله حكمة فى ذلك . هذا المكان عند البيت المحرم ، وليس بمكة يومئذ أحد . قال ابن عباس — رضى الله عنهما :

جاء بها إبراهيم ، وبابنها إسماعيل — وهى ترضعه — حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم ، فى أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء فوضعهما هنالك ، ووضع عندهما جراباً فيه تمر ، وسقاء فيه ماء ، ثم قفّى (أى عاد) إبراهيم منطلقاً ، فتبعته أم إسماعيل ، فقالت : يا إبراهيم ، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى ، الذى ليس فيه إنس ، ولا شىء ؟ فقالت له ذلك مراراً ، وجعل لا يلتفت إليها ، فقالت : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذن لا يضيعنا ، ثم رجعت ، فانطلق إبراهيم ، حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه ، استقبل بوجهه البيت ، ثم دعا بهؤلاء الكلمات ، ورفع يديه فقال :

﴿ ربنا ، إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾ (٣٨) .

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفد ما فى السقاء عطشت ، وعطش ابنها ، وجعلت تنظر إليه يتلوى ، أو قال : (أى ابن عباس) يتلمظ فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها ، فقامت عليه ، ثم استقبلت الوادى تنظر ، هل ترى أحداً ، فلم تر أحداً ، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرف درعها ثم سعت سعى الإنسان المجهود ، حتى جاوزت الوادى ، ثم أتت المروة ، فقامت عليها ، ونظرت هل ترى أحداً ، فلم تر أحداً ، ففعلت ذلك سبع مرات . قال ابن عباس : قال النبى — ﷺ :

« فذلك سعى الناس بينهما » .

---

(٣٨) سورة إبراهيم ، الآية رقم ٣٧ .

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً ، فقالت : صهٍ . تريد نفسها ، ثم تسمعت ، فسمعت أيضاً ، فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث ، فإذا هى بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه ــ أو قال : بجناحه ــ حتى ظهر الماء ، فجعلت تحوضه ، وتقول بيدها هكذا ، وجعلت تغرف من الماء فى سقائها ، وهو يفور بعد ما تفرق . قال ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ قال النبى ــ ﷺ :

« يرحم الله أم إسماعيل ، لو تركت زمزم ــ أو قال : لو لم تغرف من الماء ــ لكانت زمزم عيناً معيناً » .

قال : فشربت وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك : لا تخافوا الضيعة ؛ فإن ها هنا بيت الله يبنى هذا الغلام وأبوه ، وإن الله لا يضيع أهله ، وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله ، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم ــ أو أهل بيت جرهم ــ مقبلين من طريق كداء ، فنزلوا فى أسفل مكة ، فرأوا طائراً عائفاً ، فقالوا : إن هذا الطائر ليدور على ماء . لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء ، فأرسلوا جرياً ــ أو جريين ــ فإذا هم بالماء ، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا . قال : وأم إسماعيل عند الماء . فقالوا : أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ فقالت : نعم . ولكن لا حق لكم فى الماء . قالوا : نعم . قال ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ قال النبى ــ ﷺ :

« فألفى ذلك أمَّ إسماعيل » (أى صار بينهم وبين أم إسماعيل إلف) ، وهى تحب الأُنس (بضم الهمزة) ، فنزلوا ، وأرسلوا إلى أهليهم ، فنزلوا معهم ، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم ، وشب الغلام ، وتعلم العربية منهم ، وأَنْفَسَهُمْ (أى فاقهم) وأعجبهم حين شب ، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم . وماتت أم إسماعيل ، فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته ، فلم يجد إسماعيل ، فسأل امرأته عنه ، فقالت : خرج يبتغى لنا ، ثم سألها عن عيشتهم ، وهيئتهم ، فقالت : نحن بشرّ ، نحن فى ضيق وشدة ، فشكت إليه ، قال : فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام ، وقولى له : يغير عتبة بابه ، فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً ، فقال : هل جاءكم من أحد ؟ قالت : نعم . جاءنا شيخ كذا وكذا ، فسألنا عنك ، فأخبرته ، وسألنى : كيف عيشنا ؟ فأخبرته أنا فى جهد وشدة .

قال : فهل أوصاك بشيء ؟ قالت : نعم . أمرنى أن أقرأ عليك السلام ، ويقول : غير عتبة بابك . قال : ذاك أبى ، وقد أمرنى أن أفارقك ، الحقى بأهلك . فطلقها ، وتزوج منهم أخرى ، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ، ثم أتاهم بعد ، فلم يجده ، فدخل على امرأته ، فسألها عنه ، فقالت : خرج يبتغى لنا ، قال : كيف أنتم ؟ وسألها عن عيشهم ، وهيئتهم ، فقالت : نحن بخير ، وسعة ، وأثنت على الله ، فقال : ما طعامكم ؟ قالت : اللحم . قال : فما شرابكم ؟ قالت : الماء . قال : اللهم بارك لهم فى اللحم والماء .

قال النبى — ﷺ :

« **ولم يكن لهم يومئذ حَبٌّ** (بفتح الحاء أى حبوب من قمح أو ذرة أو شعير) ، **ولو كان لهم دعا لهم فيه . فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه** » .

قال : فإذا جاء زوجك ، فاقرئى عليه السلام ، ومريه يثبت عتبة بابه ، فلما جاء إسماعيل ، قال : هل أتاكم من أحد ؟ قالت : نعم . أتانا شيخ حسن الهيئة ، وأثنت عليه ، فسألنى عنك ، فأخبرته ، فسألنى : كيف عيشنا ؟ فأخبرته : أنا بخير . قال : فهل أوصاك بشيء ؟ قالت : نعم . هو يقرأ عليك السلام ، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك . قال : ذاك أبى ، وأنت العتبة ، أمرنى أن أمسكك ، ثم لبث عنهم ما شاء الله ، ثم جاء بعد ذلك ، وإسماعيل يبرى نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم ، فلما رآه قام إليه ، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد ، والولد بالوالد . انتهى كلام ابن عباس — رضى الله عنهما [٣٩] .

---

(٣٩) الرواية بتمامها أخرجها البخارى جـ ٤ ص ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ كتاب الأنبياء ، باب : يزفون النسلان فى المشى (يزفون : يسرعون ، وفى التنزيل ﴿ **فأقبلوا إليه يزفون** ﴾ ، والنَّسَلان : بفتح النون المشددة ، وفتح السين : مشية الذئب إذا أسرع . المعجم الوسيط) .

والرواية كما نرى أثر من آثار ابن عباس — رضى الله عنهما — وتتضمن بعض العبارات الحديثية الشريفة النبوية . =

إبراهيم وإسماعيل ـــ عليهما السلام ـــ يرفعان قواعد البيت .

عن أبى ذر ـــ رضى الله عنه ـــ قال : قلت : يا رسول الله ، أى مسجد وضع فى الأرض أول ؟ قال :

« المسجد الحرام »

قال : قلت : ثم أى ؟ قال :

« المسجد الأقصى »

قلت : كم كان بينهما ؟ قال :

« أربعون سنة ، ثم أينما أدركتك الصلاة بعد فصلّ ؛ فإن الفضل فيه » (٤٠) .

فى ضوء هذا الحديث ، وفى ضوء أثر ابن عباس السابق نفهم أن البيت بنى قبل ذلك العهد ، وأن بقاياه هى التى كانت موجودة ، وأن إقامة إسماعيل مع أمّه هاجر كانت بجوار هذه الآثار ، وما كان عمل إبراهيم وإسماعيل ـــ عليهما السلام ـــ إلا رفع القواعد والآثار .

يقول الله تعالى :

﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، ربنا تقبل منّا ؛ إنك أنت السميع العليم ﴾ (٤٠) .

وذلك أن إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ قال : يا إسماعيل ، إن ربك أمرنى أن

= والأثر إذا ما كان كهذا يدل على أن ابن عباس فهم هذا النص ، أو سمع مضمونه من النبى ـــ ﷺ . وقد مر بك أن عرفت دعاء النبى ـــ ﷺ ـــ له فى ترجمة سابقة ، فارجع إليها إن أردت (فصل هود ـــ عليه السلام) .

(٤٠) أخرجهما البخارى . جـ ٤ ص ١٧٧ . والآية رقم ١٢٧ من سورة البقرة .

أبنى له بيتاً . قال : أطع ربك . قال : إنه قد أمرنى أن تعيننى عليه . قال : إذن أفعل . أو كما قال : ربنا تقبل منا ؛ إنك أنت السميع العليم . قال : أى ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ حتى ارتفع البناء ، وضعف الشيخ على نقل الحجارة ، فقام على حجر المقام ، فجعل يناوله الحجارة ، ويقولان :

﴿ ربنا تقبل منا ؛ إنك أنت السميع العليم ﴾ (٤٠) .

وارتفعت قواعد البيت الحرام (٤١) ، وحددت من السماء أحكام تخصه إلى قيام الساعة ؛ فهو لكل من آمن بالله سبحانه وحده ، أيا كان مكان هذا المؤمن ، أما الذى يريد الإلحاد فيه ، وفى حرمه فله العذاب الأليم فى الآخرة ، وله عذاب فى الدنيا أيضاً على يد أوليائه من المؤمنين ، وعلى المسلمين مسئولية تطهيره ، وتنظيفه ، وحمايته من مظاهر الشرك ، كما عليهم دعوة الناس لأداء فريضة الحج إليه ، والطواف به فيتحقق لهم من الخير فى دنياهم ، وأخراهم .

قال الله تعالى :

---

(٤١) مما ورد بشأن تاريخ البيت ، وبنائه .

(ا) قوله تعالى : ﴿ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ﴾ سورة إبراهيم ، الآية رقم ٣٧ ، وكان هذا الدعاء على لسان الخليل ــ عليه السلام حين أحضر هاجر ، وإسماعيل الطفل إلى مكان إقامتهما الجديد ، حيث مكة الآن ، وكان ذلك قبل تكليفه مع ابنه رفع القواعد .

(ب) قوله تعالى : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت ، وإسماعيل ... ﴾ سورة البقرة ، الآية رقم ١٢٧ ، ورفع القواعد كان بعد أن شب إسماعيل ويكون قادراً على الإسهام فى البناء .

(جـ) قوله تعالى : ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً ... ﴾ سورة آل عمران ، الآية رقم ٩٦ ، ويدل على أنه أول بيت وضع وأقيم ، ولا يدل بشكل صريح على أن من بدأ بناءه لأول مرة الخليل ــ عليه السلام .

(د) رواية أبى ذر ــ رضى الله عنه ــ التى بالأصل ، وهى توافق القرآن الكريم ، آية آل عمران من حيث الدلالة التاريخية . =

....

= (هـ) روى عن على — رضى الله عنه — قوله : كانت البيوت قبله ، ولكنه أول بيت وضع لعبادة الله ، وكانت البركة ، وهذا القول بدوره يوافق آية آل عمران ورواية أبى ذر .

(و) عن أم المؤمنين عائشة — رضى الله عنها — أن رسول الله — ﷺ — قال لها : **« ألم ترى أن قومك لما بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم »**

فقلت : يا رسول الله ، ألا تردها على قواعد إبراهيم ؟ قال :

« لولا حدثان قومك بالكفر لفعلت » .

فقال عبد الله — رضى الله عنه — (أى ابن عمر) : لئن كانت عائشة — رضى الله عنها — سمعت هذا من رسول الله — ﷺ — ما أرى رسول الله — ﷺ — ترك استلام الركنين اللذين يليان الحِجْر إلا أن البيت لم يتمم على قواعد إبراهيم .

أخرجه الشيخان . اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الحج ، باب نقض الكعبة وبنائها رقم ٨٤٢ ص ٣٠٧ .

وفى رواية أخرى عن نفس المصدر « **فإن قريشاً استقصرت بناءه ...** » ، « **إن قومك قصرت بهم النفقة** » .

وتدل الروايات على أن قريشاً قامت ببنائه ، ولعل سيلاً أصابه ، وتداعى البناء بسببه فقامت قريش بنقضه ، وإعادة بنائه ، وقد أسهم النبى — ﷺ — فى بنائه هذا قبل البعثة .

(ز) « لما بنيت الكعبة ، ذهب النبى — ﷺ — وعباس ينقلان الحجارة ، فقال عباس له : اجعل إزارك على رقبتك يقيك من الحجارة ، فخر إلى الأرض ، وطمحت عيناه إلى السماء ، ثم أفاق . فقال : « **إزارى ، إزارى ، فشد عليه إزاره** » صحيح البخارى جـ ٥ ص ٥١ ، وتوجد روايات أخرى بنفس الباب .

وتدل هذه الرواية على إسهام النبى — ﷺ — فى البناء بالإضافة إلى ما فُهم سلفاً من بناء قريش .

كما روى الإمام أحمد بسند حسن أن قريشاً حين اختلفت فى وضع الحجر الأسود ارتضت أن يكون أول داخل من باب الصفا حكماً ، فلما رأوا محمداً — ﷺ — هتفوا : هذا الأمين ، ارتضيناه حكماً ... » .

=

(ح) قال البخارى : كان البناء للكعبة نفسها . أما الحائط الذى يدور حولها فالذى بناه عمر ، وأكمله ابن الزبير جـ ٥ ص ٥١ .

(ط) قال ابن كثير فى البداية والنهاية ، جـ ١ ص ١٦٦ :

وقد بناها ابن الزبير — رحمه الله — (أى الكعبة) فى أيامه على ما أشار إليه رسول الله — ﷺ — حسبما أخبرته عائشة أم المؤمنين عنه ، فلما قتله الحجاج فى سنة ثلاث وسبعين كتب إلى عبد الملك بن مروان الخليفة إذ ذاك ، فاعتقدوا أن ابن الزبير إنما صنع ذلك من تلقاء نفسه ، فأمر بردها إلى ما كانت عليه ، فنقضوا الحائط الشامى ، وأخرجوا منها الحجر ، ثم سدوا الحائط ، وردموا الأحجار فى جوف الكعبة فارتفع بابها الشرقى ، وسدوا الغربى بالكلية كما هو مشاهد إلى اليوم ، ثم لما بلغهم أن ابن الزبير إنما فعل ذلك لما أخبرته عائشة أم المؤمنين ندموا على ما فعلوا ، وتأسفوا أن لو كانوا تركوه ، وما تولى من ذلك ، ثم لما كان فى زمن المهدى بن المنصور استشار الإمام مالك بن أنس فى ردها على الصفة التى بناها ابن الزبير . فقال له : أخشى أن يتخذها الملوك لعبة . يعنى كلما جاء ملك بناها على الصفة التى يريد فاستقر الأمر على ما هى عليه اليوم .

﴿ والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس ، سواء العاكف فيه والباد ، ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ، وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ألا تشرك بى شيئاً ، وطهر بيتى للطائفين ، والقائمين ، والركع السجود ، وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالاً ، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ؛ ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، فكلوا منها ، وأطعموا البائس الفقير ، ثم ليقضوا تفثهم ، وليوفوا نذورهم ، وليطّوفوا بالبيت العتيق ﴾ (٤٢) .

وقد دعا إبراهيم الخليل ــ عليه السلام ــ ربه سبحانه أن يقبل عمله ، وأن يجعل من ذريته أمة مسلمة ، وأن يبعث فيها رسولاً منهم ، يتلو عليهم آيات الله سبحانه ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، وقد استجاب الله سبحانه دعاء الخليل ــ عليه السلام ــ فى النبى الخاتم محمد ــ ﷺ ــ(٤٣) ورد على مزاعم اليهود والنصارى فيه ــ عليه السلام ــ قال الله تعالى :

﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ، ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين . إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى ﴾ (٤٤) .

وقال أيضاً :

---

(٤٢) سورة الحج ، الآيات من رقم ٢٥ إلى رقم ٢٩ .

(٤٣) أخرج الإمام أحمد عن العرباض بن سارية ، وأبى أمامة ــ رضى الله عنهما ــ والرواية المختارة لأبى أمامة . قال : قلت يا رسول الله ، ما كان أول بدء أمرك ؟ قال : « **دعوة أبى إبراهيم ، وبشرى عيسى بى** ... » ابن كثير فى تفسير الآية الكريمة والدعوة ، والبشرى وردتا بالقرآن الكريم ، أما الدعوة : فالآية الكريمة التى بالأصل ، وأما البشرى : فهى قوله تعالى على لسان عيسى ابن مريم ــ عليه السلام ــ حين قام خطيباً فى بنى إسرائيل : **﴿ إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ﴾** سورة الصف ، الآية رقم ٦ .

(٤٤) سورة آل عمران ، الآية رقم ٦٧ .

﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ، ولقد اصطفيناه فى الدنيا ، وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ، إذ قال له ربه : أسلم . قال : أسلمت لرب العالمين ﴾ (٤٥) .

قصة الذبح والفداء :

عرفنا فيما سبق أن الله سبحانه قد نجى الخليل إبراهيم — عليه السلام — من كيد قومه ، وأنه قد هاجر إلى الأرض التى بارك الله فيها حول المسجد الأقصى ، وأنه قد دعا ربه سبحانه أن يرزقه بولد صالح ، واستجاب الله له فى إسماعيل — عليهما السلام — وأنه ذهب بابنه الرضيع وبأمه هاجر إلى واد غير ذى زرع عند البيت المحرم ، وأنهما قد رفعا قواعد البيت الحرام . ودعوا الله سبحانه لهما ولذريتهما والرسول الذى يأتى من نسلهما .

ثم كانت رؤيا — ورؤيا الأنبياء حق — فقد رأى الخليل إبراهيم — عليه السلام — فى المنام أنه يذبح ابنه إسماعيل — عليه السلام — الذى بلغ معه السعى ، وقد كان الولد الأول قبل إسحاق — عليه السلام — وكانت المشورة بين الأب وابنه فى تنفيذ الرؤيا . على أى وجه تكون ، والابن ممتثل أمر والده ، وقد علم أن الله سبحانه قد أمر والده بذلك ، وقد سبق أن عرفنا من صفات هذا الابن أنه : صادق الوعد ، رسول ، نبى ، يصلى ، ويأمر أهله بالصلاة ، مرضى عند ربه ، فمن يجمع هذه الصفات يكون من أول الممتثلين لأمر الله سبحانه ، وقد كان .

يقول الله تعالى فى هذا الشأن :

﴿ فلما بلغ معه السعى ، قال : يا بنى ، إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ قال : يا أبت ، افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتله للجبين ، وناديناه : أن يا إبراهيم ، قد صدقت

---

(٤٥) سورة البقرة ، الآيتان رقما ١٣٠ ، ١٣١ .

الرؤيا ؛ إنا كذلك نجزى المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم . وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على إبراهيم * كذلك نجزى المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ (٤٦) .

وتخبرنا الآيات الكريمة السابقة عن هذا الموقف بعدة أمور :

ـــ أن وقت الذبح حين اكتمل جسم إسماعيل ـــ عليه السلام ـــ وبلغ سنّ الرشد .

ـــ وأن إسماعيل قد صارت لديه القدرة على السعى ، والحركة كدليل على الحيوية والنشاط .

ـــ وأن الله سبحانه قد أوحى إلى نبيه الخليل عن طريق الرؤيا المنامية بالذبح كعملية تنفيذ للذبح ، وليس بصيغة الأمر ، وأن إبراهيم فهم من ذلك الأمر بالذبح ، على الرغم من عدم وروده صراحة .

ـــ وأنه قد استشار ابنه فى أمر قد عزم هو أولاً على تنفيذه ، تأكيداً لمشروعية المشورة فى الأمور المتعلقة بالآخرين ، وثقة منه بأن ابنه سيلبى أمر ربه سبحانه .

ـــ وأن إسماعيل ـــ عليه السلام ـــ كان عند حسن ظن أبيه به ، وأنه معتقد منذ الوهلة الأولى بأن هذا أمر الله سبحانه للوالد ، والولد . ولذا قال تعالى على لسانه :

﴿ يا أبت ، افعل ما تؤمر ﴾ فتؤمر مضارع مبنى للمجهول ، أى افعل ما يأمرك الله سبحانه به .

ـــ وأن مثل هذا الأمر ابتلاء شديد يحتاج إلى صبر كبير ، ولم يذكر إسماعيل ـــ عليه السلام ـــ بأنه سيكون صابراً ، متحدثاً عن نفسه فقط ، بل ما هو إلا واحد من جملة الصابرين على دعوة الله سبحانه ، وتحمل تبعاتها ،

---

(٤٦) سورة الصافات ، الآيات من رقم ١٠٢ إلى رقم ١١١ .

وأعبائها ، وتضحياتها ، ثم هو فى نفس الوقت يعلق أمر الصبر على مشيئة الله سبحانه ، وذلك دين الصالحين : ﴿ **ولا تقولن لشىءإنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله** ﴾ سورة الكهف ، الآية رقم ٢٣ ، ٢٤ .

ـــ أسلم كل من إبراهيم وإسماعيل ـــ عليهما السلام ـــ لأمر الله سبحانه ، واستسلما له ، وانقادا وأذعنا ، فالخليل امتثل لأمر الله ، وإسماعيل كانت طاعته لله ولأبيه .

ـــ مباشرة الخطوة الأولى فى التنفيذ بأن تله للجبين ، وأكبه على وجهه ، وخابت كل مساعى الشيطان فى صده عن الامتثال .

روى الإمام أحمد (٤٧) من طريقين عن ابن عباس ـــ رضى الله عنهما ـــ أنه قال : لما أمر إبراهيم ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ بالمناسك عرض له الشيطان عند السعى ، فسابقه فسبقه إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ ثم ذهب به جبريل إلى جمرة العقبة ، فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات ؛ حتى ذهب ، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى ، فرماه بسبع حصيات ، وثَم تله للجبين ، وعلى إسماعيل قميص أبيض . فقال له : يا أبت ، إنه ليس لى ثوب تكفننى فيه غيره ، فاخلعه ، حتى تكفننى فيه ، فعالجه ليخلعه فنودى من خلفه : ﴿ **أن يا إبراهيم ، قد صدقت الرؤيا** ﴾ فالتفت إبراهيم فإذا بكبش أبيض أقرن أعين . قال ابن عباس : لقد رأينا أن نتتبع ذلك الضرب من الكباش » تفسير ابن كثير للآيات .

وهذا الأثر موافق فى المضمون لما ذكرته الآيات بشكل مجمل كما ترى ، مما يشجع على ذكره فى الأصل .

---

(٤٧) الإمام أحمد :

١ ـــ ولد سنة ١٦٤ هـ .

٢ ـــ لقى فى صدر شبابه الإمام الشافعى بمكة فى موسم الحج ، وكان الشافعى يروى الحديث عنه .

٣ ـــ وكتابه المسند الأعظم من أعظم كتب الحديث ، سجل فيه أربعين ألفاً ، =

ــ أن الله سبحانه فدى إسماعيل بذبح عظيم ، وترك له فى ذريته الذكر الطيب ، والتسليم عليه متى ذكر اسمه ــ عليه السلام ، حتى صارت الصلاة والسلام عليه ضمن تشهد كل مسلم فى الصلاة .

ــ أن الله سبحانه يجزى المحسنين على إحسان أعمالهم ، ملتزمين فى ذلك شرع الله سبحانه ، فالحسن ما حسنه الله سبحانه ، والقبيح ما قبحه ، ﴿ **يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر** ﴾ سورة البقرة ،الآية رقم ١٨٥ .

ــ أن قمة الأعمال هى الإيمان بالله وحده ، وبما أمر به ، ثم إحسان العمل . وقد تحقق كل من الإيمان والإحسان فى كل من إبراهيم وإسماعيل ــ عليهما السلام ــ خاصة فى مسألة الذبح والفداء .

اختارها من بين ثلاثة أرباع المليون من الأحاديث . وابنه عبد الله كان راوية هذا السند .

٤ ــ من تلاميذ حلقته البخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، والشافعى .

٥ ــ وثارت فتنة خلق القرآن ، فكان على منهج أهل السنة والجماعة مخالفاً بذلك الخليفة والمعتزلة .

٦ ــ فى سنة ٢٢٠ أجريت محاكمته فى مجلس المعتصم ؛ ليقر برأى المعتزلة ، فجادل بنصوص الكتاب ، والسنة فأقحم الخليفة والمعتزلة ، وأخيراً علق الإمام بالعقابين ، وتعاقب عليه الجلادون ، حتى غاب عن عقله ، وطرحوه على الأرض ، وداسوا عليه ، فلما أفاق صلى والدم يسيل من ثيابه .

٧ ــ ظلت محنته مع أمراء ثلاثة ، المأمون ، وأخيه المعتصم ، والواثق بن المعتصم ، إلى أن خلفه المتوكل سنة ٢٣٣ فعاد إلى الجماعة .

٨ ــ على الرغم من تقريب المتوكل له ردحاً من الزمن إلا أنه لم يطعم طعام الخليفة ورفض عطاءه تورعاً ، وتنزيهاً ، فضرب المثل حال الرخاء كما ضرب المثل حال الشدة والإيذاء .

٩ ــ وقد توفى فى يوم الجمعة ١٢ من ربيع الأول سنة ٢٤١ هـ .

ـــ القصة تدل من سياقها على أن مراد الله من إبراهيم لم يكن ذبح إسماعيل بدليل أن الذبح لم يحدث ، وإنما كان المراد أن يذبح إبراهيم شغفه الزائد بابنه ، ومحبته الزائدة لابنه وتعلقه الزائد بابنه ، إذ لا يجوز أن يكون فى قلب النبى ـــ ﷺ ـــ تعلق بغير الله لا دنيا ، ولا ولد ، ولا جاه ، ولا سلطان ، كل هذه الأمور لا يصح أن يتعلق بها قلب النبى ، وكما هو معلوم كان إسماعيل قد جاء لأبيه إبراهيم على كبر ، وعلى شيخوخة ، فشغف به قلب الشيخ ، وتعلق به ، فجاء امتحان الله لنبيه ضرورياً ، وما حدث فى القصة يدل على سلامة هذا التفسير ، فما أن صدع النبى لأمر ربه ، وأشرع سكينه ليذبح ولده جاء أمر السماء بالفداء .

البشرى بإسحاق ـــ عليه السلام

عرفنا فيما سبق أن إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ اتخذ من سارة زوجاً له ، وأن هاجر قد وُهبت لها من الملك الجبار بعد أن انتصرت عليه ، وصارت هاجر بعد ذلك أماً لإسماعيل من إبراهيم ـــ عليهما السلام ـــ ولم تكن سارة قد أنجبت بعد ، فقد صارت عجوزاً عقيماً لزوج كبير طاعن فى السن ، وليس لمثلهما عادة أن ينجبا .

ولكن الله سبحانه أراد ، وإرادته حق ، ولا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه . فحين مرت الملائكة ـــ عليهم السلام ـــ بإبراهيم ـــ عليه السلام ـــ وهو بالأرض المباركة ، فى طريقهم إلى قرية سدوم ؛ حيث قوم لوط ـــ عليه السلام ـــ لتدمير القرية ، وإهلاك القوم ، كانت لهم وظيفة أخرى مختلفة عن الوظيفة السابقة هى البشرى بإسحاق ، وسمعت سارة الزوج العقيم لزوج شيخ بالغ فى الكبر ، فلم تملك إلا التعجب من تلك البشرى ، بعد ضحكها وسرورها من خبر إهلاك قوم لوط وصاحت قائلة : أألد وأنا عجوز ؟! فما كان من الملائكة إلا أن ردوا الأمر إلى الله سبحانه .

قال الله تعالى :

﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ؟ إذ دخلوا عليه فقالوا :

سلاماً ، قال : سلام ، قوم منكرون . فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين ، فقربه إليهم ، قال : ألا تأكلون ؟ فأوجس منهم خيفة . قالوا : لا تخف . وبشروه بغلام عليم ، فأقبلت امرأته فى صرة ، فصكت وجهها ، وقالت عجوز عقيم . قالوا : كذلك قال ربكِ . إنه هو الحكيم العليم . قال : فما خطبكم أيها المرسلون ؟ قالوا : إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين .. ﴾ (٤٨) .

وقال الله تعالى أيضاً :

﴿ ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا : سلاماً . قال : سلام . فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ، فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم ، وأوجس منهم خيفة ، قالوا : لا تخف . إنا أرسلنا إلى قوم لوط ، وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب ، قالت : يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخاً .؟ إن هذا لشيء عجيب . قالوا : أتعجبين من أمر الله ؟ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ؛ إنه حميد مجيد . فلما ذهب عن إبراهيم الروع ، وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط . إن إبراهيم لحليم أواه منيب . يا إبراهيم أعرض عن هذا ؛ إنه قد جاء أمر ربك ، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود .. ﴾ (٤٩) .

وقـــال :

﴿ وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين . وباركنا عليه ، وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن ، وظالم لنفسه مبين ﴾ (٥٠) .

والآيات الكريمة السابقة تحدد وقت البشرى ، ومكانها ، وأثرها فى نفسية الزوجين ، كما تحدد نوعية هذه البشرى فى الذرية ، وبشيء من التفصيل نذكر :

---

(٤٨) سورة الذاريات الآيات من رقم ٢٤ إلى رقم ٣٢ .

(٤٩) سورة هود ، الآيات من رقم ٦٩ إلى رقم ٧٦ .

(٥٠) سورة الصافات ، الآيتان رقما ١١٢ ، ١١٣ .

ــ أن الله سبحانه قد بشر إبراهيم ــ عليه السلام ــ وزوجه سارة بوساطة الملائكة ــ عليهم السلام . وقد نزلوا عليهما ضيوفاً .

ــ أن من الواجب على القادم أن يلقى التحية بالسلام ، وأن على المسلّم عليه أن يرد على التحية بمثلها ، أو بأحسن منها ، وقد رد الخليل بالأحسن ، فقد قالوا : « سلاماً » بالنصب ؛ مفعول لفعل محذوف ، أى نسلم سلاماً أو نلقى سلاماً ، وقال إبراهيم : « سلامٌ » بالرفع على أنه مبتدأ خبره محذوف أى عليكم سلام ، والجملة الاسمية أقوى وأثبت من الفعلية ، فكان الردّ بالأحسن .

ــ أن الله سبحانه كما أكرم ملائكته بتحمل طاعته ، وتلبية أمره ، قد أكرمهم أيضاً خليل الله بتقديم القِرى لهم (بكسر القاف وهو طعام الضيف) دون أن يعلم من هم؟ فكان كرمه للضيف لأنه ضيف . وليس لمنزلتهم وجاههم ، وفى ذلك من الخير ما فيه .

ــ أن إكرام الضيف لازم ، ويكون بأطيب ما عند المضيف ، فقد جاء إليهم بعجل سمين ، ولا يظنن ظان الإسراف فى ذلك ، فالإسراف إذا ما كان إلقاء ورمى لما تبقى ، ولم تتحدث الآية عن ذلك ، فبقى الأمر على حفظ المال من التضييع .

ــ أن إبراهيم ــ عليه السلام ــ حين رآهم لم يتقدموا إلى الطعام بعد تقريبه منهم ، أوجس فى نفسه خيفة منهم . فشأن الضيف الكريم أن يأكل من طعام مضيفه أيا كان نوع الطعام ، فما بالهم والطعام شهى وكثير ؟! .

ــ أن الإفصاح عن حقيقتهم بدأ بنصحه بترك الخوف ، فهم لا يخاف منهم ، ثم أنهم ملائكة مرسلون إلى قوم لوط ، وإبراهيم يعلم من لوط ؟ فقد آمن به سلفاً .

ــ أن وقع خبر الإهلاك للظالمين كان طيباً وخاصة فى نفس سارة ، مما يدل على أن المسلم يفرح إذا ما أذل الله سبحانه الشرك والمشركين ، ونصر الإسلام والمسلمين ﴿ **يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء** ﴾ .

ــ مع فرح سارة سواء أكان من أمر الملائكة ، أو من أمر إهلاك

الظالمين كانت الفرصة سانحة للبشرى بإسحاق ، ومن خلف إسحاق يعقوب ومن ذرية إبراهيم ، وإسحاق ويعقوب من باركه الله لأنه أحسن العمل ، وبالمقابل من ذريتهم المسيء الظالم لنفسه .

ــ أثارت البشرى نفسية سارة ، فى حين سكتت الآيات عن أثر البشرى فى نفسية الخليل ، مما يدل على موقف سارة ، وتعجبها . شأن المسلم العادى ، ومهما سما إيمانها فلن يرقى إلى درجة إيمان الخليل الرسول ــ عليه السلام ــ الذى سمع البشرى ، ورد الأمور كلها إلى الله سبحانه ، وله فى تجربة الذبح أكبر دليل على ذلك .

ــ أن روعاً أصاب الخليل إما حين رأى أيديهم لا تصل إلى الطعام ، وإما من البشرى . على أى حال فهو لم ينطق بما يثير نوعاً من الاعتراض . وحين أفاق لم يناقش البشرى ، ولكنه ناقش فى قوم لوط ، فطلب إليه الإعراض عن المناقشة فى قوم حقت عليهم كلمة العذاب لارتكابهم جريمة لم يسبقهم بها من أحد من العالمين .

ــ إذا قال الله سبحانه فلا معقب لحكمه ، ولا راد لقضائه ﴿ **كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم** ﴾ .

ــ كما نرى فى الآيات بعض صفات إسحاق ـ عليهم الصلاة والسلام.

فهو ابن نبى ومن الصالحين ، وغلام عليم ، بارك الله عليه وعلى أبيه من بيت تتنزل عليه رحمة الله ، وبركاته ، وستكون له ذرية تبدأ بابنه يعقوب ، الكريم بن الكريم بن الكريم ــ عليهم الصلاة السلام .

عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ أنه قال : قيل : يا رسول الله ، من أكرم الناس ؟ قال :

« **أتقاهم** »

فقالوا : ليس عن هذا نسألك . قال :

« **فيوسف نبى الله ، ابن نبى الله ، ابن خليل الله ..** » (٥١) .

هذا وقد كان من نسل إسحاق بنو إسرائيل منهم الظالم ، ومنهم المحسن ، ومن المحسنين أنبياء بنى إسرائيل — عليهم السلام جميعاً .

ومن نسل إسماعيل — عليه السلام — كان العرب ، ومنهم الظالم ومنهم المحسن ، وفى قمة المحسنين النبى الخاتم محمد بن عبد الله — ﷺ .

الكذبات الثلاث .

عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : أتى النبى — ﷺ — بلحم ، فقال :

« **إن الله يجمع يوم القيامة الأولين والآخرين فى صعيد واحد ، فيسمعهم الداعى ، وينفذهم البصر ، وتدنو الشمس منهم** » فذكر حديث الشفاعة ، « **فيأتون إبراهيم ، فيقولون : أنت نبى الله ، وخليله من الأرض . اشفع لنا إلى ربك ، ويقول : فذكر كذباته . نفسى نفسى ، اذهبوا إلى موسى .** » (٥٢) .

قال أبو هريرة — رضى الله عنه : لم يكذب إبراهيم — عليه السلام — إلا ثلاث كذبات : ثنتين منهن فى ذات الله عز وجل ، قوله : إنى سقيم ، وقوله : بل فعله كبيرهم هذا . وقال بينا هو ذات يوم وسارة ، إذ أتى على جبار من الجبارة ، فقيل له : إن ها هنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس فأرسل إليه فسأله عنها ، فقال : من هذه ؟ قال : أختى . فأتى سارة ، فقال : يا سارة ، ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك ، وإن هذا سألنى فأخبرته أنك أختى ،

---

(٥١) أخرجه الشيخان . اللؤلؤ والمرجان . كتاب الفضائل رقم ١٥٣٨ .

(٥٢) صحيح البخارى جـ ٤ ص ١٧٢ كتاب الأنبياء ، وقال البخارى : وتابعه أنس عن النبى — ﷺ .

فلا تكذبينى .. » (٥٣) .

وفى ضوء النصين الصحيحين السابقين نرى أن للخليل إبراهيم — عليه السلام — مواقف ثلاثة فى الدنيا ، كانت ذات أثر فى موقف رابع فى الآخرة .

وهذه المواقف على ترتيبها فى النصين كالآتى :

الموقف الأول ، وقوله : « إنى سقيم »

قال الله تعالى :

﴿ وإن من شيعته لإبراهيم ، إذ جاء ربه بقلب سليم . إذ قال لأبيه وقومه : ماذا تعبدون ؟ أئفكاً آلهة دون الله تريدون ، فما ظنكم برب العالمين ؟ فنظر نظرة فى النجوم ، فقال : إنى سقيم . فتولوا عنه مدبرين ، فراغ إلى آلهتهم فقال : ألا تأكلون ؟ ما لكم لا تنطقون ؟! فراغ عليهم ضرباً باليمين ، فأقبلوا إليه يزفون . قال : أتعبدون ما تنحتون ؟ والله خلقكم وما تعملون . قالوا : ابنوا له بنياناً فألقوه فى الجحيم . فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين ﴾ (٥٤) .

وضحت هذه الآيات الموقف الذى ورد فيه قوله تعالى على لسانه : **﴿ إنى سقيم ﴾** .

فإبراهيم — عليه السلام — من شيعة نوح — عليه السلام — وامتداد للنبوة والدعوة إلى الله سبحانه .

---

(٥٣) أخرجه الشيخان . اللؤلؤ والمرجان . كتاب الفضائل ، باب من فضائل إبراهيم الخليل — ﷺ — رقم ١٥٣١ ص ٦٢٣ . وصحيح البخارى جـ ٤ ص ١٧١ كتاب الأنبياء ، باب قوله تعالى : **﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾** وعزاه ابن كثير أيضاً إلى أصحاب السنن فى تفسيره لسورة الصافات جـ ٦ ص ٢١ عند قوله تعالى : **﴿ إنى سقيم ﴾** .

(٥٤) سورة الصافات ، الآيات من ٨٣ إلى ٩٨ .

والله سبحانه يخبر بأنه قد سلم قلبه من أى شائبة من الانحراف ، وقد دلل الله على سلامة القلب ونقائه ببيان موقفه من القوم وفيهم أبوه ، وكذلك موقفه من أصنامهم .

فقد سخر إبراهيم ــ عليه السلام ــ من أصنامهم وعبادتهم إياها ؛ وذلك عن طريق هذا الاستفهام الإنكارى ﴿ **ماذا تعبدون ؟** ﴾ فهو يعلم ماذا يعبدون ، ولكنه يسخر منهم ، وينكر عليهم تلك العبادة الباطلة .

واتهمهم بالكذب فى حق الله سبحانه ؛ حيث عبدوا أصناماً وصفوها كذباً بالآلهة .

وبين لهم فى نفس الوقت الطريق الصحيح إلى عبادة رب العالمين ، رب الكون كله ، بما فيه من شمس وقمر وكواكب ، وأرض ودواب وإنس وجن ، وشجر وحجر . رب العوالم كلها .

وأضافت آيات أخرى ما ورد على ألسنة القوم من دعاوى .

إنهم ﴿ **قالوا : وجدنا آباءنا لها عابدين** ﴾ وليس عندنا من وقت لنفكر فى تغيير ما ورثناه من تقاليد .

وعلى الرغم من أنه قال لهم : ﴿ **لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين** ﴾ [(٥٥)] وفتح عقولهم لتناول الميراث البشرى بالنقد أعادوا الكرة عليه ساخرين : ﴿ **قالوا : أجئتنا بالحق ، أم أنت من اللاعبين** ﴾ [(٥٥)] فوضح لهم بدوره هذا الحق المستفهم عنه ﴿ **قال : بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن ، وأنا على ذلك من الشاهدين** ﴾ [(٥٥)] .

وهنا كان العزم والتصميم على عمل مؤثر ، وموجع فى نفس الوقت فأقسم بالله سبحانه ﴿ **وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين** ﴾ [(٥٥)] .

وسواء سمع القوم بذلك أم لا فإبراهيم ــ عليه السلام ــ قد عزم على

---

(٥٥) سورة الأنبياء الآيات ٥٣ ــ ٥٧ .

الكيد للأصنام والقوم ، وعليه أن يضع الخطة المحكمة لتنفيذ ما عزم عليه . وهل ينفع كيد على نحو بالغ وموجع والقوم حاضرون ؟

إنه يلزم أن ينتهز فرصة غيابهم وتوليهم ، وإدبارهم ، ليقوم بتنفيذ الخطة طلبوا إليه الذهاب معهم ، والرجوع بصحبتهم ﴿ **فقال : إنى سقيم** ﴾ ومن معانى السقم المرض ، والضعف على أى نحو من الأنحاء ، كلمة يمكن أن تنسحب على أى حالة من حالات الإنسان فى إطار الضعف أو الهزال ، أو المرض أو ...

وإن فى المعاريض لمندوحة عن الكذب ، وقد كان النبى ــ ﷺ ــ إذا أراد غزوة ورى بغيرها إلا فى تبوك .

فلم اعتبرها الخليل إبراهيم نفسه كذبة من الكذبات ، والموقف على هذا النحو ؟ سلامة قلب ، وإنكار لمنكر باليد ، واللسان ، وتحطيم للطاغوت .؟

إن درجات الرسل الكرام ، العالية مكانتهم عند الله ، هى التى تجعلهم فى هذا المستوى من الحساسية ، فيتصورون ما فيه أدنى شبهة من الكذب فى حق الله سبحانه ، كبيراً وضخماً . وليس الأمر على الكذب الصريح والإفك والبهتان فهو قد جاء منكراً على قومه الإفك لا داعياً إليه حاشاه عن ذلك .

الموقف الثانى ، وقوله : « بل فعله كبيرهم هذا » .

هذا الموقف امتداد للموقف السابق ، وقد عرفنا فيه عزم إبراهيم ــ عليه السلام ــ فقد توجه إلى الطواغيت الممثلة فى الأصنام ؛ إبراراً لقسمه السابق ، وتنفيذاً لتأكيده وتصميمه .

قال الله تعالى موضحاً هذا الموقف :

﴿ فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم ؛ لعلهم إليه يرجعون ، قالوا : من فعل هذا بآلهتنا ؟ إنه لمن الظالمين ، قالوا : سمعنا فتى يذكرهم يقال له : إبراهيم . قالوا : فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون . قالوا : أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ قال : بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ، إن كانوا ينطقون ، فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا : إنكم أنتم الظالمون ، ثم نُكسوا على

رءوسهم ، لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ، قال : أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ، أف لكم ولما تعبدون من دون الله ، أفلا تعقلون ؟ قالوا : حرقوه ، وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم ، وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين ﴾ (٥٦) .

وقال أيضاً فى سورة أخرى :

﴿ فراغ إلى آلهتهم ، فقال : ألا تأكلون ؟ مالكم لا تنطقون ؟ فراغ عليهم ضرباً باليمين ، فأقبلوا إليه يزفون . قال : أتعبدون ما تنحتون ؟ والله خلقكم وما تعملون ، قالوا : ابنوا له بنياناً فألقوه فى الجحيم ، فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين ﴾ (٥٧) .

وتوضح الآيات المرحلة الحاسمة فى مواجهة الباطل ، وإعمال القوة حين لم تُجد الكلمة ، مع التوقع البصير للنتائج المترتبة على إعمال هذه القوة .

إنه قد توجه إلى تلك الأصنام ، وقد قدم الجاهليون إليه قرابين ساقوها إليها .

وقال الخليل هازئاً متهكماً : ألا تأكلون ؟ وإذا ما فقدت أيتها الأصنام الاستمتاع بما قُدم إليك من شهى الطعام فكيف يعبدك الجاهليون المشركون؟ وقام فحطمها وكسرها جميعاً ، إلا الصنم الأكبر موضوع الموقف الثانى . وتعلل الآيات السبب فى تركه هذا الصنم ؛ لعلهم إليه يرجعون ، فيكون الحوار الساخن ، حيث يأخذ إنكار المنكر مرحلته الأخيرة .

رأى القوم ما حدث بأصنامهم ، فأصابهم ذعر ودهشة ، وبدأ البحث عمن تجرأ وفعل تلك الفعلة ، وتذكروا ما حدث بالأمس من موقف إبراهيم منها ، فأيقنوا أنه هو ، وكانت محاكمة على الرغم من عنفها ولكنها لم تكن كتلك المحاكمات المغلقة ، والجلسات السرية التى تعقدِ فى القرن العشرين ، لتخفى مخازيها

---

(٥٦) سورة الأنبياء ، الآيات من رقم ٥٨ إلى رقم ٧٠ .

(٥٧) سورة الصافات ، الآيات من رقم ٩١ إلى رقم ٩٨ .

المنتنة ، مدعية أن فى السرية حرصاً على مصالح وطنية ، إن محاكمة الخليل إبراهيم — عليه السلام — كانت على ملأ من الناس ، لعلهم يشهدون ، وكما سيحدث من طلب كليم الله موسى — عليه السلام — حين قال : موعدكم يوم الزينة ، وأن يُحشر الناس ضحى . قال قوم إبراهيم له : أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ وتأتى الإجابة الشجاعة الثابتة من شقين ، وكل من الشقين يعتمد على الهزء والسخرية بالقوم برغم أنهم ملأ مجتمعون ، وقد أتوا بعامة الناس تشهد المحاكمة .

قال الخليل — عليه السلام : أتعبدون ما تنحتون ؟ أنتم الذين صنعتم تلك الأصنام بأيديكم ، فكيف بكم وقد وضعتم أنفسكم دونها والأمر على العكس مقبول ؟ تماماً كما يحدث من طواغيت البشر فى القرن العشرين ، يستخفون بالبشر ، ويحتقرونهم ، ويحرمونهم الرأى والتفكير ، فإذا بالبشر المسحوق يعبدونهم ويقدسونهم ويطيعونهم ﴿ **استخف قومه فأطاعوه** ﴾ .

وقال الخليل أيضاً إجابة عن سؤالهم : بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ؟

إنهم يدرون تماماً أنهم لا ينطقون ، وإبراهيم يعلم ذلك قبلهم ، وهم يعلمون أنهم لا يستطيعون دفع تكسير أو تحطيم لهم ، وكذلك إبراهيم عليه السلام .

ولكن الموقف موقف تحد وإنكار ، تحد من واحد لا يملك من البشر أحداً ولا نصيراً ضد المجتمع الجاهلى بكل قواه . تحركت يد إبراهيم فى إنكار المنكر ، وتحرك لسانه فى إبطاله ، وتحرك عقله وقلبه فى صوغ الحجج والبراهين الدالة على إبطال المنكر ، وإحقاق الحق .

واستغل كل الوسائل ، من صريح القول ، ومن ألفاظ السخرية والتهكم ومن تلك الألفاظ : بل فعله كبيرهم هذا ، فكيف اعتبرت كذبة ؟

إنها حساسية المؤمن حين يتصور ما فيه أدنى شبهة كبيراً فى حق الله سبحانه وتعالى ، إنها منزلة لا يرقى إليها إلا الأنبياء والمرسلون ، ومن سار على دربهم .

وحاشاه عن الكذب الصراح ، أو ما يقرب من الصراح ، وجزى الله الداعين إليه على جهادهم ، ومواقفهم الشجاعة ، وصبرهم على عذاب الدنيا ونارها ...

الموقف الثالث : وقوله عن سارة « أختى »

حُرم الخليل ــ عليه السلام ــ الأمن ، والأمان بين أهله ، وقومه ، حين أعلنت جاهلية النمرود بأرض العراق قديماً أن يعاقب الداعية إلى الله سبحانه عقوبة الزانى المحصن رجماً بالحجارة حتى الموت ، ويكون الموكل بنطق الحكم الجاهلى آزر نفسه والد إبراهيم . هكذا تمسخ الجاهلية العلاقات الإنسانية وتشوهها .

وحين دبر لهم ، وحطم آلهتهم ، وصنعوا له بنياناً وألقوه فى الجحيم ، ولكن الله القوى الذى لا يُغلب ولا يُقهر ، نصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، وأنجى الخليل إبراهيم ، وجعل الجاهليين الأخسرين الأسفلين .

وفكر الخليل فى تغيير المكان لعله يجد أناساً أرق أفئدة ، وألين قلوباً ، فيتجه إلى مصر ، باحثاً عن الأمن الذى فقده بين قومه وأهله ، وتكون تجربة أشد من نوع آخر فى وطن الغربة فى مصر ..

إنه يواجه طاغية مصر آنذاك ، وقد تردى فى الفحش وانتهاك أعراض النساء ، وسعد الجنود القوَّادُون وهم يجوبون شوارع البلدة ، بحثاً عن الجميلات من النساء ، بكراً أو زوجة ؛ لتُساق باسم النظام السياسى هدية إلى جبار مصر وطاغيتها ، وفى تلك المعمعة جاء الخليل وزوجه سارة ، وكانت على نصيب كبير من الجمال ، فأى حول وأى طول يملكه الخليل وزوجه غير حول الله وطوله ، وقوته ... إن كانت الساقطات العاهرات يرين فى اختيارهن حظوة فيسْرعن لأول هاتف ، ولا يرددن يد لامس ، وقد يسعين إلى ذلك رغبة فى مادة ، أو وقوفاً على سرّ ، أو انتزاعاً لأرض ، فالنساء الحرائر على غير هذا النمط الساقط فى عالم يزعم الحرية .

وكانت سارة من نمط الحرائر التى لاتأكل بثدييها .

إن ذلك الجبار يسأل عن الرفيق للمرأة ، فإن علم أنه زوج ذبحه ذبح النعاج ، وأخذ المرأة يستمتع بها متى شاء ، وكيف شاء ، والجنود جميعاً يقدمون

له المرأة راضين ، ويقومون بقطع رقبة الزوج ملبين ...

وإن كان الرفيق غير زوج نجا من الذبح ، وبقيت الأحوال الأخرى تجرى كما يراها الجبار ...

هذا هو الموقف .

أيفصح الخليل عن حقيقة الصلة بينه ، وبين سارة أم يرى فى المعاريض مندوحة ، والتورية مهرباً ؟؟

وقد علمنا الشرع الحكيم أسلوب المواجهة فى مثل هذه المواقف فأى صلة تجمع بين الزوجين هنا غير الزوجية ؟ إنها الأخوة فى الدين ، وقد مر بنا ما قاله الخليل — عليه السلام — « **يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك** » فإذا ما قال : هذه أختى فنحن أمام تفسير للأخوة ، تفسير قريب وهو الأخوة فى النسب ، وتفسير بعيد وهو الأخوة فى الدين ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾ والتورية فى علم اللغة هى أن يكون للفظ معنيان ، معنى قريب ، ومعنى بعيد ، يضمر القائل فى نفسه المعنى البعيد ، ويموه على المخاطب بالمعنى القريب ، وهذا ما حدث . وهذا ما كان يستعمله النبى — ﷺ — فى الغزوات ...

ويطرح السؤال نفسه هنا .

فلم إذن والحال هذه يعتبر الخليل هذا خطأً كبيراً ؟

إنها الحساسية الإيمانية التى لا يتذوقها إلا من امتلأ قلبه بالإيمان من الأنبياء والصالحين ، ممن يتحرون صدق الكلمة مع أنفسهم ومع الله رب العالمين .

الموقف الرابع ، وقوله حين الشفاعة : « نفسى نفسى »

فى حديث الشفاعة الذى أخرجه الشيخان فى فصل سابق (٥٨) عرفنا أن الخلائق وقد أصابهم الفزع والهول يذهبون إلى آدم — عليه السلام —

---

(٥٨) فصل آدم — عليه السلام — والشفاعة رقم ٤٦ ، ارجع إلى الحديث بتمامه هناك .

مستشفعين ، فيقول : ربى ... نهانى عن الشجرة فعصيته . نفسى ، نفسى . ويذهبون إلى نوح ــ عليه السلام ــ فيقول أيضاً : نفسى نفسى . وفى نص الحديث بهذا الفصل عرفنا أيضاً أنهم يذهبون بدورهم إلى الخليل إبراهيم ــ عليه السلام ــ فيذكر كذباته ، ويقول : نفسى نفسى ...

إن آدم ــ عليه السلام ــ سمى الأكل من الشجرة معصية ، وذلك حق فى ذاته ، ولكن الله سبحانه اجتباه بعد ذلك فتاب عليه وهدى ، وإن الحسنات يذهبن السيئات ، ولكن الحساسية الإيمانية جعلت أمر الشجرة رقيباً على آدم ، بمعنى الخوف ، والحذر الدائمين من معصية لله سبحانه فى مستقبل الأيام ، وتظل هذه الحساسية حتى يوم القيامة ؛ ليقوم بالشفاعة العظمى أفضل الأنبياء ، وخاتمهم ؛ محمد ــ ﷺ ــ ونفس الأمر من الخليل ، وقد تمثلت له هذه المواقف الثلاثة ، على الرغم من مبرراتها ، لتكون الشفاعة لصاحب الشفاعة . « **سيد القوم يوم القيامة** » .

دروس وعبر :

نأخذ فى ضوء صفات الخليل ــ عليه السلام :

ــ أن الله سبحانه يختار لدعوته من يلتزم طاعته ، ويوفى الأعمال حقها.

ــ أن إمامة البشرية تسبقها اختبارات للإنسان الذى يقودها إلى بر الأمان ، فقد اتخذ الله نبيه خليلاً ، وجعله إماماً بعد أن اختبر فأتم الاختبارات ووفاها حقها .

ــ من الناس من يكون كأمة ، كما كان الخليل ــ عليه السلام ــ وعلى نفس الدرب حين طلب خالد بن الوليد إلى أبى بكر مدداً فأمده الخليفة الصديق بالقعقاع بن عمرو ، وقال له : رجل بألف ، وقد كان عند حسن الظن به حين أبطل مؤامرة القائد الفارسى فى معركة كاظمة .

ــ المواصفات التى يُختار على أساسها إمام الناس ، وحاكمهم :

(ا) إخلاص العمل لله سبحانه ، ويظهر هذا الإخلاص فى أعماله . « حنيفاً » .

(ب) البعد عن أى مظهر من مظاهر الشرك ، وعن السكوت عنه ، وعدم محاربته « ولم يك من المشركين » .

(جـ) الذهن المتفتح ، والقدرة على التصرف أمام المشكلات « رشده » .

(د) ألا يجعل من منهجه تحطيم من سبقه من الأئمة والحكام ، فقد رفض النبى الخاتم أن يوصف بما اختص به الخليل خير البرية ــ عليهما الصلاة والسلام .

(هـ) ألا يكون به عيب جسمى ؛ حتى لا يعيقه عن عمل ما ، لا انتقاصاً له ، ولكن رحمة به ، وبالأمة . فليس له فى وجود عيبه يد .

ــ أن الله سبحانه يحشر الناس يوم القيامة كما خلقهم أول مرة ، وأن المفاضلة بينهم على أساس عملهم الصالح فى الدنيا .

ونأخذ فى ضوء تأمله فى الكون .

ـــ أن الله سبحانه سخر لنا الكون ، وطلب إلينا أن نتأمله لهدفين :

(ا) الإيمان العميق بالله سبحانه ، وأنه الخالق وحده لهذا الكون ، المستحق وحده للعبادة .

(ب) التعرف على هذا الكون ، وكشف طاقاته ، واستغلالها ، والتنقيب عن خاماته وتصنيعها ، وأن هذا الكون مسخر للإنسان على هذا الشكل ، ولا يصح من الإنسان أن يعبد شيئاً من هذا الكون .

ـــ لا يخدش المسلم أن يطلب ما يزداد به يقيناً وإيماناً ، فقد طلب الخليل ـــ عليه السلام ـــ إلى ربه أن يريه كيف يحيى الموتى ؟ .

ـــ مقارعة الملحدين ، والتعرف على أساليب إفحامهم ، بقصد إضعاف شوكتهم ، دون اللجاجة فى ذلك ؛ فمن صفات عباد الرحمن إذا خاطبهم الجاهلون قالوا : سلاماً .

وفى ضوء الحوار مع الوالد :

ـــ أن المسلم يبدأ دعوته بإنذار عشيرته الأقربين « قال لأبيه آزر » ويمثل هذا البدء مرحلة فقط دون توقف . آمن الأقربون أم لم يؤمنوا . فلم تتوقف دعوة الخليل ـــ عليه السلام ـــ بإصرار آزر على الشرك ، ولم تتوقف دعوة النبى الخاتم ـــ ﷺ ـــ بإصرار أبى لهب ، وأبى طالب على الكفر .

ـــ وضوح الدعوة منذ اللحظة الأولى فى حياة الداعية المسلم ، فلا طواغيت ولا أصنام ولا شرك ، ولكنها دعوة التوحيد والتى تشمل كل حياة الإنسان .

ـــ تمجيد الله سبحانه بما هو أهله ، ولفت الانتباه دائماً إلى صفات الله سبحانه .

ـــ على الداعية أن يتوقع حرباً معلنة عليه ممن يتكسبون من الشرك والإلحاد وقد تعلن هذه الحرب من أقرب الناس نسباً إلى المسلم ؛ كما حدث من آزر .

ـــ ولا يفت فى عضد الداعية تهديد ، ووعيد من البشر ؛ لأنه يتعامل مع الله سبحانه ـــ فليصبر ، وليتدرج فى دعوته مرحلة مرحلة .

ـــ تبدأ الدعوة إلى الله بمقارعة الحجة بالحجة ، وللمرء أن يختار أسلوب الإنكار باليد إذا ما وجد من نفسه القدرة على ذلك ، ووازن بين مفسدة متوقعة للدعوة ، وخير يَدْعَمُها ، ويقوى عودها ، فيفعل الداعية ما يناسب ظروفه ، وظروف دعوته ، وظروف قومه .

ـــ أن الله سبحانه يجعل من كلمته هى العالية مهما بلغ التسلط من الطغاة ؛ فهذا هو الخليل يخرج من النار سالماً ، والقوم يصابون بالخسران .

وفى ضوء اعتزاله :

أن الداعية بحركة ذهنية دائمة ، إذا لم تُجدْ الحجة أعمل اليد ، وإذا لم يُجدِ إعمال وفقد الأمان فى وطنه ، عليه أن ينشد الأمان فى بقعة أخرى .

ـــ أن الداعية تربطه بالناس دعوته ، فإذا ما كان إيمان منهم ثبتت وقويت ، وإذا ما أصروا على الكفر والعداء لله سبحانه ، وشرعه ، تبرأ منهم ، وركن إلى الله العزيز القهار ، وفى رحاب من آمن بالتوحيد .

ـــ أن المسجد الأقصى بارك الله حوله ، والله سبحانه يحب من عباده المسلمين أن يكون شرف الدفاع عنه ، وتحريره من اليهودية والصليبية من أقدس واجباتهم .

وفى ضوء الحديث عن إسماعيل ــ عليه السلام :

ــ أن نعمة الولد متى كان صالحاً طائعاً لله سبحانه ، ولذا عُدّ إسماعيل بشرى ؛ لأنه صادق الوعد ، يأمر بالخير ، مرضى عند ربه ، حليم ، وليس كذلك ابن نوح ــ عليه السلام ــ الذى حقت عليه كلمة العذاب بكفره ، فكان من المغرقين .

ــ أن نعمة الأمن ليست بتلك الحضارات الزائفة ، فالخليل لم يجد أمناً بحضارة العراق ، ونمرودها ، وحضارة مصر وجبارها ، ولكنه وجد الأمن بواد غير ذى زرع عند بيت الله المحرم .

ــ أن مسيرة الدعوة إلى الله سبحانه متصلة الحلقات على مدى التاريخ الطويل ، فالخليل يدعو لمن يأتى بعده ، والمسلمون الآن يؤدون مناسك بدأتها هاجر أم إسماعيل ــ عليه السلام .

ــ أن الله سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، وبذل جهداً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، وسيفجر الماء لعباده من أرض قاحلة جرداء ، تظل أحقاباً طويلة ، وها هو ماء زمزم .

ــ على المسلم أن يتخير لنطفه فإن العرق دساس ، ويختار ذات الدين الراضية الصابرة ، والجندية فى ميدان الدعوة إلى الله سبحانه ؛ فقد فارق إسماعيل ــ عليه السلام ــ من اتخذت السخط سبيلاً وعادة ، وسعد بمن صبرت وصابرت ، وكان منها النبى الخاتم محمد بن عبد الله ــ ﷺ .

ــ تَعَلُّمُ الرمى « **ارموا بنى إسماعيل ؛ فإن أباكم كان رامياً** » [(٥٩)] وجعل

---

(٥٩) قال يزيد بن أبى عبيد : سمعت سلمة بن الأكوع – رضى الله عنه – قال : مر النبى – ﷺ – على قوم ينتضلون ، فقال – ﷺ : « **ارموا بنى إسماعيل فإن أباكم كان رامياً** ... » البخارى كتاب الجهاد ، باب التحريض على الرمى ، ج ٤ ص ٤٥ طبعة كتاب الشعب .

وروى فى هذا الشأن أيضاً أحاديث أخرى ، المختصر ج ٢ ، ص ٥٢ أرقام ١١٠٢ ، ١١٠٣ ، ١١٠٤ .

هذه المهارة الحربية فى الخطة التربوية للجيل المسلم .

ــ على الوالد ألا يكتم النصيحة للولد بشأن الزوجة شريطة أن تكون النية الخالصة متوفرة ، كما طلب الخليل إلى ابنه إسماعيل فى الفراق ، والإمساك .

ــ على الرغم من صحة العمل فالمسلم يلهج لسانه دائماً بالثناء على الله سبحانه ، وأن يرجو منه أن يتقبل هذا العمل .

ــ رعاية بيوت الله سبحانه بإبعاد أى مظهر من مظاهر الشرك عنها ، وتنظيفها ، وتعيين من يخدمها ويرعاها ؛ شريطة ألا توجد فتنة ، وألا تكون باستعجال الأحداث قبل أوانها ، فقد ظل النبى ــ ﷺ ــ يصلى بالكعبة ، وقد أقيم فيها ثلاثمائة وستون صنماً كما روى البخارى ، ولم يحطمها ويكسرها إلا عند الفتح ، والفرق بين الأمرين واضح وظاهر .

وأن لمجرد الخوف من الفتنة أيضاً عدل النبى ــ ﷺ ــ أيضاً عن بناء الكعبة على قواعد إبراهيم ــ عليه السلام .

وفى ضوء قصة الذبح والفداء :

ــ أن درجة الاختبار تتناسب ودرجات الإنسان ، فلا يكلف المرء عملاً هو دون هذا العمل ؛ مخافة النكوص والردّة ، وأن الناس يعرفون بالحق ، ولا يعرف الحق بالناس إلا إذا كان معصوماً يبلغ عن الله سبحانه .

ــ أن الطاعة للرسل ــ عليهم الصلاة والسلام ــ هىَ فى حقيقة الأمر طاعة لله سبحانه ، ولذلك قال إسماعيل لأبيه ــ عليهما السلام : ﴿ **افعل ما تؤمر** ﴾ وأن المسلم يعلق الأمر بمشيئته سبحانه . ﴿ **ستجدنى إن شاء الله** ﴾

ــ سرعة الاستجابة والفهم لأمر الله تعالى ؛ فالخليل ــ عليه السلام ــ رأى أنه يذبح إسماعيل ــ عليه السلام ــ ففهم الأمر برغم عدم ورود الأمر صراحة ، ولم يعلل ؛ هروباً من الامتثال .

ــ الاعتماد على الشورى فى حياتنا ، فعلى الرغم من التكليف الإلهى فى

الرؤيا ، فقد استشار الخليل ابنه إسماعيل ــ عليهما السلام ؛ لأن الأمر يتعلق بهما سوياً ، وليس بالوالد فقط .

ــ أن العدو الأول للمسلم هو الشيطان يحاول من كل الطرق أن يثبط الهمة فى طاعة الله سبحانه ، وعلى المسلم أن تتضح فى ذهنه هذه الصورة ، ويتعرف على أساليبه ومداخله إلى النفس ليحذره .

وفى ضوء سيرة إسحاق ــ عليه السلام :

ــ أن المسلم يفرح إذا ما أصابت الطاغية هزيمة وإهلاك بعد استنفاد كل الوسائل فى دعوته ، وأنه يعلن الحرب عليه إذا ما توفرت لديه القوة . فقد فرحت سارة حين علمت بإهلاك قوم لوط ــ عليه السلام .

ــ أن العجب والدهشة لا يناقضان الإيمان ، ولكنهما لا يدلان على سموه فقد سَلَّم الخليل بالبشرى ، ولم يناقش فى حين وقفت سارة موقف المستغرب .

ــ أن القادم يلقى التحية ، ويرد عليه بمثلها أو أحسن منها ، وفاز الخليل بالأحسن ، وذلك من شيمة الأنبياء والصالحين .

ــ أن إكرام الضيفان من صفات المؤمنين ، ودرجة الإكرام تتناسب وأقدار المضيف ، لا أقدار الضيف . فقد قدم الخليل عجلاً سميناً قبل أن يعلم من الضيفان ؟ وما حقيقتهم ؟ .

ــ وكما كانت البشرى بإسماعيل ، كانت أيضاً بالنسبة لإسحاق ــ عليهما السلام ؛ لأنه سيكون نبياً ، ومن الصالحين ، وعلى علمٍ ، ومبارك ، تتنزل عليه رحمات الله سبحانه ، ومن أكرم الناس .

ولا تكون البشرى إلا بما يرضى الله سبحانه ، وهكذا كان كل من الوالدين .

وفى ضوء المواقف الأربعة :

ــ التحايل على الجاهلية لضربها الضربات الموجعة ، وعدم كشف الخطة التى تُوضع . والحرص على الكتمان بكل صوره ، ولنا فى موقف الخليل وقد عزم على تحطيم الأصنام ــ والنبى ــ عليهما السلام ــ فى الفتح عبرة وعظة .

ــ كلما سما المسلم فى إيمانه ازدادت حساسيته الإيمانية ، والحذر مما فيه أدنى شبهة من الخطأ .

ــ أن يَصْدِمَ المسلمُ الطاغية المستبد فى شعوره ؛ ليصاب بالإحباط ، والترنح ، والضعف ، ويكون ذلك فى مصلحة الدعوة ..

ــ أن الجاهلية المعاصرة فاقت الجاهلية الأولى فى التعتيم الإعلامى ، والجلسات المغلقة ؛ ستراً لعيوبها ومخازيها .

ــ وأن الجاهلية تعمل على نشر الفحش ، وانتهاك الأعراض والحرمات وقتل من يدعو إلى الطهر ، وأن الله القوى يحفظ أولياءه وينصرهم .

ــ أن صاحب الشفاعة العظمى هو خاتم الأنبياء والمرسلين ــ عليهم الصلاة والسلام .

يوسف ـ عليه السلام

ـ أكرم الناس .
ـ الرؤيا .
ـ يوسف ـ عليه السلام ـ وإخوته .
ـ فى الطريق إلى مصر .
ـ عفة يوسف ـ عليه السلام ـ وطهره .
ـ افتضاح أمر الزوجة ، وتبريرها لرغبتها .
ـ يوسف ـ عليه السلام ـ بالسجن يدعو إلى الله تعالى ، ويؤول الرؤيا .
ـ رؤيا الملك .
ـ يوسف ـ عليه السلام ـ وزير على خزائن الأرض .
ـ لقاؤه بالإخوة .
ـ البراءة من الإهمال .
ـ تحرك إيجابى .
ـ فرحة اللقاء .
ـ دروس ، وعبر .

أكرم الناس

قيل : يا رسول الله ، من أكرم الناس ؟ قال :

« أتقاهم »

فقالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال :

« فيوسف نبى الله ، ابن نبى الله ، ابن نبى الله ، ابن خليل الله »

قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال :

« فعن معادن العرب تسألون ؟ خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا » (١) .

قال الإمام النووى (١) فى شرحه للحديث : قال العلماء : لما سئل ـــ ﷺ ـــ أخبر بأكرم الكرم ، وأعمه ، فقال : « **أتقاهم لله** » مصداقاً لقوله تبارك وتعالى : ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ (٢) وقد ذكرنا (أى النووى) أن أصل الكرم كثرة الخير ، ومن كان متقياً كان كثير الخير ، وكثير الفائدة فى الدنيا ، وصاحب الدرجات العلا فى الآخرة ؛ فيوسف نبى الله ؛ لأنه ـــ ﷺ ـــ جمع مكارم الأخلاق مع شرف النبوة ، مع شرف النسب ، وكونه نبياً ابن ثلاثة أنبياء متناسلين ، أحدهم خليل الله ـــ ﷺ ـــ وانضم إليه شرف علم الرؤيا ، وتمكنه فيه ، ورياسة الدنيا وملكها بالسيرة الجميلة ، وحياطته للرعية ، وعموم نفعه إياهم ، وشفقته عليهم ، وإنقاذه إياهم من تلك السنين الجدباء .

وكان هذا من إتمام نعمة الله سبحانه على يوسف ـــ عليه السلام ـــ وعلى آله ﴿ **ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم**

---

(١) أخرجه الشيخان عن أبى هريرة ـــ رضى الله عنه ـــ اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الفضائل رقم ١٥٣٨ ص ٦٢٥ ، ٦٢٦ ، وكلام النووى التالى بالهامش .

(٢) سورة الحجرات ، الآية رقم ١٣ .

وإسحاق ﴾ (٣) .

ولذا كان كل من إسحاق ويعقوب محل بشرى ، ومحل الهدية المقدمة للخليل ، ومحل الصلاح ، والتقوى ، والإمامة ﴿ **ووهبنا له** (أى إبراهيم) **إسحاق ويعقوب نافلة ، وكلا جعلنا صالحين ، وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا** ﴾ (٤) وجاء يوسف — عليه السلام — على نفس الطريق ، حيث قال : ﴿ **واتبعت ملة آبائى : إبراهيم ، وإسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ، ذلك من فضل الله علينا ، وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون** ﴾ (٥) ، وكان فى قوله هذا شكر لله سبحانه على ما آتاه من فضل ، وإمامة ، وصلاح ، وتمام نعمة ؛ فاستحق أن يكون أكرم الناس — عليه الصلاة والسلام — ويقيم مع أبيه فى أرض بارك الله فيها .

الرؤيا .

عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : سمعت رسول الله — ﷺ — يقول :

« لم يبق من النبوة إلا المبشرات »

قالوا : وما المبشرات ؟ قال :

« الرؤيا الصالحة » (٦) .

---

(٣) سورة يوسف ، الآية رقم ٦ .
(٤) سورة الأنبياء ، الآيتان ، رقما ٧٢ ، ٧٣ .
(٥) سورة يوسف ، الآية رقم ٣٨ .
(٦) أخرجه البخارى ، كتاب التعبير ، باب المبشرات ، جـ ٩ ص ٣٩ ، ٤٠ .

وعنه ، وعن عبادة بن الصامت (٧) ، وأنس بن مالك — رضى الله عنهم — أن النبى — ﷺ — قال :

« رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » (٨) .

وعن أبى سعيد الخدرى — رضى الله عنه — أنه سمع النبى — ﷺ — يقول :

« إذا رأى أحدكم رؤيا يحبها ، فإنها من الله ، فليحمد الله عليها ، وليحدث بها ، وإذا رأى غير ذلك مما يكره فإنما هى من الشيطان ، فليستعذ من شرها ، ولا يذكرها لأحد ، فإنها لا تضره » (٩) .

وعن أبى قتادة (١٠) – رضى الله عنه – مثل ذلك (١١) .

تدل الأحاديث النبوية على أن الرؤيا المبشرة حق ، وأن على من رآها أن يحدث بها من يحبه من الناس ، وأن يحمد الله سبحانه على أن بشره بهذه البشرى .

وقد كان من يوسف — عليه السلام — أن رأى وهو صغير تلك الرؤيا المبشرة ، ورأى أحد عشر كوكباً ، والشمس والقمر ساجدين له ، وحكى هذه

---

(٧) هو أبو الوليد ، عبادة بن الصامت بن قيس ، الخزرجى ، الأنصارى ، السالمى . كان من نقباء الأنصار ، وشهد العقبة الأولى ، والثانية ، والثالثة ، وشهد بدراً ، والمشاهد كلها ، وجهه عمر – رضى الله عنه – إلى الشام قاضياً ، ومعلماً ، فأقام بحمص ، ثم انتقل إلى فلسطين ، ومات بها فى الرملة ، وقيل فى بيت المقدس . سنة أربع وثلاثين ، وهو ابن اثنتين وسبعين سنة . سبل السلام للصنعانى ج ٢ ، ص ١٦٨ .

(٨) أخرجه الشيخان ، اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الرؤيا رقم ١٤٥٧ وما بعده .

(٩) أخرجه البخارى ، باب رؤيا الصالحين جـ ٩ ص ٣٨ ، ٣٩ .

(١٠) اسمه فى أكثر الأقوال : الحارث بن رِبْعِىّ الأنصارى ، فارس رسول الله — ﷺ — شهد أُحداً وما بعدها ، وكانت وفاته سنة أربع وخمسين بالمدينة ، وقيل مات بالكوفة فى خلافة أمير المؤمنين على – رضى الله عنه – وشهد معه حروبه كلها .

(١١) اللؤلؤ والمرجان رقم ١٤٥٦ .

الرؤيا لأبيه يعقوب ـــ عليهما السلام ـــ فى تعبير يدل على تبادل المودة بينهما .

فيوسف ينادى بقوله : « **يا أبت** » بتاء تدل على رقة فى النداء .

ويعقوب يناديه بقوله : « **يا بنى** » وينصحه بكتمان هذه الرؤيا عن إخوته ؛ لما فيها من تكريم ليوسف ـــ عليه السلام ـــ دونهم ، ثم هو يبين له أنه يسير فى مسيرة النبيين الذين أنعم الله عليهم من إبراهيم ، وإسحاق ثم يعقوب ـــ عليهم السلام .

فماذا كان من أمر هذه الرؤيا فى عالم الواقع ؟ ومتى ؟ وأين ؟

يوسف ـــ عليه السلام ـــ وإخوته :

بدأت قصة يوسف ـــ عليه السلام ـــ منذ أن كان صغيراً ، وقد كان أصغرهم ، ويدل على ذلك جملة أمور :

ـــ فالإخوة حين تَسَابُقهم كما زعموا ، قالوا : تركناه عند متاعنا ، إذن لم يكن بالقدرة على مشاركة من هم أقوى منه ، وأكبر سناً .

ـــ والتمكن من ربطه ، وإلقائه فى الجب ، ويُسْرُ ذلك عليهم ؛ لأنه أصغرهم ، وإذا كان كبيراً فى السن احتاج تنفيذ الإلقاء إلى معاناة ، قد تفشل فيفتضح أمرهم سريعاً .

وإلقاؤه بهدف التقاط المارة له يدعم ذلك .

ـــ وخوف الوالد عليه لا محل له إذا ما كان يافعاً قوياً ، لا يتوجه إليه ذئب ليفترسه .

وقد نرى فى حياتنا الآن ما يوصى به الوالد أبناءه الكبار مع أخيهم الصغير .

ولأن يوسف ـــ عليه السلام ـــ صغير السن كما ظهر ازداد الحنو عليه ،

والحب له ، والوصية به ، وشاركه فى هذا من اقترب منه عمراً ، وكان شقيقاً له [١٢] .

ورأى الأبناء الكبار هذا التعلق الظاهر من الوالد ، وفسروه تفسيراً خاطئاً ، وضخم الشيطان تصورهم هذا ، وبدأت خيوط المؤامرة تُحاك ضد يوسف ــ عليه السلام ــ وقد زعموا أن أباهم فى ضلال مبين ــ حاشاه عن ذلك .

---

(١٢) المزيد من الحنو لأسباب تدعو إليه ، عمل قلبى لا يقدر على دفعه الإنسان ، إذا ما صاحبه عدل تام ، ومثل ذلك ما رواه الإمام أحمد وأهل السنن ، عن أم المؤمنين عائشة ــ رضى الله عنها ــ قالت : كان رسول الله ــ ﷺ ــ يقسم بين نسائه فيعدل ، ثم يقول : « **اللهم ، هذا قسمى فيما أملك ، فلا تلمنى فيما لا أملك** » يعنى القلب ؛ هذا لفظ أبى داود ، وقال ابن كثير عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم** ﴾ الآية رقم ١٢٩ من سورة النساء جـ ٢ ص ٤١٠ قال : هذا إسناد صحيح ، لكن قال الترمذى : رواه حماد بن زيد ، وغير واحد عن أيوب ، عن أبى قلابة مرسلاً قال : وهذا أصح ، ونقل رواية أخرى عند ابن أبى حاتم من طريق أخرى أن هذه الآية نزلت فى عائشة ــ رضى الله عنها ــ وشاهدنا فى هذا أن العمل القلبى قد يزيد بالحب لشخص ولأسباب خاصة ، وأن هذا العمل لا يملك المرء دفعه بحضور الأسباب الداعية إليه .

وقد سئلت إحدى النساء عن أحب أبنائها إليها فقالت : الصغير حتى يكبر ، والمريض حتى يشفى ، والغائب حتى يحضر .

فإذا ما تساوى الأبناء فى الظروف المحيطة بهم ، فهم كما قالت فاطمة بنت الخرشب الأنمارية عن بنيها حين سُئلت : أيهم أفضل ؟ قالت : هم كالحلقة المفرغة لا يُدرى أين طرفاها .

أما المزيد من العطاء المادى ، وتخصيص أحدهم بجزء من التركة ، أو ما يملكه الوالد فى حياته ، فقد اعتبره النبى ــ ﷺ ــ ظلماً وجوراً .

عن النعمان بن بشير ــ رضى الله عنهما ــ أن أباه أتى به رسول الله ــ ﷺ ــ فقال : إنى نحلت ابنى هذا غلاماً كان لى ، فقال رسول الله ــ ﷺ : « **أكلّ ولدك نحلته مثل هذا ؟ فقال : لا ، فقال : فأرجعه** » متفق عليه ، واللفظ للبخارى ، وفى رواية لأحمد ومسلم وأبى داود قوله : « **فليس يصلح هذا ، وإنى لا أشهد إلا على حق** » وفى =

يقول الله تعالى :

﴿ إذ قالوا : ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة ؛ إن أبانا لفى ضلال مبين . اقتلوا يوسف ، أو اطرحوه أرضاً ، يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين ، قال قائل منهم : لاتقتلوا يوسف ، وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين ، قالوا : يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف ، وإنا له لناصحون ، أرسله معنا غداً يرتع ويلعب ، وإنا له لحافظون ، قال : إنى ليحزننى أن تذهبوا به ، وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون ، قالوا : لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذاً لخاسرون ﴾ (١٣) .

ويتضح من الآيات السابقة :

توفر الدافع لتنفيذ الجريمة وهو حب أبيهم ليوسف أكثر منهم .

واقتناعهم بصحة هذا الدافع ؛ حيث حكموا على أبيهم بسببه أنه فى ضلال مبين .

امتلاك القوة للتغيير فأوضحوا أنهم عصبة متعاونة تمثل قوة .

مناقشة الصورة التى تتم بها الجريمة فالحوار بين القتل أو الطرح فى الأرض ، أو الإلقاء فى بئر عميق .

اختلافهم فى درجة الانتقام ؛ فيهم من حذر من القتل ، ومنهم من صمم عليه ؛ إما على وجه السرعة بمباشرته ، وإما بتركه يموت على أى وضع فى الصحراء .

استدراج الوالد للموافقة على اصطحابهم يوسف ليلعب ، وإما لإحساس الوالد حقدهم على أخيهم .

= رواية لأبى داود قوله : « **لا تُشهدنى على جور** » نيل الأوطار للشوكانى جـ ٦ ص ٨ باب التعديل بين الأولاد فى العطية . فارجع إليه إن أردت المزيد .

(١٣) سورة يوسف ، الآيات من رقم ٨ إلى رقم ١٤ .

أوضح الوالد رأيه فى الذهاب به أنه سيحزنه ، لشدة التعلق به ، ويكون الخوف عليه من العبارة التالية : ﴿ **وأخاف أن يأكله الذئب ، وأنتم عنه غافلون** ﴾ .

وتمت موافقة الوالد بعد هذا الإلحاح من الإخوة .

﴿ **فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب ، وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ، وجاءوا أباهم عشاء يبكون ، قالوا : يا أبانا ، إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا ، فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ، ولو كنا صادقين ، وجاءوا على قميصه بدم كذب ، قال : بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون** ﴾ (١٤).

صرحت الآيات بإجماعهم على إلقائه فى الجب ، ويُفهم من هذا الإجماع ما يلزم من تنفيذ الأمر المجمع عليه عادة ، وجاء الأمان ليوسف من السماء وهو فى أشد حالاته ، وذلك عن طريق الوحى الكريم ، فهو سيعيش ، وسيخبر إخوته بما فعلوه ، أما هم فقد تظاهروا بالحزن حين رجوعهم عشاءً زاعمين أن الذئب قد أكله حين لعبهم ، وما ترك الذئب منه غير قميص ملطخ بالدم .

وفوجئ الوالد بحدوث ما حذرهم منه ، وهو الانتقام ، على أى صورة من الصور ، وعقب على إخبارهم إياه ، ومخاطباً إياهم بأنهم قد نفذوا مؤامرة مدبرة ضد أخيهم يوسف ، وليس الأمر كما يقولون .

فسباع الصحراء تغتال صباحاً أو ظهراً ، وفى آخر النهار ترجع إلى عُرنِها (جمع عرين) ، فما بالهم قد جاءوا عشاءً بهذا النبأ ؟! وإذا كانوا صادقين وحريصين على أخيهم كما عاهدوا لجاءوا مبكرين ، ولكنهم بحاجة إلى وقت يعطيهم فرصة البحث عن دم حيوان يصيدونه .

جاء إخبارهم فى عبارة موجزة لا تتضمن أى إشارة إلى حزن منهم ، أو

---

(١٤) سورة يوسف ، الآيات من رقم ١٥ إلى رقم ١٨ .

لوم لأنفسهم المقصرة ، ولكنهم عقبوا بما يحسونه فى أنفسهم ﴿ **وما أنت بمؤمن لنا ، ولو كنا صادقين** ﴾ .

وفَوَّض الوالد أمره إلى الله سبحانه ، راجياً منه العون على الصبر بقوله تعالى : ﴿ **فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون** ﴾ (١٥) .

فى الطريق إلى مصر :

وفى أشد الحالات ضيقاً كان الفرج والطمأنينة والراحة النفسية ليوسف ـــ عليه السلام ـــ وهو غلام صغير ، ملقى فى بئر ، وفى صحراء .

فكيف يكون المخرج ، وقد أحاطت بالغلام الصغير أسباب الهلاك بعد مؤامرة من أقرب الناس ؟

ذاك ما تصنعه يد العناية الإلٓهية بأنبيائها .

مرت قافلة قريباً من البئر ، وألقت رحالها ؛ بغية الراحة ، وطلباً للماء ، وأرسلت أحد أفرادها لإحضار ماء من البئر ، فما كان الماء إلا غلاماً صغيراً ، وعزم أفراد القافلة على ظلم جديد له ، كان سبباً فى فرج ومخرج دون أن يشعروا ؛ أسَرُّوه بضاعة أى (أضمروا فى أنفسهم بأن يكون رقيقاً يُباع ويُشترى) ، والله سبحانه مطلع على سير الأحداث ، وتصريفها بحكمته ؛ فبيع يوسف ـــ عليه السلام ـــ بثمن قليل ، شأن من يسرق شيئاً ويريد أن يتخلص منه بأبخس الأثمان ؛ لستر جريمة اقترفت وتحقيق كسب قليل مضمون أفضل من انتظار كسب كبير معرض للضياع بكامله .

---

(١٥) والدعاء المتوجه إلى الله سبحانه بهذه الصورة ، حين يفقد المرء من كان يظن منه النصرة ، وقد حدث لأم المؤمنين عائشة ـــ رضى الله عنها ـــ مثل هذا الموقف فى حادث الإفك .

فعن مسروق قال : سألت أم رومان ، وهى أم عائشة عما قيل فيها ما قيل . قالت : =

قال الله تعالى :

﴿ وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم ، فأدلى دلوه ، قال : يا بشرى ، هذا غلام ، وأسروه بضاعة ، والله عليم بما يعملون ، وشروه بثمن بخس دراهم معدودة ، وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ (١٦) .

وسخر الله سبحانه أسرة تشتريه ؛ رب هذه الأسرة هو العزيز أحد وزراء الملك ، وتلك امرأته زليخاء ، طلب إليها أن تكرم مثواه ، فيقيم إقامة مكرمة ، يقدم إليه الخير عن طواعية وإخلاص وحب ؛ لما ينتظرانه منه من نفع فى المستقبل ، أو أن يُتخذ ولداً لهما .

قال تعالى :

﴿ وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته : أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذهَ ولداً ﴾ (١٦) .

وقد دفعهما إلى ذلك ما كان عليه يوسف — عليه السلام — من الجمال والحسن الفائقين .

ففى حديث الإسراء ، عن أنس بن مالك — رضى الله عنه — أن رسول الله — ﷺ — قال :

= بينا أنا مع عائشة جالستان ، إذ ولجت علينا امرأة من الأنصار ، وهى تقول : فعل الله بفلان ، وفعل . قالت : فقلت : لم ؟ قالت : إنه نَمَّى ذكر الحديث ، فقالت عائشة : أى حديث ؟ فأخبرتها . قالت : فسمعه أبو بكر ، ورسول الله — ﷺ ؟ قالت : نعم . فخرت مغشياً عليها ، فما أفاقت إلا وعليها حمى بنافض ، فجاء النبى — ﷺ — فقال : « **ما هذه ؟** » قلت : حمى أخذتها من أجل حديث تُحُدِّثَ به ، فقعدت وقالت : والله لئن حلفت لا تصدقونى ، ولئن اعتذرت لا تعذرونى ، فمثلى ومثلكم كمثل يعقوب وبنيه ، فالله المستعان على ما تصفون . فانصرف النبى — ﷺ — فأنزل الله ما أنزل ، فأخبرها ، فقالت : بحمد الله لا بحمد أحد . صحيح البخارى ، كتاب الأنبياء ، باب قول الله تعالى : **﴿ لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين ﴾** جـ ٤ ص ١٨٣ .

(١٦) سورة يوسف ، الآيات من رقم ١٩ إلى رقم ٢١ .

« ... ثم عُرج بنا إلى السماء الثالثة ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من أنت ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : وقد بُعث إليه ؟ قال : قد بُعث إليه . ففتح لنا ، فإذا أنا بيوسف ، فإذا هو قد أعطى شطر الحسن . قال : فرحب بى ، ودعا لى بخير » (١٧) .

وفى هذا أيضاً ورد فى القرآن الكريم ، على لسان النسوة ، حين خرج يوسف عليهن :

﴿ حاش لله ، ما هذا بشراً ، إن هذا إلا ملك كريم ﴾ (١٨) .

ووصل الأمر بهن أن قطعن أيديهن بما لدى كل من سكين لقطع الطعام ؛ وذلك لمزيد إعجابهن بجمال يوسف ، وحسنه . إعجاب شغلهن عن الشعور بآلام جرح الأيدى ، ثم ما صار بعد ذلك من إصرار امرأة العزيز على معاودة المراودة ، على الرغم من افتضاح أمرها فى المدينة ، وإقرار النسوة أخيراً بالعذر لها فى طلبها .

عفة يوسف ــ عليه السلام ــ وطهره :

أخرج الشيخان عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ــ ﷺ ــ قال :

« سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ فى عبادة ربه ، ورجل قلبه معلق فى المساجد ، ورجلان تحابا فى الله ، اجتمعا عليه ، وتفرقا عليه ، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق أخفى ؛ حتى

---

(١٧) أخرجه مسلم ، باب الإسراء بالنبى ــ ﷺ ــ إلى السموات وفرض الصلوات جـ ١ ص ٢٦ رقم ٧٦ المختصر.

وإذا كان يوسف قد أُعطى شطر الحسن ، فإن آدم قد أُعطى الحسن كله ؛ فإن الله سبحانه قد خلق آدم بيده على أكمل صورة وأحسنها .

(١٨) سورة يوسف ، الآية رقم ٣١

لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ﴾ (١٩) .

ثم كان موقف يوسف ــ عليه السلام ــ مع امرأة العزيز .

فيوسف ــ عليه السلام :

مكن الله له فى الأرض ، وعلمه من تأويل الأحاديث ، واكتملت رجولته ، وبلغ أشده ، وأوتى الحكمة والعلم ، ووفق إلى إحسان ، ثم هو بالإضافة إلى ذلك بلغ من الحسن مبلغاً كبيراً .

وامرأة العزيز :

ذات منصب وجمال : فهى زوجة جميلة لوزير الملك ، وتملك بيتها فهى صاحبته ؛ لأنها زوجة صاحبه ، ويوسف قادم إليه ، وتملك الانفراد به فلا يراهما من البشر أحد ، فليس لها من أولاد ، وزوجها بالخارج حيث يعمل ، وإن كان بالبيت صغير فقد كان خارج غرفة المراودة قريباً من الباب .

وسول لها الشيطان الفاحشة فأحكمت إغلاق الأبواب ، وتهيأت بكل ما لديها من زينة مغرية ومثيرة ثم راودته عن نفسه وهى على أشد ما تكون النزوة ، ومع تتابع المراودة تعلن أنها مِلْك ليوسف ، على الرغم من أنها السيدة ، وصاحبة الأمر والنهى فى هذا البيت .

وتجمعت كل هذه الأسباب أمام نبى من أنبياء الله تعالى ، هو يوسف ــ عليه السلام ــ فماذا كان من أمره ؟

﴿ قال : معاذ الله ؛ إنه ربى أحسن مثواى ، إنه لا يفلح الظالمون ﴾ (٢٠) .

فإذا كان البشر لا يروننا ، فالله مطلع علينا . ألا نخشاه ؟ ثم هذا الزوج

---

(١٩) متفق عليه اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الزكاة ، باب فضل إخفاء الصدقة ، رقم ٦١٠ .

(٢٠) سورة يوسف ، الآية رقم ٢٣ .

الذى أكرمنى بالإقامة فى بيته . كيف أخونه ؟ وكيف أظلمه ؟ إنه حاول أن يوقظ فيها جانب الخير من جهتين : جهة الإيمان بالله سبحانه ﴿ **معاذ الله** ﴾ وجهة الأمانة الزوجية ﴿ **إنه ربى أحسن مثواى** ﴾ ، ومن الظلم للنفس أن يفقد المرء إيمانه ، وأمانته .

ولكن أنى لامرأة تمكنت منها الرغبة ، فقدت عقلها وتفكيرها ، فلا يزنى الزانى حين يزنى ، وهو مؤمن (٢١) ، وسوف لا تستجيب لنداء العقل الذى أعلنه النبى العفيف .

وتدرج الأمر من جديد ليأخذ شكل الإكراه ، فهمت به إجباراً ، وهم بها دفعاً وإنكاراً (٢٢) . وصرف الله سبحانه عنه السوء والفحشاء ، فقد أخلص قلبه

---

(٢١) جزء من حديث متفق عليه ، عن أبى هريرة — رضى الله عنه — أن النبى — ﷺ — قال : « **لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرقها وهو مؤمن** » وزاد فى رواية « **ولا ينتهب نهبة ذات شرف ، يرفع الناس إليه أبصارهم فيها حين ينتهبها وهو مؤمن** » اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الإيمان ، باب نقصان الإيمان بالمعاصى رقم ٣٦ ص ١٢ .

(٢٢) ليس هذا التفسير لِلْهَمّ بغريب ؛ حيث فُسر بما يناسب كلا من الجانبين .

فقد ورد قريب منه فى الحديث الشريف الذى رواه مسلم (المختصر جـ ١ ص ٨٩ رقم ١٢٠٩ ، وفى الأربعين النووية رقم ٧) .

فعن أبى رقية ، تميم بن أوس الدارى — رضى الله عنه — أن النبى — ﷺ — قال : « **الدين النصيحة . قلنا لمن ؟ قال : لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين ، وعامتهم** » فكلمة النصيحة لها عده معان ، فُسرت مع كل بما يُناسب ؛ فالنصيحة لله : الإخلاص له ، والإيمان به ، ونفى الشريك عنه ، وترك الإلحاد فى صفاته ، والنصيحة لكتاب الله تعالى : الإيمان بأنه كلام الله تعالى ، وتنزيله لا يُشبهه شىء من كلام الناس ، وأما النصيحة لرسول الله — ﷺ — فتصديقه على الرسالة ، والإيمان بجميع ما جاء به ، وطاعته فى أمره ونهيه ، والنصيحة لأئمة المسلمين بمعاونتهم على الحق ، وإعلامهم بما غفلوا عنه ولم يبلغهم ، والنصيحة لعامة المسلمين : تبصيرهم بالحق ، وبيان ما هو واجب الاتباع عليهم . (راجع تفسير النووى لهذا الحديث فى الأربعين النووية) .

لله تعالى ، وتصور معى أيها القارئ الكريم هذا السباق نحو الباب . من يوسف هروباً من منطقة الشر والسوء ، ومنها متابعة فى تنفيذ ما اشتهته ، ورغبته ، وبلغ بها أن أمسكت بقميصه جذباً إليها ، وهو مصمم على الإفلات والهروب ؛ حتى قُدّ القميص وهما بجوار الباب ؛ ليتمكن من فتحه ، حيث تكون المفاجأة بوجود العزيز لدى الباب .

وتتغير لهجة المرأة فجأة : ﴿ **قالت : ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يُسجن أو عذاب أليم** ﴾ (٢٣) .

تَدَّعى زوراً وكيداً ، وعقوبة لمن عصاها ولم يستجب لها ؛ اتهمته بأنه هو الذى أراد السوء ــ حاشاه عن ذلك ــ وجزاء من يريد السوء بأمثال تلك المرأة السجن ، أو العذاب الأليم .

ورد يوسف ــ عليه السلام ــ التهمة الموجهة إليه بأمرين :

الأمر الأول : إنكارها ، وادعاء العكس أى أن المرأة هى التى راودته عن نفسه .

الأمر الثانى : الدليل المادى على البراءة ، وهو أقوى الأدلة عُرفاً وشرعاً .

وفى ذلك يقول الله تعالى :

﴿ **قال : هى راودتنى عن نفسى ، وشهد شاهد من أهلها ؛ إن كان قميصه قُدَّ من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ، وإن كان قميصه قُدَّ من دُبر فكذبت وهو من الصادقين** ﴾ (٢٤) .

ونلمح فى هذه الآية الكريمة وما سبقتها الموقف الأول فى الحكم فى هذه الدعوى :

---

(٢٣) سورة يوسف ، الآية رقم ٢٥ .

(٢٤) سورة يوسف ، الآية رقم ٢٦ .

ـــ الخصمان ماثلان أمام القاضى :

من قدم الدعوى ضد الآخر وهو هنا امرأة العزيز .

والمدعى عليه وهو يوسف عليه السلام .

والقاضى وهو العزيز ، زوج المدعية ، وفى قرابته للمدعية ، تضييق لفرص البراءة للمدعى عليه .

ـــ أن مضمون هذه الدعوى اتهام بالسعى إلى ارتكاب الفحشاء .

ـــ أن المرأة أثارت فى زوجها الغيرة بالباطل ، حيث قالت ﴿ **من أراد بأهلك** ﴾ ولم تقل من أرادنى .

ـــ أنها مع إعلان الدعوى حددت العقوبة فى أمرين لا ثالث لهما : إما السجن ، وإما العذاب الأليم .

ـــ وأنها أغفلت شيئاً مادياً يبدو عليها وهو ما يكون من أثر التهيؤ بالزينة وغيرها والتى لا تُمحى فجأة من نفسها .

ـــ وأنها وضعت نفسها مدعية بالباطل حيث سبقت بالشكوى ، وتقديم الادعاء ، مما يدل على مكر المدعى حين يسبق الخصم ، ويعاجله .

ـــ وأنها من الفصاحة اللسانية حيث ملكت زمام الموقف على الرغم من خطئها .

ـــ وأمام كل هذه الملابسات كان الخصم البرىء ، يوسف العفيف ـــ عليه السلام .

ـــ إنه أنكر التهمة ، وماذا يعمل الإنكار أمام كل هذه الادعاءات والملابسات ؟ . وماذا يعمل غير إلصاق التهمة بها هى وحدها ؛ كما يُفهم من أسلوب الحصر ﴿ **هى راودتنى عن نفسى** ﴾ .

وتتدخل عناية الله سبحانه وتعالى ، حيث فقد يوسف ـــ عليه السلام ـــ .

الدليل القاطع على براءته . ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجاً** ﴾ (٢٥) .

— إن يوسف — عليه السلام — لم يشر إلى ما يبدو عليها من تهيؤ وزينة ، فقد عَفَّ لسانه عن ذلك .

— وبقى فى الجلسة الأولى فى تلك القضية ، طفل صغير يحبو (٢٦) ،

---

(٢٥) سورة الطلاق ، الآية رقم ٢ .

(٢٦) ورد فى أمر هذا الشاهد أحاديث وآراء كثيرة نذكر منها هنا ما هو صحيح أو راجح .

— رُوى عن أبى هريرة ، وهلال بن يساف ، والحسن ، وسعيد بن جبير والضحاك بن مزاحم أنه كان صبياً بالدار ، واختاره ابن جرير .

— وقد ورد فيه حديث مرفوع ، فروى ابن جرير : عن ابن عباس — رضى الله عنهما — عن النبى — ﷺ — قال : « **تكلم فى المهد أربعة وهم صغار** » فذكر فيهم شاهد يوسف .

— ورواه غير ابن جرير عن ابن عباس أيضاً من طريق أخرى « **تكلم أربعة وهم صغار ابن ماشطة بنت فرعون ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وعيسى بن مريم** » (ابن كثير فى تفسير الآية ، وقد ذكر أيضاً من الروايات ما يحدد أنهم فى المهد) .

— وقد ورد بشأن من تكلم فى المهد حديث متفق عليه :

فعن أبى هريرة — رضى الله عنه — عن النبى — ﷺ — قال :

« **لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة :**

عيسى بن مريم ، وصاحب جريج .. وبينا صبى يرضع من أمه ، فمر رجل راكب على دابة فارهة ، وشارة حسنة ، فقالت أمه : اللهم اجعل ابنى مثل هذا ، فترك الثدى ، وأقبل إليه ، فنظر إليه ، قال : اللهم لا تجعلنى مثله ... »

أخرجه البخارى جـ ٤ ص ٢٠١ باب واذكر فى الكتاب مريم ، وأخرجه مسلم ، المختصر ، كتاب البر والصلة ، باب تقديم بر الوالدين على العبادة رقم ١٧٥٥ ص ٢٢٨ ، اللؤلؤ والمرجان رقم ١٦٥٤ ص ٦٩٤ الكتاب والباب كما فى مختصر مسلم ، واللفظ له .

وقال محقق المختصر الشيخ ناصر الدين الألبانى فى تعليقه على الحديث : لا يخالف هذا الحصر كلام صبى الأخدود (رواه مسلم أيضاً) لأنه ليس فيه أنه كان فى المهد ، بل كان =

وأنى لطفل على هذا النحو أن ينطق بما شاهده فى ساحة البيت حين الاستباق إلى الباب .

ــ ولكن الله سبحانه وجهه إلى الاستشهاد بهذا الطفل ﴿ **وشهد شاهد من أهلها** ﴾ .

ــ وكانت المعجزة بإنطاق الله سبحانه لهذا الطفل ، وشهادته .

ــ وعلى الرغم من إيجاز الشهادة التى تكونت من بضعة وثلاثين حرفاً ، فقد تضمنت أقوى الأدلة ، وهو الدليل المادى على براءة يوسف ــ عليه السلام .

ــ إن هذا الشاهد وهو الطفل الصغير صور الموقف أمام الزوج ، والقاضى . فإذا كان من اختلاف الخصمين ، وكل منهما يدعى البراءة ، ويتهم الآخر، فلننظر إلى الحال الناتجة من هذا الاختلاف .

ــ ووجه الشاهد القاضى إلى قميص يوسف ، وقد عهد فى قميصه السلامة ؛ فهو فى بيت العزيز ، ولم يسبق له أن لبس قميصاً على النحو المرئى الآن

ــ **وماذابشأن تمزيق القميص ؟**

ــ إما أن يكون ممزقاً من الخلف ، أو ممزقاً من الأمام ، وعلى بساطة

= أكبر من صاحب المهد ، وإن كان صغيراً يرضع ، وأما حديث « **لم يتكلم فى المهد إلا أربعة : عيسى ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وابن ماشطة بنت فرعون** » فحديث باطل كما بينته فى سلسلة الأحاديث الضعيفة رقم ٨٨٤ ، وأما ما ذكره بعضهم أن يحيى ــ عليه السلام ــ ممن تكلم فى المهد فمما لا أصل له مرفوعاً ، وإنما هو من زعم الضحاك فى تفسيره كما ذكر الحافظ ابن حجر فى فتح البارى على شرح البخارى .
انتهى التعليق للشيخ ناصر .

هذا ويستبعد أن يكون الشاهد غير طفل عقلاً ، لما يخالف الغرض من تغليق الأبواب ، والتهيؤ ، فيبقى كونه طفلاً ، وكونه ليس بالمهد ؛ لصريح الحديث المتفق عليه . والله أعلم بالصواب .

هذا فإنه مادى ملحوظ من كل الأطراف : الخصمين والقاضى ، والشاهد .

ـــ وتدرج الشاهد من دفع التهمة أولاً ، ثم إثبات البراءة ثانياً ؛ فقد ناقش دعوى المرأة بقوله : ﴿ **إن كان قميصه قُدَّ من قبل فصدقت وهو من الكاذبين** ﴾ .

ثم أثبت هذا الشاهد التهمة على المدعية نفسها ، وهى امرأة العزيز ﴿ **وإن كان قميصه قُدَّ من دُبر فكذبت وهو من الصادقين** ﴾ .

ـــ وحينئذ نظر القاضى وهو العزيز زوج المرأة إلى ما ذكره الشاهد من دليل مادى ، فتبين له ما به أعلن حكمه .

قال الله تعالى على لسانه : ﴿ **فلما رأى قميصه قُدَّ من دُبر ، قال : إنه من كيدكن ؛ إن كيدكن عظيم ، يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك ؛ إنك كنت من الخاطئين** ﴾ (٢٧) .

ونلمح فى هذه الآية الكريمة :

ـــ الحكم ببراءة يوسف ـــ عليه السلام ـــ من التهمة التى وُجهت إليه من امرأة العزيز .

ـــ وأن هذا الحكم قد اعتمد على دليل قاطع ، وهو الدليل المادى أقوى الأدلة .

ـــ أن جدوى الدليل هنا جاءت من الرؤية المباشرة ، وصلته المباشرة زمنياً بالمراودة ، ولو كان متأخراً فى الزمن لاحتمل الشك ، لما يظن من تدبيره .

ـــ ثم الحكم بإدانة المرأة .

ـــ كما نلحظ أيضاً جانب المحاباة من هذا القاضى ، وتأثره بالعلاقة المباشرة بالمدعية ، على الرغم من وضوح الدليل :

فلم يحكم عليها بما رأته هى : من سجن ، أو عذاب أليم .

---

(٢٧) سورة يوسف ، الآية رقم ٢٨ ، ٢٩ .

ولم يحكم عليها إلا فى تهمة واحدة ، ولكنها ارتكبت مع المحاولة لارتكاب الفاحشة الكذب والبهتان .

ونخلص من هذا كله بعدة أمور :

ــ أن الله سبحانه وتعالى يحفظ عباده الصالحين ، ويعصمهم ، والمعصوم من عصمه الله .

ــ أن المسلم عليه أن يقدم ما لديه من حقائق تدفع تهمة عن برىء .

ــ وأن الدليل المادى يجب أن يعتمد عليه شهادة ، وقضاء .

ــ وأن القاضى يجب ألا تربطه بأى الخصمين علاقة تؤثر عليه فى قضائه وحكمه ، وعليه أن يعتذر عن القضية ، أو لا توجه إليه ، وإمكان الطعن فى حكمه إذا ما ظهر تأثر بعلاقة ما .

افتضاح أمر الزوجة ، وتبريرها لرغبتها :

من السياق القرآنى نرى قوة شخصية هذه المرأة ، حتى على زوجها ، فعلى الرغم من الدليل المادى الذى رد الاتهام ، لم يزد إلا أن طلب الاستغفار إليها من هذا الكيد ، ولكن الحادثة شاعت فى أنحاء المدينة ، وتناقلتها النسوة .

قال الله تعالى :

﴿ وقال نسوة فى المدينة : امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ؛ قد شغفها حباً ؛ إنا لنراها فى ضلال مبين ، فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن ، وأعتدت لهن متكئاً ، وآتت كل واحدة منهن سكيناً ، وقالت اخرج عليهن ، فلما رأينه أكبرنه ، وقطعن أيديهن ، وقلن : حاش لله ، ما هذا بشراً ، إن هذا إلا ملك كريم ، قالت : فذلكن الذى لمتننى فيه ، ولقد راودته عن نفسه ، فاستعصم ، ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن ، وليكونن من الصاغرين ﴾ (٢٨) .

---

(٢٨) سورة يوسف ، الآيات من رقم ٣٠ ــ ٣٢ .

إن الخبر قد انتشر بالمدينة ، وخص مجتمع النساء بتناقله أكثر من الرجال ، فمن راودته كانت من جنسهن من ناحية ، ولخفة الضغط القانونى عليهن من ناحية أخرى ، ويختلف عن ذلك الرجال الذين يحتكون بالعزيز احتكاك المأمور بالآمر ، والمسود بالسيد ، وحُكم النسوة على امرأة العزيز يدل على بقايا من سير الأنبياء السابقين ، ودعواتهم ، فقد اعتبرن المراودة ضلالاً مبيناً من ناحية ، كما يدل على أن حبها ليوسف كان حباً جسدياً تحركه الغريزة ، وأن هذا الحب كان من طرف واحد ، وهذا من ناحية أخرى ، وأن الحب الجسدى الذى يكون على هذه الصورة ليس سبيلاً قويماً لبناء أسرة ، وإنما هو لاستنفاد طاقة فقط . واللقاء الزوجى يجمع بين الجسد ، والقلب ، فيكون قضاء الوطر ، والنسل من لقاء الجسدين ، وتكون المودة والرحمة ، والحب القويم والمتكامل من لقاء قلبين .

واعتبرت امرأة العزيز تناقل خبرها بين النسوة فى المدينة مكراً فوضعت خطة أشد مكراً توقف مكرهن .

دعتهن إلى وليمة فلزم عليهن إجابة دعوتها لما للداعية من مكانة أدبية ، ولذا لم يصرح القرآن الكريم بما يُفهم من السياق ، وجلسن جميعاً جلسة مريحة ، وقدمت إليهن ما من شأنه أن يقطع بالسكين ، وهو الطعام ، وحتى هذه اللحظة لم يتضح الغرض الحقيقى من الدعوة ، وحينئذ قالت امرأة العزيز ليوسف دون الإفصاح عن اسمه : اخرج عليهن ، فلبى الأمر من صاحبة البيت ، حيث لا معصية فى هذه التلبية ، فماذا كان من أمر النسوة ؟

إنهن قد رأين من أُعطى شطر الحسن ، كما سبق فى الحديث الصحيح .

أكبرن جماله وحسنه ، وبهرن به ، وشغلهن عما بأيديهن من طعام ، وصارت تقطع كل واحدة منهن يدها بما لديها من سكين لمزيد إعجابها وانبهارها ، وقلن على الفور : ما هذا بشراً ، فلم نعهد بشراً على هذه الصورة من الحسن والجمال ، إن هذا إلا ملك كريم .

حينئذ أعلنت امرأة العزيز : أن هذا هو يوسف الذى لُمتننى فيه ، وأقر ، وأعترف أننى أنا الذى راودته عن نفسه ...

وتكشر الجاهلية ، وتتحدى ، حيث يُفقد فى ظلامها للقانون سلطانه ،

فعلى الرغم من الاعتراف ببراءة الداعى إلى الله ، سيكون له السجن ، والإذلال ، وقد سبق من قوم لوط ـــ عليه السلام ـــ أن أعلنوا عقوبة الطرد له ، ولقومه لأنهم أناس يتطهرون ، وتأتى امرأة العزيز لتمثل صوت الجاهلية المتمرغ فى وحل الفاحشة ، وتعلن بصوتها العالى دون حياء شأن الجاهليين دائماً حين يُوسد الأمر إلى غير أهله إنها تعلن :

﴿ ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن ، وليكونن من الصاغرين ﴾

وعادت الكرة من جديد ، نغمة التخويف والتجويع ، والتعذيب ، والإذلال .

وما كان من الداعية المعصوم إلا الصمود والثبات ، واللجوء إلى الله سبحانه ، قال الله تعالى على لسان يوسف ـــ عليه السلام :

﴿ قال : رب ، السجن أحب إلىّ مما يدعوننى إليه ، وإلا تصرف عنى كيدهن (٢٩) أصب إليهن وأكن من الجاهلين ﴾ (٣٠) .

---

(٢٩) قال صاحب القاموس : الكيد : المكر والخبث كالمكيدة والحيلة . وقيل بالمعجم الوسيط : المكيدة : الخديعة ، ويُفسر الكيد حسب ما نُسب إليه ، فللشيطان كيد **﴿ إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ﴾** (النساء-٧٦) وللكافرين كيد **﴿ وما كيد الكافرين إلا فى ضلال ﴾** (غافر ٢٥) وللطاغية كيد **﴿ وما كيد فرعون إلا فى تباب ﴾** (غافر ٣٧) ولمن دون ذلك أيضاً كيد ، فإخوة يوسف كادوا له **﴿ فيكيدوا لك كيداً ﴾** (يوسف ٥) وللنسوة كيد كما فى النص الكريم ، وللسحرة كيد **﴿ إنما صنعوا كيد ساحر ﴾** (طه ٦٩)

ويضاف الكيد إلى غير هؤلاء بمعنى التدبير ، وإفساد خطة الكافرين ، فإبراهيم قيل على لسانه : **﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ﴾** (الأنبياء ٥٧) كما يُضاف إلى الله سبحانه إما فى مقام المشاكلة اللفظية ، أو إفساد خطة الكافرين ، ونصرة المؤمنين الذين لجئوا إليه . **﴿ كذلك كدنا ليوسف ﴾** (يوسف ٧٦) **﴿ إنهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً ﴾** (الطارق ١٥ — ١٦) وأخبر الله عن كيده فقال : **﴿ وأملى لهم إن كيدى متين ﴾** (الاعراف ١٨٣ ، والقلم ٤٥) .

وتفسير صاحب القاموس للكيد بأنه المكر لا يمنع نسبته إلى الله سبحانه فقد قال : =

واستجاب الله سبحانه ، فالسجن على ما فيه من مكروه أهون على نفس عفيفة ، وأحب إليها من التعرض للفاحشة .

= ﴿ **ومكروا ومكر الله ، والله خير الماكرين** ﴾ (آل عمران ٥٤) ﴿ **قل الله أسرع مكراً** ﴾ (يونس ٢١) .

وتفسير المعجم الوسيط المكيدة بالخديعة ليس بمانع أيضاً فقد قال تعالى : ﴿ **إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم** ﴾ (النساء ١٤٢) ولكن تفسير الكيد بالخبث لا يتأتى إلا فى جانب الشر المحكوم عليه بالتباب ، والهلاك والضلال .

وإنما أردنا تقديم هذه المقدمة إبعاداً لظن سيئ بالصديقة بنت الصديق أم المؤمنين عائشة ـــ رضى الله عنها وعن أبيها .

أخرج الشيخان عنها ، أنها قالت : لما مرض رسول الله ـــ ﷺ ـــ مرضه الذى مات فيه ، فحضرت الصلاة فأذن ، فقال : « **مروا أبا بكر فليصل بالناس** ، فقيل له : إن أبا بكر رجل أسيف (أى شديد الحزن ، رقيق القلب ، سريع البكاء) إذا قام مقامك لم يستطع أن يصلى بالناس ، وأعاد فأعادوا له ، وأعاد الثالثة ، فقال : « **إنكن صواحب يوسف ، مروا أبا بكر فليصل بالناس** » فخرج أبو بكر فصلى ، فوجد النبى ـــ ﷺ ـــ من نفسه خفة ، فخرج يهادى بين رجلين (هما العباس ، وعلى ، كما ذكر فى إجابة ابن عباس عن سؤال وجه إليه) كأنى انظر رجليه تخطان الأرض من الوجع ، فأراد أبو بكر أن يتأخر ، **فأومأ إليه النبى ـــ ﷺ ـــ أن مكانك** » ثم أتى به حتى جلس إلى جنبه ، فكان النبى ـــ ﷺ ـــ يصلى وأبو بكر يصلى بصلاته ، والناس يصلون بصلاة أبى بكر . اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الصلاة ، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر رقم ٢٣٨ ص ٨٦ .

والشاهد هنا « **إنكن صواحب يوسف** » أى فى كيدهن ، والكيد المناسب هنا كما يدل النص نفسه : بمعنى المخالفة للأمر بسرعة ، وليس أبعد من ذلك ، خاصة وأن فى هذه المخالفة ما يدفع أى نوع من المحاباة لغيرها ، على حساب الحق ، حتى ولو كان هذا الشخص والدها . والله أعلم بالصواب .

(٣٠) سورة يوسف ، الآية رقم ٣٣ .

يوسف ــ عليه السلام ــ بالسجن يدعو إلى الله تعالى ، ويؤول الرؤيا :

أخرج الشيخان – رحمهما الله – عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال :

« نحن أحق بالشك من إبراهيم ؛ إذ قال : رب أرنى كيف تحيى الموتى ؟ قال : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبى ، ويرحم الله لوطاً ؛ لقد كان يأوى إلى ركن شديد ، ولو لبثت فى السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعى » (٣١) .

ودخول يوسف ــ عليه السلام ــ ثابت بصريح القرآن الكريم ، وطول مكثه فيه ثابت بالحديث المتفق عليه ، صراحة ، كما يُفهم أيضاً من سياق النص القرآنى ، وترتيب إجابة الداعى ــ فرضاً ــ على طول المكث يدل على ما ناله بالسجن من إيلام .

---

(٣١) اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الإيمان ، باب نحن أحق بالشك من إبراهيم ص ٣٠ رقم ٩٢ ، وقد ورد بالهامش تعليق المحقق د . عبد الستار أبو غدة :

أى أن الشك يستحيل فى حق إبراهيم ــ عليه السلام ــ ولو كان الشك متطرقاً إلى الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ لكنت الأحق من إبراهيم ، وقد علمتم أن إبراهيم لم يشك ، فإذا لم أشك أنا ، ولم أرتب فى القدرة على الإحياء فإبراهيم أولى بذلك ، ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوى إلى ركن شديد : إلى الله تعالى ، ولو لبثت فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى ، أى لأسرعت فى الخروج من السجن ، ولما قدمت طلب البراءة ، قال محيى السنة : وصف ــ ﷺ ــ يوسف بالأناة والصبر ؛ حيث لم يبادر إلى الخروج حين جاءه رسول الملك فعل المذنب حين يعفى عنه مع طول لبثه فى السجن ، بل قال : ﴿ **ارجع إلى ربك فاسأله : ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن** ﴾ أراد أن يقيم الحجة فى حبسهم إياه ظلماً . ا هـ

إن يوسف ـــ عليه السلام ـــ أُدخل السجن لأوهى مبرر من القوم ، فقد كانت براءته واضحة ، ولكنهم أرادوا إدخاله إيهاماً بأنه راودها عن نفسها ، وأنهم سجنوه على ذلك ، ولهذا لما طلبه الملك فى آخر المدة امتنع عن الخروج حتى تتبين براءته مما نُسب إليه من الخيانة .

اعتبر السجن على ما فيه من ضيق ومكروه ، أفضل مما يتعرض إليه خارجه ، وأن الإقامة فيه صرف لكيد النسوة ، وأن تحقيق ذلك نعمة من الله سبحانه تفضل بها عليه ، ولذا طُويت صفحات ما لاقاه بالسجن ، وفُهمت فهماً من إشارات الآيات ، والحديث ، وبقيت صفحة الدعوة إلى الله سبحانه .

قال الله تعالى :

﴿ ودخل معه السجن فتيان ، قال أحدهما : إنى أرانى أعصر خمراً ، وقال الآخر : إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزاً تأكل الطير منه ، نبئنا بتأويله ؛ إنا نراك من المحسنين ﴾ (٣٢) .

إنها الثقة تدفع صاحبها إلى من يركن إليه ، وحسب الصديق رصيده الضخم من التجربة والنزاهة والعفة ، ويكون التأكيد من الفتيين على إحسانه **﴿ إنا نراك من المحسنين ﴾** .

وتدرج يوسف ـــ عليه السلام ـــ فى الدعوة إلى الله سبحانه ، على الرغم من أنه خلف القضبان ، فى أقبية السجون .

قال الله تعالى :

﴿ قال : لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ، ذلكما مما علمنى ربى ، إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله ، وهم بالآخرة هم كافرون ، واتبعت ملة آبائى إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ، ذلك من فضل الله علينا ، وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون ، يا صاحبى السجن ، أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد

---

(٣٢) سورة يوسف ، الآية رقم ٣٦ .

القهار ؟ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ، ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلّا إياه ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، يا صاحبى السجن ، أما أحدكما فيسقى ربه خمراً ، وأما الآخر فيُصلب فتأكل الطير من رأسه ، قُضى الأمر الذى فيه تستفيان ، وقال للذى ظن أنه ناج منهما : اذكرنى عند ربك ﴾ (٣٣) .

ـــ الدعوة فى موقف التهيئة :

فقد أعلن إليهم إخبارهم بنوع الطعام قبل أن يأتيهما ، وذاك أمر مادى ملموس يدفع إلى الثقة فيه أكثر ، وفيما يدعو إليه ، وعلى الفور عرفهما أن هذا الإخبار ليس اجتهاداً منه ، وحدساً وتخميناً ، ولكن من تعليم الله سبحانه له . إذن هناك رب وهناك مربوب .

ـــ الدعوة فى موقف الحكم العام على الكفر :

وذلك بأن القوم قد جهلوا حقيقة الربوبية الحقة ، وكفروا بها ، وأن الداعية واضح متميز فقد ترك ملة قوم لا يؤمنون بالله .

ـــ جذور الدعوة إلى الله سبحانه :

فهى دعوة الأنبياء الذين يتصل بهم نسباً وعقيدة . تفضل الله عليهم بتوحيدهم إياه ، ونبذهم للشرك ، أما من جهل هذا الفضل استبدل بالشكر على النعمة جحوداً .

وإلى هنا والمواقف لا تمس ـــ بشكل مباشر ـــ الفتيين . وبقى على الداعية

---

(٣٣) سورة يوسف ، الآيات من ٣٧ إلى ٤٢ ، وبقية الآيات التى تتصل بالرؤيا حتى ٤٩ .

وقد تجاوز مرحلة جس النبض ، والاختبار ، وإحساسه رضاهم ـــ بقى عليه أن يتوجه إليهم بشكل مباشر .

ـــ دعوة الفتيين :

إنه حين أراد نصحهما بشكل مباشر تودد إليهما ، وتلطف وترفق ، فما كان الرفق فى شىء إلا زانه ، وما نُزع من شىء إلا شانه فقد قال لهما : يا صاحبى السجن ، فهما صاحبان له ، ويشاركانه آلام السجن وعذابه ، ولا مجال لأن يكذب واحد على الآخرين .

ـــ الدعوة وقضية التوحيد :

ونلمح أيضاً من خلال الآيات الاهتمام الأكبر بقضية التوحيد .

فقد أبطل الشرك بأسلوب الحصر القاطع ، ﴿ **ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء** ﴾ .

وقارن بين تعدد الأرباب ، والوحدانية ﴿ **أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار** ﴾ ؟ ووصفه الأرباب بالتفرق سبيل إلى إنكار التعدد هذا . وأن هذه الأرباب ليس عليها دليل أو سلطان حتى نتمسك بعبادتها ، وهو إذ يقرر الوحدانية لله سبحانه جعل من لوازم الإيمان بقضية التوحيد ، التحاكم إلى الله سبحانه دون سواه ، وأن التحاكم إلى غيره مظهر شركى ، كما أن العبادة الصحيحة لا تكون إلا نتيجة الإيمان الكامل بالوحدانية : ﴿ **إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه** ﴾ وختم يوسف ـــ عليه السلام ـــ مناقشة هذه القضية مع السجينين بأمرين :

الأول : أن دين الله سبحانه هو أقوم الأديان ، كما يُفهم ذلك من أسلوب الحصر بتعريف الطرفين ﴿ **ذلك الدين القيم** ﴾ .

الثانى : أن العلم هو أساس الدعوة إلى الله سبحانه ، وتوحيده ، والعالم

الحق هو الذى يمكنه أن يدرك هذه الوحدانية ، وأن انتشار الجهل بين الناس مدعاة للشرك بأى نوع من أنواعه ، خفيه ، أو جليه .

ـــ الدعوة تدخل قلبى السجينين :

ونتصور الآن هذين السجينين ، وقد أصاخا إلى ذلك الصوت الجديد ، الذى بدأهما بالإخبار عن طعامهما قبل أن يأتى ، ثم تابع الحديث بدعوتهما إلى دين الله ، ثم هو الآن يفسر لهما الرؤيا بعد أن قطع شوطاً فى الدعوة ، وكان تفسيره للرؤيا بإيجاز ولكنه واف وواضح .

ـــ تفسير الرؤيا :

للسجين الأول : الذى قال : ﴿ **إنى أرانى أعصر خمراً** ﴾ قال له يوسف ـــ عليه السلام : « **ستكون من حاشية الملك ، وتقدم إليه ما يشرب من خمر** » .

للسجين الثانى : الذى قال : ﴿ **إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزاً تأكل الطير منه** ﴾ قال له يوسف ـــ عليه السلام : سيُحكم عليك بالموت ، ثم الصلب ، وتترك فى العراء حتى تأكل الطير من لحم رأسك حيث يحط الطيـر .

ـــ الثقة فى التفسير :

إن يوسف ـــ عليه السلام ـــ قال فى أول خطابه لصاحبيه بشأن تفسير الرؤى ﴿ **ذلكما مما علمنى ربى** ﴾ وها هو الآن واثق تماماً فى هذا التفسير طالما أنه من تعليم الله سبحانه ، وزيادة فى اليقين رتب على نجاة الناجى منهما تكليفه تبليغ رسالة إلى الملك .

﴿ **وقال للذى ظن أنه ناج منهما : اذكرنى عند ربك** ﴾ إى انقل له أمرين :

الأول : علمى بتفسير الرؤيا .

الثانى : أنى على دين التوحيد ، دين إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، وأننى من أبنائهم .

رؤيا الملك :

إن قضية الرؤيا شغلت عدداً كبيراً من الناس ، بدأت بالملك ، ثم الملأ من حاشيته ، ثم الناجى وغيره ليكون الصدق فى التفسير شاهداً على صدق يوسف عليه السلام وبراءته .

ولذا كان النداء من الناجى على هذا النمط ﴿ **يوسف أيها الصديق** ﴾ قد رأى صدقه فى نفسه ؛ فقد نجا فعلاً ، ولكن هنا يطلب الفتوى للجميع ، ولذا قال : ﴿ **أفتنا** ﴾ وعرض عليه الرؤيا .

وتأمل تفسير الصديق يوسف عليه السلام لهذه الرؤيا ...

﴿ **قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلاً مما تأكلون ، ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلاً مما تحصنون . ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يُغاث الناس وفيه يعصرون** ﴾ (٣٤) .

إنه لا يكتفى بتفسير الرؤيا ، ولكنه يضع الوقاية من المهلكة المرتقبة للأمة ، إذن فهو حريص على الأمة جميعها ، وليس على الملك وحده ، أو العزيز وحده ، أو زوجة العزيز وحدها . فالحصيد قسمان :

قسم يُدخر فى سنبله حتى لا يأكله السوس ، وقسم يُؤكل مع الاقتصاد فيه طالما أنه ينتظر جفاف ، ويأتى الفرج أخيراً طالما اتخذت الحكمة وادخرت المواد التموينية لمجموع الأمة .

إن عرض الرؤيا على هذا النمط مثير فعلاً ، وقبل أن يرى لها واقع فى الحياة ،

---

(٣٤) الآيات من سورة يوسف من ٤٧ — ٤٩ .

وأول من أثاره هذا التفسير الملك ، وعلى الفور طلب المجيء به ، ومنحه عفواً من سجن طال أمده ، ولكن براءة العِرض ثمينة لابد أن تعلن على الملأ ، ويظهر كذب امرأة العزيز والنسوة قبل أن يخرج من السجن [٣٥] .

وكان سؤال وجواب وأعلنت النسوة : ﴿ **قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء ، قالت امرأة العزيز : الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين** ﴾ [٣٦] .

يوسف ـــ عليه السلام ـــ وزير على خزائن الأرض :

وكان الملك حكيماً حين قبل دعوة يوسف ـــ عليه السلام ـــ أن يكون أميناً على الخزائن ، وقد سبق له ما يرشحه لهذا المركز بالذات كما يدل عليه تفسيره لرؤيا الملك .

ولكن يوسف ـــ عليه السلام ـــ أضاف لكفاءته صفتين ضروريتين لكل مسئول عن أرزاق العباد ، قال الله تعالى على لسانه :

﴿ **اجعلني على خزائن الأرض [٣٨] إني حفيظ عليم** ﴾ [٣٧]

فالصفة الأولى هي الأمانة في الحفظ ، وتلك من لوازم كل مسئول وخاصة من كان بهذا المنصب ، والصفة الثانية خبرة في جانب الحفظ ، فهو يعلم الوسائل والأسباب التي تؤدي إلى الاكتفاء بما هو موجود دون إفراط ، أو تفريط ، وهذا ما نعنيه حالياً بأسلوب الإدارة والمحاسبة .

---

(٣٥) هذا الموقف الذي ورد فيه الحديث السابق « **ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي** » .

(٣٦) سورة يوسف ، الآية رقم ٥١ .

(٣٧) سورة يوسف ، الآية رقم ٥٥ .

(٣٨) فقد كانت مصر بهذا التعبير المركز الأهم في الأرض ، أو أن الممالك الأخرى تتبع مصر في سياستها وظروفها آنذاك فناسب أن يُقال عن خزائن مصر خزائن الأرض.

واستطاع يوسف — عليه السلام — أن يعدل فى رغبة الملك إلى الأفضل ، فالملك رغب أن يستخلصه لنفسه فيكون مكيناً أميناً فيما له ، فكان مكيناً أميناً فيما له ، ولغيره ؛ من المقيمين ، والوافدين . كما يدل عليه لقاؤه بالإخوة ، وتجهيزهم بما طلبوه .

وإذا كان المسئول قد حظى عن كفاءة بهذا المنصب ، فعليه أن يتجه بأعماله هذه لله سبحانه ؛ فلا تطغيه المادة ، ولا تبطره النعمة ، وليتذكر أن إسناد مثل هذه الوظائف لأمثال يوسف — عليه السلام — من رحمة الله بعباده ، فعليهم أن يحسنوا العمل ، وينظروا إلى الأجر الأفضل — أجر الآخرة — ويتقوا الله سبحانه فى كل عمل يعملونه .

لقاؤه بالإخوة :

إن صفحة يوسف — عليه السلام — فى نظر الإخوة قد طُويت وعفا عليها الزمن منذ أن ألقوه فى غيابة الجب ، أمات بالجب ؟ أم أخذه إنسان لا يدرى عن أصله وفصله ، فيسترقه ، يُباع ويُشترى ، ويصير كماً مهملاً ؟ .

ولكن الله سبحانه وقد أوحى إليه وهو فى البئر جعل السكينة تملأ قلبه ، وأشعره بالمعية معه جل شأنه أيا كانت الأحداث ، ولم ينس يوسف — عليه السلام — تلك الحقيقة ، فعلى الرغم من ظلمات السجن ، وعذابه قد وجه طاقته إلى الدعوة إلى الله ، ووحدانيته ومحاربة الشرك ، والمشركين ، وتطويع المراكز الإدارية لدين الله سبحانه فى الأرض ، وتلك من وسائل تطبيق شرع الله تعالى فى الأرض .

ولمَّا باشر يوسف — عليه السلام — الوزارة بمصر ، ومضت سبع السنين المخصبة ، ثم تلتها سبع السنين المجدبة طبقاً لما فسره من رؤيا الملك ، وعم القحط بلاد مصر بأكملها ، ووصل إلى بلاد الشام ، وهى التى فيها يعقوب — عليه السلام — وأولاده .

وحينئذ احتاط يوسف ـــ عليه السلام ـــ للناس فى غلاتهم وجمعها أحسن جمع ، وورد عليه الناس من كل الأقاليم (٣٩) .

وكأن يوسف ـــ عليه السلام ـــ الشخصية الأولى فى تاريخ مصر آنذاك إذ حفظها من مجاعة مهلكة ـــ يعطيهم لأنفسهم وعيالهم ، فكان لايعطى الرجل إلا مقداراً مناسباً يكفل إبقاء حصص أخرى للآخرين .

وجاء إخوة يوسف ـــ عليه السلام ـــ من أرض الشام إلى أرض مصر طلباً للطعام فدخلوا عليه فعرفهم ولكنهم لم يتعرفوا عليه ، فرحب بهم أيما ترحيب ، وكان خير المنزلين لهم ضيافة وحسن لقاء ، وأكرمهم بوفاء الكيل ، وقبل أن تُحمل الإبل كان شرط يوسف ـــ عليه السلام .

سوف لا أعطيكم ما جهزتكم به إلا إذا رجعتم وأتيتم بأخ لكم من أبيكم

---

(٣٩) وقد دعا النبى ﷺ على مضر بالجدب والقحط كسنى يوسف ـــ عليه السلام ـــ فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : وكان النبى ﷺ حين يرفع رأسه يقول : **« سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد يدعو لرجال فيسميهم بأسمائهم فيقول : اللهم أنج الوليد بن الوليد ، ومسلمة بن هشام ، وعياش بن أبى ربيعة ، والمستضعفين من المؤمنين ، اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف ، وأهل المشرق يومئذ من مضر مخالفون له »** .

رواه الشيخان ، اللؤلؤ والمرجان ـــ كتاب المساجد ، مواضع الصلاة ٥ ـــ باب استحباب القنوت فى جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة رقم ٥٤ .

اشدد وطأتك .. الوطأة ـــ شدة الاعتماد على الرجل والمراد : اشدد بأسك ، وعقوبتك ، واجعلها أى السنين وقد نصوا على جواز عودة الضمير على المتأخر لفظاً ورتبة إذا كان مخبراً عنه بخبر يفسره بمثل .. ﴿ **إن هى إلا حياتنا الدنيا** ﴾ .. وما نحن فيه من هذا القبيل . سنين .. جمع سنة والمراد هنا زمن القحط كسنى يوسف ـــ عليه السلام ـــ السبع الشداد فى القحط وامتداد زمان المحنة ، والبلاء ، وبلوغ غاية الجهد ، والضراء (هامش اللؤلؤ) وهذا يدل على أهمية تفسير رؤيا الملك ، وأهمية الدور الذى يقوم به يوسف عليه السلام للخروج من هذه المحنة .

وهو شقيق يوسف [٤٠] وإلا فلا كيل ولا وزن ولا إقامة لكم هنا ولا ترحيب ، وقبولهم لهذا الشرط يدل على ما أصاب الناس بالشام أيضاً من مجاعة ، وعليهم أن يسيروا الأيام الطويلة ذهاباً وإياباً لينفذوا الشرط ، ثم هم لازالوا متهمين فى نظر والدهم يعقوب ــ عليه السلام ــ بشأن يوسف ــ عليه السلام ، فهو حتى الآن لم ينسه ، ويطمع فى اللقاء به من جديد ــ إن شاء الله تعالى .

وحين الرحيل كلف عماله ، ومن تحت يده ، من الموظفين أن يجعلوا بضاعتهم فى رحالهم التى جاءوا للاستبدال بها الحبوب .

تلهفهم على الطعام المشروط بحضور الأخ جعلهم يسرعون فى الحديث مع الوالد بهذا الشأن قبل أن يفتحوا رحالهم .

﴿ قالوا : يا أبانا مُنع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون . قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خيرٌ حافظاً وهو أرحم الراحمين ﴾ [٤١] .

ولكنهم بعد هذا أدركوا أن بضاعتهم فى رحالهم فلم صمموا على أخذ الأخ كما طلب يوسف ــ عليه السلام ؟ فعلوا ذلك حتى يُؤخذ نصيب هذا الفرد الجديد وذلك كسب زائد للطعام .

قال لهم أبوهم :

﴿ لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتننى به إلا أن يُحاط بكم فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل ﴾ [٤٢] .

ويظهر أن نوعاً من الندم قد أصاب الإخوة ، وأنهم أحسنوا المعاملة

---

(٤٠) مما يدل على أنه تداول معهم الحديث فذكروا له من أحوالهم وظروفهم الاجتماعية وأن لهم أخا غير شقيق ، وإلا لأثار طلب يوسف الأخ استغراباً فى نفوسهم وشكاً وهذا لم يحدث فدل على السابق .

(٤١) سورة يوسف الآيتان ٦٣ ــ ٦٤ .

(٤٢) سورة يوسف الآية ٦٦ .

بالوالد ، فقد لبى طلبهم على الرغم من فعلتهم السابقة فى يوسف ـــ عليه السلام ، ويدل على ذلك أيضاً خوفه عليهم من الحسد حيث طلب إليهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة ولا يدخلوا من باب واحد . وليس هذا اعتراضاً على حكم الله تعالى وقضائه ...

﴿ **إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون** ﴾ (٤٣) .

وقطع الإخوة الصحراء من جديد ومعهم شقيق يوسف،والتقوا جميعاً بمصر حيث وجد يوسف الفرصة لإخبار أخيه وكتمان ذلك،حتى تتاح فرصة تدبير مؤامرة للإبقاء على أخيه معه بمصر ..

لقاء الإخوة :

منذ أن تعرض الإخوة لطلب شقيق يوسف من الوالد ، وهم فى ابتلاء فقد كانوا متهمين فى نظر الوالد منذ البداية ، فكيف يعطيهم من جديد أخاهم ؟ واضطروا إلى أن يزدادوا فى الإلحاح على أبيهم حتى رضى ، وتم سفرهم إلى مصر كما سبق ؛ ليتعرضوا لابتلاء من صنع غيرهم . وقد يكون هذا تكفيراً لما صنعوه هم سلفاً .

فقد جهزهم يوسف ـــ عليه السلام ـــ بالطعام ، واحتال على أن يُبقى شقيقه معه بمصر دون أن يظهرهم على شخصيته ، فوضع صواع الملك فى رحل أخيه ـــ وهو الذى يُسقى به ـــ ولابد أن يكون نفيساً وله شأن عند الجميع . وعلى القافلة أن تتحرك متجهة إلى الشام .

وقطع مسيرهم هذا صوت مناد يصيح ، ويناديهم ، ففوجئوا جميعاً ولهم الحق فى ذلك ؛ فهم لم يسرقوا ، ولم يفكروا فى السرقة ؛ بل انصاعوا لحكمهم السابق فى إحضار الأخ ، ولذا كان تعجبهم وهم مقبلون على الصوت ماذا

---

(٤٣) سورة يوسف الآية ٦٧ .

تفقدون ؟ وأحكمت الحيلة من يوسف ـــ عليه السلام ـــ والذى سوغ له هذا ترتب المصلحة عليه ليوسف ، ولجميع الإخوة ، والوالدين .

وكانت إجابة المنادى نفقد صواع الملك ، ولمن جاء به البراءة ، والجائزة ، وضمان ذلك أن يتشجع ويعطينا ما أخذ ، ودار حوار بينهم :

﴿ تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين ، قالوا : فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ﴾ (٤٤) .

وكان جزاء السارق فى شريعة الخليل إبراهيم وإسحاق ويعقوب ـــ عليهم السلام ـــ أن السارق يدفع إلى المسروق منه ، ولم يتردد الإخوة فى أن يحكّموا شريعتهم التى تقضى بذلك وهم على يقين من براءتهم ، ولكن يوسف ـــ عليه السلام ـــ يريد إبقاء أخيه ، والأمور تسير حسب الخطة التى رسمها ، فكان التفتيش عن الصواع ؛ فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ، ثم انتهى به بتفتيش وعاء أخيه ، وتكرار كلمة أخيه تدل على الهدف .

وقد تحقق هذا الهدف بإلهام الله سبحانه وتعالى يوسف ـــ عليه السلام ـــ هذه الخطة مما يرفع أى لوم يُنسب إليه كرسول .

﴿ كذلك كدنا ليوسف ، ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله ﴾ (٤٥) .

ووصل الابتلاء إلى الذروة حيث لزمتهم الحجة بتطبيق شريعتهم هم والتى اقترحوها عقاباً لمن سرق . ووجدوا أنفسهم سينفصلون عن شقيق يوسف ، برغم المواثيق التى قُطعت بينهم ، وبين والدهم يعقوب ـــ عليه السلام ـــ ولم يصدقوا ما حدث ففوجئوا بأمر ما كانوا يتصورونه ، ولكن الدلائل الظاهرة تدل على السرقة فكان تعليقهم السريع من هول المفاجأة ..

﴿ إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ﴾ . أى يوسف ولم يرد فى سنة

---

(٤٤) سورة يوسف الآيتان ٧٣ ، ٧٤ .
(٤٥) سورة يوسف الآية ٧٦ .

أو قرآن بيان لنوع هذه السرقة أهى سرقة حقيقية لصنم يكسره أم غير ذلك ؟

المهم أنهم وقد أخطأوا فى الحكم والقياس اعتبروا عملاً مّا سرقة فى نظرهم وليس هو فى الحقيقة سرقة فقد كان تعليق يوسف — عليه السلام :

﴿ قالوا : إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف فى نفسه ولم يُبدها لهم ؛ قال أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون ﴾ (٤٦) .

فماذا يفعل الإخوة وقد أخذ عليهم والدهم الموثق لتأتننى به إلا أن يُحاط بكم ؟

ظلوا يلحون على العزيز فى العفو عن أخيهم ، أو أخذ واحد منهم مكانه وذلك مخالف لما اقترحوه هم من تحكيم شريعة يعقوب — عليه السلام — وكعادة المرء حين تكون له حاجة ويسعى فى مظانها أن يختار من صفات المخاطب ما يساعد على قضائها .. ﴿ **إنا نراك من المحسنين** ﴾ ، **وقد سبق أن قدمتم إلينا من** الإحسان بالتكريم ، وإعطاء القوت .

ولكن الخطة لها طريق آخر غير هذا الطريق . فكان لابد من تثبيت شريعة يعقوب فى الحكم . ﴿ **قال : معاذ الله . أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذن لظالمون** ﴾ .

وإذا كان يوسف قد نطق بالعبارة السابقة فقد كان حذراً حين لم يكرر النداء إنكم لسارقون وقال هنا : مَنْ وجدنا متاعنا عنده حيث رفع آصرة السرقة عن أخيه ، ولو تعبيراً ، ورتب الظلم على مخالفة القاعدة دون اعتبار المضمون فى التطبيق فهو بالحقيقة غير ظالم حين أراد أن يكون أخوه بجواره .

وانتهى الموقف بحتمية الإبقاء لأخى يوسف بمصر وعليهم أن يفكروا كيف يواجهون أباهم من جديد ؟

---

(٤٦) سورة يوسف الآية ٧٧ .

البراءة من الإهمال :

إن الإخوة هنا على نمط آخر مخالف لما كانوا عليه بصحراء الذئب إن الموقف قد آلمهم ، ووضعهم فى حرج شديد فقد كانوا على يقين أنهم سيحافظون على أخيهم وما تعرض إليه يوسف هم الذين صنعوه ويعلمون حقيقته .

بعد أن بذلوا جهداً كبيراً فى محاولة تخليص الأخ من الإبقاء عقوبة فى مصر عقدوا اجتماعاً فيما بينهم ذكرهم الأخ الأكبر بما كان من موثق حتى يتصرفوا فى ضوئه ، وقد ألزم نفسه المشاركة فى المعاناة ، فهو سيقيم بمصر قريباً حتى يأذن له أبوه أو يحكم الله حكمه ، وهو خير الحاكمين .

وبرغم الحكم على نفسه بالبعد عن موطنه لم يبخل على إخوته بالنصيحة ، والتى نفذوها بالحرف الواحد .

﴿ ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا ، وما كنا للغيب حافظين ، واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها وإنا لصادقون ﴾ (٤٧) .

والدلائل على البراءة هنا غيرها بالأمس :

فالقضية عرضت على وجه السرعة إن ابنك سرق .

وموقفهم أنهم شاهدوا هذا بأعينهم .

وإذا كنا قد أخذنا موثقاً على إرجاعه فنحن لا علم لنا بالغيب .

وإذا كان من شك فى كلامهم فالوالد يمكن أن يتأكد بسؤال جهتين :

جهة قريبة شاهدت الموقف ، وحضرت إلى الوطن . وهى القافلة التى علمت بشأن السرقة ، والتى لا يمكن أن تجمع على باطل .

وجهة بعيدة . هنالك بمصر ؛ فقد تسامع الناس أيضاً بخبر السرقة وإن كنا

---

(٤٧) سورة يوسف الآيتان ٨١ ، ٨٢ .

قد طلبنا تحكيم شريعة جدنا الخليل ، والتى تعاقب السارق نفسه دون بديل ؛ فهذا يدل على براءتنا ، وحرصنا على الوفاء بالموثق .

وأنى لهذه الدلائل أن تنسيه ابنين ، ومعهما أيضاً الابن الأكبر الذى لم يقدر على مواجهة والده ، فظل بعيداً .

﴿ قال : بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل ، عسى الله أن يأتينى بهم جميعاً؛ إنه هو العليم الحكيم ﴾ (٤٨) .

وبدأ يعانى الوالد المكلوم فى أولاده الثلاثة ، وأعرض عمن حمل إليه هذه الأنباء الحزينة ، واشتد بكاؤه حتى فقد بصره .

وبدأ الشعاع الإيمانى يرسل ومضاته نحو يوسف ، على الرغم من تباعد الزمن . مما يدل على قرب اللقاء .

ولم يستطع الإخوة أن يفسروا إحياء ما مضى من أحداث بعيدة ، وما ملكوا إلا أن قالوا : **﴿ تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين ﴾** (٤٩)

ولكن القلب الموصول بالله سبحانه يشكو بثه ، وحزنه إلى الله سبحانه ، ويعلم من الإلهام ، والهداية ما لا يعلمه غيره من الناس .

تحرك إيجابى :

وبدأ يعقوب ــ عليه السلام ــ يدخل هذه الأحداث بصورة جديدة . وقد دل كلامه على أن ذلك من هدى الله سبحانه وتعالى ..

﴿ وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ .

---

(٤٨) سورة يوسف الآية ٨٣ .

(٤٩) سورة يوسف الآية ٨٥ .

وأضاف إلى مخزون نفسه السابق تلك الرؤيا التى رآها يوسف إذن فلا زال فى الغيب فرصة اللقاء ، ولكن أين هى ؟ ومتى تكون ؟

إنه طلب إلى أبنائه عملاً .. وأوصاهم وصية والعمل والوصية لازمان ، وكل منهما مكمل للآخر .

فالعمل ذهابٌ إلى مصر من جديد ؛ بغرض البحث عن يوسف وأخيه ، والبحث يأخذ أشكاله ؛ من سؤال الناس ، وتسمع لما يدور بينهم ، وتحسس لما خفى من ملابسات تعين على الوصول إلى الغرض .

وقد يأخذ هذا العمل مدة ، وقد يصيبهم فتور ، أو يأس ، فكانت الوصية بعدم اليأس ، وضرورة المثابرة فى البحث ، وعلق يعقوب — عليه السلام — مشاعرهم هنا بالله سبحانه وتعالى ، فلم يقل : لا تيئسوا من الحصول على يوسف ، ولكن قال : ﴿ **لا تيئسوا من روح الله** ﴾ ؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى تولى وحده إدارة الأمور ، وتصريفها ولذا كان تعليله .. ﴿ **إنه لا ييئس من روح الله إلا القوم الكافرون** ﴾ (٥٠) .

ومعنى ذلك أن البشرى باللقاء بدأت تقوى فى نفس يعقوب ، ويريد أن يُزيلَ الإخوة آصرة الأخطاء السابقة ، بجدهم فى البحث ، وقد كان ..

ولكن الأحداث جاءت إليهم طبيعية ، وقد بدءوا متخفين فى صورة طلب الكيل ، والإنقاذ من الجوع ، والرجاء فى الإحسان ، والصدقة ؛ حيث فقدوا حتى الثمن المجزى ، وإن الله سبحانه هو المجزى على الصدقة .

وكانت سفرة مباركة ؛ حيث أفصح يوسف عن شخصيته

فرحة اللقاء :

وتحركت عاطفة الرحمة والشفقة بالإخوة حيث أخذت الشكوى مجالها فى

---

(٥٠) سورة يوسف الآية ٨٧ .

نفوسهم وذلك مما أصابهم من القحط والجدب ، وقد وصل بهم الأمر ـــ كما سبق ـــ أن لم يملكوا الثمن الذى يوفر لهم القدر الذى ينقذهم مما أصابهم . فأشفق عليهم حيث وصلوا إلى آخر نقطة فى مسيرة كانت بقيادتهم ؛ ليسلموا الزمام بكامله إلى من تسلم زمام دولة بكاملها ؛ لأنه حفيظ عليم .

ومن نبرات جديدة بعيدة عن الكيد والحيلة تذكروا نبرات أخ فقدوه منذ أمد بعيد ﴿ **قالوا : أئنك لأنت يوسف ؟ قال : أنا يوسف وهذا أخى** ﴾.

وعلى الفور نبههم إلى أن هذا المصير وقد ارتبط بما سبقه من نجاة ، وحفظ ، وبراءة من الباطل ، ودعوة إلى الله من صنع الله سبحانه :

﴿ **إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين** ﴾ .

ولم يبدأ اللقاء إلا وارتفعت كلمة الحق الخالصة لله سبحانه فى كل زاوية من زوايا المجلس أما الإخوة فإنهم يتحركون من الأرض إلى أعلى ﴿ **لقد آثرك الله علينا** ﴾ (٥١) .

ولم يناقشوا أنفسهم لم كان هذا الإيثار ؟ ولعلهم سيفهمون هذا فى مستقبل أيامهم ، أما يوسف ـــ عليه السلام ـــ فيخاطبهم حيث هو ..

﴿ **لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين** ﴾ (٥٢) .

وتبدأ أغرب رحلة فى تاريخ البشرية ، إنها رحلة قميص تمتد رائحته عبر الأميال ؛ فتقطع الصحراء الشرقية لمصر ، وسيناء وجنوب الشام ، إلى موطن يعقوب .

فبمجرد أن تحركت العير بالقميص قال : إنى لأجد ريح يوسف . على الرغم من أن إعلان هذا الأمر وجد غرابة كبرى ، واتهاماً منكراً من غيره ، ولكنه كان على يقين من ذلك ، كما أن يوسف عليه السلام كان على يقين بما هو أكبر من

---

(٥١) سورة يوسف الآية ٩١ .

(٥٢) من سورة يوسف الآية ٩٢ .

ذلك فإذا كان يعقوب ـــ عليه السلام ـــ قد وجد رائحة يوسف من قميصه ، فإن يوسف عليه السلام علم ـــ بإذن الله ـــ أن إلقاءه على وجه أبيه سيعيد إليه بصره ، وقد كان .

وحين صدَّق الواقع ما أعلنه كل من يوسف ، ويعقوب ـــ عليهما السلام ـــ أعلن من سبق له أن أنكر : ﴿ **يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين ، قال : سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم** ﴾ .

وها هى القافلة تتحرك من جديد إلى مصر ؛ لا طلباً للقمح ، والطعام ، ولكن لينعم أهلها بالأمن فى مصر ؛ حيث يوسف ـــ عليه السلام .

وإن طوت الآيات الكريمة هذه الصفحات ؛ فلأنها تعلن عن نفسها دون حروف .. والد مكلوم يقدم على ابنه الحبيب وقد عاش أيام غربته على هذا الأمل الذى لم يُفقد أبداً .

فأى فرحة كبرى عنوانها ارتداد البصر ؟! إنها ولابد أن تكون أعظم فرحة .

وها هى الصورة تنقلنا إلى مصر حيث التقى الجميع فى مكان واحد ، وآمن ، يكون الوالدان أقرب إلى يوسف ، وحوله إخوته ورفع أبويه على العرش وخروا له سُجّداً وقال :

﴿ **يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقاً** ﴾ [٥٣] .

وعلى الرغم مما احتواه الماضى من غربة ، وسجن ، فقد أحسن الله بى إذ أخرجنى من السجن ، كما أحسن بكم إذ جاء بكم إلىّ أولاً ، ونقلكم من بداوة الشام إلى الحاضرة مصر ، والعدو الحقيقى الذى يجب أن نستعيذ بالله منه هو الشيطان الرجيم فهو الذى نزغ بينى وبين إخوتى ﴿ **إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم** ﴾ .

---

(٥٣) من سورة يوسف الآية ١٠٠ .

وارتفعت أكف الضراعة إلى الله سبحانه بالجميل من الدعاء ؛ اعترافاً بالنعم ، وإثباتاً لعظمة الله سبحانه فى خلقه للسموات ، والأرض ، واعترافاً بأنه ولى المتقين والصالحين ...

وتلك المقدمات فى الدعاء لأجمل رجاء

﴿ **توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين** ﴾ (٥٤)   اللهم آمين .

---

(٥٤) من سورة يوسف الآية ١٠١ .

دروس وعبر :

- لاتنال الدرجات الرفيعة إلا بما قدم المسلم من أعمال الخير بأنواعها ؛ من علم ، وقدرة على سياسة الأمور ، وتقديم العون للناس ، وقد كان يوسف عليه السلام فى المقدمة من هذا .
- إن مصدر النعم هو الله سبحانه وتعالى ، وقد أتم نعمه على أنبيائه الكرام ، ولذا كانوا معصومين من الخطأ فى التبليغ عن ربهم .
- السنة النبوية مبينة للقرآن الكريم وموضحة له حين بينت أكرم الناس ، وذكرت مثلاً على ذلك بالعقلاء من البشر إذا استغلوا عقولهم فى الفقه ، والفهم ، والاستنباط .
- إن الرؤيا تختلف باختلاف الرائى ؛ فرؤيا الأنبياء وحى ، ورؤيا الصالحين حق ، وهى بهذا الوصف جزء من النبوة ؛ لأنها إخبار بالغيب .
- إذا ما كانت رؤيا خير فتعريف من يحبونه ويقدرونه دون غيرهم من تمام هذا الخير ، فى المودة بين الناس كما طلب يعقوب إلى يوسف عليهما السلام حين رؤياه .
- رؤيا المرء ما يكره تكون من الشيطان لإزعاج المسلم وعلينا من وسائل حربه ، وتفويت الفرصة عليه ألا نوسع دائرة الإزعاج ، وذلك بكتمانها عن الآخرين من الناس .
- على الوالد أن تكون معاملته لبنيه بالعدل ، والرحمة ، والعدل ؛ يقضى بالتساوى بينهم ، والرحمة تقضى بالعطف والشفقة لمن هو بحاجة إليهما .
- إن حب الوالد أو المربى لأحد الأبناء قبس يقذفه الله سبحانه فى قلوب عباده ، ولا يملكون دفعه ، ولذا لا يؤاخذهم على التفاوت فى هذا الحب .

فإذا ما خرج هذا الحب فى صورة تمييز مادى خرج أيضاً من دائرة الحل إلى الحرمة ويُعتبر ظلماً بنص الحديث السابق [55] .

— أخطأ الأبناء حين عتبوا على أبيهم حين أحب أصغرهم ، ولم يلتفتوا إلى سبب الحب ، والحنو ، وهو الصغر ، ورتبوا على الخطأ فى الفهم ، ما هو أفدح لو كان صواباً ، وذلك من نزغات الشيطان .

— تتوجه القوة إلى الشر إذا ما سبقها خطأ فى الاعتقاد وعصبة الإخوة قوة توجهت إلى إلحاق الضرر بالصغير .

— العقل الجماعى يشكل قوة جديدة فوق قوة الأفراد ؛ فعلى الدولة الإسلامية أن توزع عناصر الشر بالنفى مع المراقبة ، ومن جهة أخرى على جماعة الخير أن تلزم جماعتها؛ فقوتها فى الاعتصام بها ، وعدم التفرق كما أمر الله سبحانه ، ولتحذر الجاهلية التى تبث الفرقة بينها بالكثير من الوسائل .

— على المسلم ألا يقبل الخبر دون تبين ، وتثبت .

ولهذا الأمر ثلاث حالات :

(ا) **الحالة الأولى** : يكون فيها صاحب الخبر ، وحامله ثقة ، ولم يعلم عنه إلا الضبط فى القول ، والتأكد من الأخبار قبل نقلها .

وفى هذه الحالة يجب على المسلم أن يصدق مثل هذا الشخص .

وتلك قاعدة فى علم الحديث : أن يكون الراوى عدلاً تام الضبط ، يروى عن مثله ، عن مثله ، حتى نهاية سلسلة السند ؛ فيكون الحديث صحيحاً لصحة السند .

---

(٥٥) موضوع يوسف — عليه السلام — وإخوته ، الهامش .

ولم يكن إخوة يوسف ــ عليه السلام ــ على مثل هذه الحال ، حين رجعوا ، وأخبروا أباهم بأن الذئب قد أكل يوسف ــ عليه السلام .

(ب) الحالة الثانية : يكون فيها صاحب الخبر مشكوكاً فيه ، أى يحوز أن ينقل الصدق ، والكذب ، وعلى المسلم فى مثل هذه الحالة أن يتأكد ، ويتبين . وفى هذا وردت الآية الكريمة :

﴿ يأيها الذين آمنوا ، إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ﴾ (٥٦)

ورد يعقوب ــ عليه السلام ــ على الإخوة بقوله :

﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمراً ﴾ (٥٧)

يؤكد أن هذا الخبر ليس من هذه الحالة أيضاً ، فقد حكم عليهم بالكذب ابتداءً .

(جـ) الحالة الثالثة : يكون فيها صاحب الخبر ، أو حامله متهماً بالكذب ، والعداوة ، وتدل الدلائل على ذلك ، وكان إخوة يوسف ــ عليه السلام ــ فى موقفهم السابق ــ على هذه الحالة ، ومثلها أيضاً حين يطلق العدو الكافر ، أكان من الشرق ، أو الغرب أخباراً تمس أصولنا وعقيدتنا ، وتشوه اجتماعنا واعتصامنا بحبل الله سبحانه ، وتسيء إلى كتابنا ، ونبينا ...

وقد يقدم بعض الأخبار الصادقة ؛ بغية النيل من فريسته **﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ، ولو كره الكافرون ﴾** (٥٨) .

وقد أمر الله سبحانه المؤمنين باتخاذ الحذر ، فقال : **﴿ يأيها الذين آمنوا ، خذوا حذركم .. ﴾** (٥٩) وفى هذا الباب تفصيل فارجع إلى مصادره .

ــ ليس هناك جريمة كاملة الإخفاء ، ولابد أن يبقى لها أى أثر . وقد

---

(٥٦) سورة الحجرات ، الآية ٦ (٥٧) سورة يوسف ، الآية ١٨ .

(٥٨) سورة التوبة الآية ٣٢ . (٥٩) سورة النساء ، الآية ٧١ .

رأى يعقوب ـــ عليه السلام ـــ من العلامات التى تدل على كذبهم وأعلن عليهم ﴿ **بل سولت لكم أنفسكم أمراً** ﴾ .

ـــ إن صحراء الشام وسيناء كانت تجتازها القوافل ذهاباً وإياباً منذ القِدم .

ـــ تناثر الآبار فى الصحراء يمكّن القوافل من الضرب فيها بأمان من الهلكة .

ـــ سلطة الكبير على الصغير استغلت فى السابق للاسترقاق ظلماً وقد حارب الإسلام هذا ، وذلك فى ضوء بيع يوسف بعد أن التقط من الجُب ، ولم يظهر على أحد أفراد القافلة من خالف ذلك .

ـــ من شأن السارق ومن يحصل على متاع دون جهد عدم الحرص عليه والتفريط فيه بأقل الأثمان مما يفضح أمرهما .

ـــ من يقدم الخير يهيىء الله سبحانه له من الأمان والإكرام الشىء الكثير .
﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجاً** ﴾ .

ـــ الله سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته ، ويولى أنبيائه من الكرم حتى ولو كان فى صورة معاناة وتعب .

ـــ على أهل الخير والتقوى مهما تباعدت أوطانهم وتعددت جماعاتهم أن يبذلوا مودتهم لإخوانهم أين كانوا ؛ كما كان ترحيب يوسف بالنبى الخاتم ـــ عليهما السلام ـــ ودعاؤه له . وعكس ذلك أن تحيا المنازلة بين الأفراد ، والجماعات ، ويحل الخصام محل الوئام .

ـــ أخطر فتنة توجه إلى الشباب بشكل خاص ، والرجال بصفة عامة ما كانت عن الطريق الجنسى ولذا وجب على الدولة ما يلزم من وقاية وحماية مما تصنعه وسائل الإعلام الرخيصة .

ـــ على الداعية المسلم أن يقى نفسه مواطن الزلل والبعد عن مواطن الشبهات ويحذر وساوس الشيطان من هذه الناحية .

ـــ خلوة المرأة بالشاب ، وخلوة الرجل بالمرأة يحرك من غرائزاها ، وتحرك من غرائزه ، ولذا يلزم الأسر المسلمة من الحيطة ، من ترك الخدم بالبيت مع جنس آخر من أصحاب البيت .

ـــ قوة الإيمان تقف فى وجه محاولات الإغراء والإثارة من المرأة الأجنبية ، وتقى صاحبها مصارع السوء .

ولذا يلزم الاهتمام أساساً بتقويم العقيدة فى نفس المسلم التى ترفض تلك المحاولات والتى يمكن أن تأتى أيضاً فى المستقبل عند تخصيص قمر صناعى لنقل الإرسال التليفزيونى الحر للشبكات المختلفة كما أعلن أخيراً .

ـــ يُتهم البرىء ممن يملك السلطة ، برغم وضوح الدلائل المادية لتبرئته ، كما حدث من امرأة العزيز عند رؤية العزيز وادعائها على يوسف ـــ عليه السلام .

ـــ علينا الاهتمام أيضاً بإبراز الدلائل المادية ، والحرص عليها بالإضافة إلى ما نملكه من عقيدة ، وصدق .

ـــ وقوف المرء بجوار الحق ولو كان ضد أقربائه كما حدث أولاً من العزيز .

ـــ السجن على طول المكث فيه ، أخف على النفس المسلمة العفيفة من الوقوع فى الجريمة الخلقية مما يدل على نظافة المجتمع الإسلامى وطهارته ، عكس المجتمعات المادية التى تلهث وراء الانحدار الخلقى ، وتبذل الغالى والرخيص فى سبيل الحصول على المتع الجسدية المحرمة .

ـــ الداعية المسلم ينتقل دائماً بدعوته ولو كان بأحلك الأوقات ، ويختار للظرف ما يناسبه ، ويستغل الأحداث لصالح دعوته .

فيوسف عليه السلام دعا بالسجن ، واختار العقيدة للتركيز عليها واستغل علمه بتفسير الرؤيا لصالح الدعوة ، وحرك النفس البشرية بما تحتاجه من طعام .

— تقويم المجتمع يتم ، ويقوم بميزان الله سبحانه الذى أنعم به على البشر ، ومن الواجب عليهم شكره لا جحوده .

— الدعوة إذا ما أخذت طريقها الصحيح بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، والجدال بالتى هى أحسن لمست جوانب النفس البشرية ، فحركتها إلى الخير خطوة لتتلوها خطوات ، كما حدث لصاحبى السجن .

— قد يكون مع الحكم الجاهلى بصيص خير ، ونور فالملك استشار من حوله وطلب الفتيا فى أمر الرؤيا ، وأذعن لتفسير من أودعه السجن قبل ذلك .

ونرى الآن مجتمعات كافرة شاعت فيها الشورى والحرية ، كما نرى ممن يزعمون أنهم مسلمون كبت الحرّيات ورفض الشورى فى سياسة الدولة .

— حرص المسلم على تقديم الخير للمجتمع الذى يعيش فيه وتجنيبه المهالك ، كمسلك يوسف فى تفسير الرؤيا ، وتبصير القوم بما يلزم من تدبيرات لازمة للخروج من الأزمة بسلام .

— حين يتيقن الداعية المسلم من حصوله على كسب لدينه يخطو خطوته الثانية دون استعجال للأحداث . فبعد أن كان الوثوق من حكمة يوسف على ملأ من الناس طلب البراءة مما اتهم به وقد كان .

— تجمع المواقف المشرفة للداعية تجبه المعارضين وتجبرهم على الاعتراف بما حاكوه من كذب ضد داعية برىء ﴿ **الآن حصحص الحق** ﴾ (٦٠) .

— إعداد الأكفاء الصالحين لقيادة الدولة ولو جزئياً ليضيفوا إلى الرصيد الطيب ما يحققونه لصالح الدعوة من مراكزهم .

---

(٦٠) من سورة يوسف ، الآية رقم ٥١ .

ـــ يجوز شرعاً أن يطلب المسلم الكفء الإمامة ، على أى درجة هى ؛ إمامة عامة ، أو خاصة ، كما طلب يوسف ـــ عليه السلام ـــ أن يكون مسئولاً عن المواد التموينية ، والمالية ، قال الله تعالى على لسانه:

﴿ **اجعلنى على خزائن الأرض ؛ إنى حفيظ عليم** ﴾ (٦١) .

وكما قال تعالى فى موضع آخر على لسان عباد الرحمن :

﴿ **واجعلنا للمتقين إماماً** ﴾ (٦٢)

واتضحت الكفاءة فى الموقف الأول ، فى قوله : ﴿ **إنى حفيظ عليم** ﴾ وفى الثانى من الأوصاف التى سبقت الآية لعباد الرحمن .

وربما يصل الأمر إلى مرتبة الفرض إذا لم يكن إلا هذا المسلم لهذا المكان ، وللخوف من تسلم المنحرفين له ، فيعيثون الفساد فى الأرض .

ـــ وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب مسئولية الحاكم الذى يريد الخير لأمته فقد جمع يوسف من الكفاءات ..

(ا) الخبرة بالتخزين الجديد الذى يحفظ الحبوب من الفساد كما ظهر من تفسيره للرؤيا .

(ب) من جانب الأمانة وهو أمر ضرورى ؛ حتى تؤتى الخبرات الأخرى ثمارها .. ﴿ **إنى حفيظ عليم** ﴾ .

(جـ) العلم بطريق التوزيع طوال فترة الجدب ؛ كما دلت عليه تصرفاته القادمة ، والخروج من الأزمة بسلام ، برغم طول فترة الجدب ، وخطورته على الأمم .

فقد دعا النبى ﷺ على مُضَرَ به وقت أن كانت

---

(٦١) من سورة يوسف ، الآية رقم ٥٥ .

(٦٢) من سورة الفرقان ، الآية رقم ٧٤ .

مشركة ، وقبل أن تسلم .

(د) تقديم الآخرين على نفسه إيثاراً فقد طلب الملك أن يكون يوسف مكيناً لديه ، ولكنه عَدَّل الرغبة لتكون فى خدمة المجتمع ككل .

— إن مصر كانت ذات مركز دولى آنئذ ، وقد رفع من شأنها أيضاً تسلم يوسف عليه السلام إدارة المخازن ، والتوزيع حسب خطة مرسومة .

— الإنسان بماضيه تأثراً ، وحاضره تقويماً ، ومستقبله رجاء ، وعزاً . فلم ينس يوسف ما سبق من أحداث ، ولجأ إلى ربه سبحانه فيما يحقق له ولقومه من أمن وعز .

— الداعية المسلم تلزمه الفطنة ، والذكاء ، والسعى إلى تحقيق الغرض حين الضرورة بالحيلة والكيد .

﴿ **كذلك كدنا ليوسف** ﴾ (٦٣) .

— إن الله سبحانه يعاتب عباده بما يجترحون من سيئات .

﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم** ﴾ (٦٤) وذلك ما حاق بإخوة يوسف .

— كان للخليل وأبنائه شريعة محكمة ، اقترح الإخوة تطبيقها على أنفسهم ، برغم بُعد الشقة ، ومن موادها أخذ السارق ليكون فى ملك المسروق رقيقاً .

— مهارة الحاكم المسلم حين يواجه خصومه الماكرين ، وتفوقه عليهم بالحيلة ، إذا ما كان الغرض مصلحة الدولة ، والمجتمع ؛ لا تحقيقاً

---

(٦٣) من سورة يوسف ، الآية رقم ٧٦ .

(٦٤) من سورة الشورى ، الآية رقم ٣٠ .

لنفع شخصى .

ــ حرص المتهم على أن يجمع من الدلائل التى تكفى لتبرئته لازم عُرفاً وشرعاً ، كما حدث من الإخوة سرّاً ، وكما يلزم للحصول على بغية المرء من تحسس الأخبار سراً ، وعدم اليأس .

ــ التقوى والصبر عليها تحققان الفرج

﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ﴾ (٦٥) وقد أعلن يوسف عليه السلام ذلك لإخوانه ؛ شكراً لربه سبحانه ، وتوجيهاً لإخوانه .

﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ (٦٦) .

ــ من الخوارق للعادة التى حدثت أن يشم يعقوب رائحة يوسف عليهما السلام من قميصه على بعد مئات الأميال بين مصر والشام

ــ العفو والصفح عن المسىء سبيل إلى مرضاة الله سبحانه ، وسبيل لإصلاح نفسية هذا المسىء ؛ كما صنع يوسف ــ عليه السلام ــ لإخوته بمصر ، وكما صنع أبو بكر الصديق ، وابنته التى نزلت براءتها من السماء مع من اجترحت ألسنتهم آصرة الإفك .

ــ بدأ تاريخ يعقوب فى مصر منذ هذه الحقبة على يد يوسف عليه السلام بمجموع الأبناء الاثنى عشر ، والذين تمايزت بيوتهم بعد ذلك كما سنرى ــ إن شاء الله تعالى فى قصة موسى ــ عليه السلام ــ والله أعلم .

---

(٦٥) من سورة الطلاق ، الآية ٢ .

(٦٦) من سورة يوسف عليه السلام ، الآية ٩٠ .

أيوب ، واليسع ، وذو الكفل ـــ عليهم السلام .

ـــ أيوب ـــ عليه السلام .
ـــ اليسع ـــ عليه السلام .
ـــ ذو الكفل ـــ عليه السلام .
ـــ دروس وعبر .

أيوب ــ عليه السلام :

يتصل نسبه بإبراهيم ــ عليه السلام ، وليس من طريق إسماعيل الذبيح ولكن أهو عن طريق إسحاق من يعقوب أو غيره ؟ ليس هناك ما يؤكد ، أو يرجح أحدهما ، وإن كان الحديث النبوى الوحيد الذى أورده البخارى تعليقا ووصله النسائى كما ذكر القسطلانى (١) يدل على مخالطة بنى إسرائيل (يعقوب) أكان منهم أم من غيرهم ؟ .

والآيات الكريمة بسورتى الأنبياء ، و « ص » تدل على أن أيوب ــ عليه السلام ــ تذرع بالصبر .

يقول الله تعالى :

﴿ وأيوب إذ نادى ربه أنى مسَّنى الضر ﴾ (٢) .

وقال : **﴿ واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسّنى الضر ﴾** (٣) .

وقال : **﴿ إنا وجدناه صابراً ﴾** (٤) .

والإصابة بالضر على نمط يكون الصبر عليه صفة مميزة لصاحبه من غيره يدل على أمرين :

(ا) ــ بلوغ الصبر مداه .

(ب) ــ سَبْق هذا الضر بِمُخَالِفه من تمام فى الصحة ، ووفرة فى المال ، وكثرة فى الولد ، ليبلغ الضر أقصاه من حرمان مما سبق ودخوله إلى مزيد فى الجسم .

---

(١) أحد شراح صحيح البخارى .
(٢) سورة الأنبياء رقم ٨٣ .
(٣) سورة ص رقم ٤١ .
(٤) سورة ص رقم ٤٤ .

أيوب ـــ عليه السلام ـــ يشكو إلى الله سبحانه :

ولم يجزع أيوب بل تذرع بالصبر على هذا الابتلاء ، وقد مدحه الله سبحانه بذلك ﴿ **إنا وجدناه صابرا نعم العبد** ﴾ ، وتضرع إلى ربه سبحانه أن يرفع عنه هذا البلاء ؛ فالله سبحانه أرحم على عباده من أنفسهم .

﴿ **وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين** ﴾ .

وكما وصف بالصبر على الابتلاء ، فهو نعم العبد ، وهو أواب ، تائب ، راجع إلى ربه أرحم الراحمين .

فكان أن استجاب الله لدعائه حيث قال :

﴿ **فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر** ﴾ (٥) .

وارتبط كشف الضر عن أيوب عليه السلام بتكليف الله سبحانه إياه بمحاولة يسيرة وممكنة لمبتلي مثله (٦) وذلك بأن يضرب برجله الأرض ، والضرب بالرجل للأرض لا يفجر عادة العيون ، ولكن الله سبحانه الذى كلف عبده الصابر أيوب هو الذى سيضاعف هذه القوة أضعافا كثيرة .

فتنفجر الأرض ، وينبع منها ماء صالح للشرب ، والاغتسال ، بل يكون منه الشفاء بإذن الله سبحانه ؛ لتتحقق الرحمة بتمامها لأيوب ـــ عليه السلام ـــ فقد تماثل للشفاء ، وقوى على العبادة من جديد .

يقول الله تعالى :

﴿ **اركض برجلك ؛ هذا مغتسل ؛ بارد ، وشراب** ﴾ (٧)

---

(٥) من سورة الأنبياء الآية رقم ٨٤ .

(٦) يشير هذا إلى قوله تعالى لمريم : ﴿ **وهزى إليك بجذع النخلة ..** ﴾ فذلك هو الأمر اليسير لها فقط ، وهو بحاجة إلى مضاعفة من الله سبحانه ؛ ليكون سببا لتساقط التمر .

(٧) سورة ص الآية رقم ٤٢ .

وأفاض الله عليه ؛ بأن أعطاه الذرية العابدة القانتة التى آمنت بالله سبحانه ، وآمنت بأيوب — عليه السلام — نبيا كريماً . وفى أول قائمة هذه الذرية زوج أيوب — عليه السلام .

قال الله تعالى :

﴿ فاستجبنا له ، فكشفنا ما به من ضر ، وآتيناه أهله ، ومثلهم معهم ؛ رحمة من عندنا ، وذكرى للعابدين ﴾ (٨) .

وقال أيضاً :

﴿ ووهبنا له أهله ، ومثلهم معهم ؛ رحمة منا وذكرى لأولى الألباب ﴾ (٩) .

وأهل الرجل كما يقول صاحب القاموس : عشيرته ، وذوو قرباه ، كما تطلق أيضاً على الزوجة (١٠) ، وإعطاء الله تعالى أيوب — عليه السلام — الذرية

---

(٨) سورة الأنبياء الآية رقم ٨٤ .

(٩) سورة ص الآية رقم ٤٣ .

(١٠) وفى المعنى الأول ورد قوله تعالى : **﴿ فأنجيناه ، وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾** (الأعراف ٨٣) فاستثناء المرأة ، وهى الزوجة من الأهل يدل على أن الأهل عشيرة الرجل ، وذوو قرباه . وفى المعنى الثانى ورد قوله تعالى على لسان امرأة العزيز : **﴿ قالت : ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن ﴾** (يوسف ٢٥) فإذا ما أضيفت إلى غير الرجل دلت على معنى أوسع ، قال تعالى : **﴿ رب اجعل هذا بلداً آمنا ، وارزق أهله من الثمرات ﴾** (البقرة ١٢٦) ويحدد المعنى المراد بالقرينة .

فقد أضيفت كلمة « أهل » إلى الضمير العائد لأيوب — عليه السلام — فانحصر المراد فى المعنى الأول ، والمعنى الثانى .

وعود الضمير فى قوله **﴿ ومثلهم معهم ﴾** بصورة الجمع . يحدد المعنى الأول فقط ، دون الثانى .

فيكون المراد ، والله أعلم . على هذا النحو : إن الله سبحانه وهب أيوب — عليه

الصالحة ، من زوج وأقارب ، وكذلك من تبعه من الصالحين ، كان رحمة منه سبحانه ، وذكرى لأولى الألباب العابدين .

والرحمة من الله سبحانه هنا شملت :

أيوب ــ عليه السلام ــ بإعطائه هذا الخير .

كما شملت زوجه ، وأقرباءه بأن آمنوا بالله سبحانه ربا واحداً ، وبأيوب ــ عليه السلام ــ نبيا كريماً .

كما شملت الناس الذين آمنوا بأيوب ــ عليه السلام ــ من غير الأقرباء .

وتشمل اللاحقين الذين يأخذون العبرة من القصص القرآنى ، وهم أولو الألباب والعقول الفاهمة .

وكان تكليف آخر لأيوب ــ عليه السلام ــ يقول الله تعالى :

﴿ وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث ﴾ (١١) .

ويشير هذا التعبير القرآنى الكريم إلى جملة أمور منها .

ــ أنه قد سبق حلف من أيوب ــ عليه السلام ــ وهو فى حرج من تنفيذه .

ــ أن تنفيذ هذا القسَم ارتبط بعودة صحته حيث يكون قادرا عليه .

ــ أن اليمين ارتبط بشخص ، ومضمونه أن يضربه متى قدر على ضربه إياه .

= السلام ــ أقرباءه ؛ بعد أن قذف بالإيمان فى قلوبهم ، كما وهبه أيضاً من غير الأقرباء مثلهم عدداً ، وتلك رحمة من الله سبحانه ، وذكرى للعابدين .

ولا يخفى فى هذا المقام أيضاً أن كلمة « رحمة » وقعت مفعولا لأجله ، وعطفت عليها « ذكرى » وبذلك نرى فساد رأى من يقول إن اسم زوجة أيوب كان « رحمة » بناء على هذا والله أعلم .

(١١) من سورة ص الآية رقم ٤٤ .

ـــ ولم يكن هناك من شخص قريب منه عادة ، وهو قريب غير زوجته .

ـــ وأن هذه الزوجة قد قصرت أو أخطأت أو فعلت مباحاً ولكن لم يرض عنه أيوب ـــ عليه السلام .

ـــ وأن الله سبحانه وتعالى رحمة منه بأيوب وزوجه طلب إليه ليبرّ فى قسمه أن يأخذ عيداناً ضعيفة فيضرب بها زوجه ويكون بذلك قد برَّ فى قسمه ولم يؤذ زوجه حيث لم يكن عملها جزما كبيراً .

وتدل هذه الأمور مجتمعة على :

أن الله سبحانه ، طلب إلى أيوب ـــ عليه السلام ـــ أن يأخذ عيداناً ضعيفة فيضرب بها زوجه ؛ إبراراً لقسم أقسمه عليها (١٢) .

وفى هذا ما يشير إلى ضرورة التيسير فى الفتوى ، ومراعاة الناس وأحوالهم ، وأن التشديد عليهم فيه مخالفة شرعية .

واشترك أيوب ـــ عليه السلام ـــ مع بنى إسرائيل (يعقوب عليه السلام) فى معيشتهم وحياتهم . ومما يدل على هذا الاشتراك هذا الحديث الشريف كما سبق أن نوه إليه .

عن أبى هريرة ـــ رضى الله عنه ـــ عن النبىّ ﷺ « **بينما أيوب يغتسل عريان فخر عليه جراد من ذهب فجعل أيوب يحتثى فى ثوبه فناداه ربه : يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ قال : بلى وعزتك ولكن لا غنى لى عن برّ بركتك** » (١٣) .

---

(١٢) وليس فى النصوص المعتمدة ما يحدد نوع عمل الزوجة فوجب الوقوف على ما تدل عليه الآيات فقط .

(١٣) رواه البخارى تعليقاً ووصله النسائى ، كما ذكر العسقلانى فى شرحه . جراد من ذهب : الأظهر أن يكون ذهباً على شكل جراد ـــ يحتثى : أى يأخذ بيده ، ويرمى فى ثوبه ج ١ ص ٧٨ كتاب الغسل باب من اغتسل عريانا وحده فى الخلوة ج ١ ص ٣٣١ من إرشاد السارى .

وفى رواية سابقة عنه « **كان بنو إسرائيل يغتسلون عراة ينظر بعضهم إلى بعض وكان موسى يغتسل وحده** » .

وفى ضوء الحديثين نرى. .

أن أيوب — عليه السلام — اغتسل وحده فى خلوة من الناس ؛ فهو لا يفعل ما يتناقض مع ما نص عليه موسى — عليه السلام — حيث كان يغتسل وحده منكرا ما يفعله بنو إسرائيل من الاغتسال عراة ينظر بعضهم إلى بعض (١٤) .

وأن الله سبحانه قد أهبط عليه قطعا من الذهب على شكل الجراد وأن أيوب قد اهتم بذلك فبدأ بجمع تلك القطع الذهبية فى ثوبه ، وأن الله تعالى قد عاتبه على هذا الجمع والاهتمام به حيث قد أغناه سلفا ولم يعد بحاجة إلى تلك القطع ، وما كان إنزالها إلا اختبارا له ، ولكن أيوب — عليه السلام — يوعز ذلك بأنه لا غنى له عن بركات ربه ؛ حيث حصَّنه بذلك . ولم يرد فى الحديث عقب ذلك ما يدل على إنكار جديد من الله سبحانه لما صنعه أيوب — عليه السلام — .

اليسع ، وذو الكفل — عليهما السلام :

يتصل نسب كل منهما كما يبدو من الآيات الكريمة بإبراهيم الخليل — عليهم السلام — وإن كان من آراء أخرى فليس على سبيل اليقين .

وقد وصف الله سبحانه وتعالى اليسع — عليه السلام — بأنه من المفضلين على العالمين وبأنه من الأخيار حيث قال الله تعالى :

---

(١٤) قال العسقلانى صاحب فتح البارى شرح البخارى عند شرحه هذا الحديث : وكان حراما عندهم لكنهم كانوا يتساهلون فى ذلك وهذا هو الظاهر (فقد ذكر العسقلانى احتمالا آخر) ويؤيده قول القرطبى : كانت بنو إسرائيل تفعل ذلك معاندة للشرع مخالفة لموسى — عليه السلام — وهذا من جملة عتوهم وقلة مبالاتهم باتباع شرعه .

﴿ وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين ﴾ (١٥)
وقال : ﴿ واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار ﴾ (١٦) .

واختيار الله سبحانه وتعالى وتفضيله المرء على العالمين يدلان على نبوة وعلى قيادة لجمع من الناس .

وقد وصف الله سبحانه ذا الكفل ــ عليه السلام ــ بأنه من الأخيار كاليسع ــ عليه السلام ــ كما سبق فى آية « ص » ووصفه بأنه من الصابرين حيث قال :

﴿ وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كلٌّ من الصابرين ﴾ (١٧) والصبر يدل على معاناة فى دعوته الناس بشكل عام .

وقد أسهبت بعض الكتب فى سرد قصتيهما دون اعتماد على أصل صحيح ، فآثرنا الاكتفاء بما اختاره الله سبحانه لنا من علم بشأنهما ، ولا مبرر أبداً لأن نسود الصفحات من غير المعتمد فى ديننا والله سبحانه أعلم .

---

(١٥) من سورة الأنعام الآية ٨٦ .
(١٦) من سورة ص الآية ٤٨ .
(١٧) من سورة الأنبياء الآية ٨٥ .

دروس وعبر :

ــ إن الله سبحانه يمتحن عباده ويمحصهم ليميز الخبيث من الطيب والصالحون منهم يتذرعون بالصبر على البلاء ؛ كما صبر أيوب ــ عليه السلام ــ وكما قال الرسول ﷺ :

« عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له » (١٨) .

ــ ومن لوازم الصبر أن يجأر المبتلى بالشكوى إلى الله . لا جزعا من وقوع المصيبة ، ولكن تذللا وتضرعا ؛ فالله سبحانه أرحم بعبده المؤمن من الأم بولدها (١٩) .

ولذا أبرز أيوب ــ عليه السلام ــ فى مقام دعائه وصف الله تعالى بقوله : **﴿ وأنت أرحم الراحمين ﴾** .

ــ إذا ما أخذ التضرع إلى الله سبحانه شروطه ؛ من بعد عن الجزع ، ومن إلحاح فى الطلب ، ومن تمجيد الله سبحانه ، ووصفه بما وصف به نفسه . كانت الاستجابة على أى نحو من الأنحاء يراها الله سبحانه لتحقيق الخير لعبده الصالح .

---

(١٨) رواه مسلم عن صهيب – رضى الله عنه – كتاب الزهد والرقائق باب المؤمن أمره خير كله رقم ٢٠٩٢ ص ٣١٦ مختصر مسلم .

(١٩) فى حديث عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ قال : قدم على النبى ﷺ سبى ، فإذا امرأة من السبى قد تحلب ثديها تسعى ، إذا وجدت صبياً فى السبى أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته فقال لنا النبى ﷺ : « **أترون هذه طارحة ولدها فى النار ؟ قلنا : لا وهى تقدر على ألا تطرحه فقال : لله أرحم بعباده من هذه بولدها** » . رواه الشيخان ــ اللؤلؤ والمرجان كتاب التوبة رقم ١٧٥١ ص ٧٤٨ .

ـــ على الرغم من ضعف المبتلى فهو يعمل العمل الذى بإمكانه أن يعمله ؛ سبيلا إلى الخلاص من البلاء ، بإذن الله سبحانه ؛ فأيوب ـــ عليه السلام ـــ ضرب الأرض ، واغتسل بماء نظيف ، وشرب الطاهر ، فكان الشفاء .

وكما يلزمنا من بذل للوسائل المشروعة من عرض على الطبيب ، وتناول الدواء ، وتنفيذ إرشادات الطبيب ، والبعد عن مواطن العدوى ، والتطعيم للوقاية منها ، والبعد عن كل ما يضر الجسم والصحة ، ولو كان مباحاً فى ذاته كإسراف فى أكل أو شرب ، ومداومة على نوع واحد من الطعام ، وهكذا .

ـــ إن ديننا الكريم لا يوقع أبناءه فى حرج ﴿ **وما جعل عليكم فى الدين من حرج** ﴾ (٢٠) .

فما كانت فيه رخصة ويفيد المسلم أنه يأخذ بها عليه أن يفعل هذه الرخصة وتفصيل ذلك فى مواضعه .

ـــ إن الله سبحانه يختبر عباده بالنعم كما يختبرهم بالمصائب فإذا ما كانت النعم مستغلة فى طاعته بعيدة عن البطر وغمط حقوق الناس كان المرء شاكرا لربه سبحانه ، وليس فى امتلاكه النعم ما يسىء إليه شرعاً إذا كان بهذا الوصف .

ـــ يطلب إلى المسلم أن تكون نماذج الرسل الكرام هى المثل الحية والقدوة .

---

(٢٠) سورة الحج الآية ٧٨ .

يونس ـــ عليه السلام

ـــ قومه .

ـــ هروبه من قومه الأولين .

ـــ يونس ـــ عليه السلام ـــ فى بطن الحوت .

ـــ يونس ـــ عليه السلام ـــ وقد لفظه الحوت .

ـــ جهاد جديد .

ـــ دروس وعبر .

قوم يونس – عليه السلام :

كانوا يسكنون قريباً من بحر يمكن أن تعيش فيه الحيتان فحين هرب منهم التقمه الحوت كما تدل الآيات القادمة .

وقد بذل معهم من الجهد الكبير داعيا إلى وحدانية الله سبحانه ، وحاكميته ؛ لدرجة أن بلغ منه الإعياء ، واليأس منهم ، ومن قبولهم الإيمان وحين لم تظهر عليهم علامات الهداية تركهم غضبا منهم وتصور فى نفسه أن الله سبحانه سوف لن يضيق عليه بالانتظار بين جماعة تعنتوا وعاندوا وبإمكانه أن يبحث عن بيئة جديدة وتربة خصبة علّ الدعوة إلى الله سبحانه تؤتى أكلها وتثمر فى أهلها .

وكان أقوام الرسل السابقين حين يكفرون يعاقبهم الله سبحانه بالعذاب وهم كافرون ، ولكن قوم يونس — عليه السلام — كان فيهم كفر وحين عاينوا أسباب العذاب ؛ بهروب نبيهم رجعوا إلى الله سبحانه ، وآمنوا ، فأنقذوا من العذاب يقول الله تعالى فى ذلك :

﴿ فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ﴾ (1) .

وكان ليونس — عليه السلام — قوم آخرون بعد نجاته فقد أرسل إلى مائة ألف أو يزيدون وقد عايشهم فى كل مراحل الدعوة عكس القوم السابقين الذين عايشهم زمن دعوتهم وإنكارهم ولم يكن معهم حين آمنوا ؛ فقد دعاهم إلى الله سبحانه وتعالى واستفاد من تجربته السابقة فلم يكن هناك تفكير فى الهروب منهم ، واستمر معهم حتى تحققت الهداية على يديه يقول الله تعالى :

﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون فآمنوا فمتعناهم إلى حين ﴾ (2) .

---

(1) من سورة يونس الآية رقم ٩٨ .

(2) سورة الصافات الآيتان ١٤٧ ، ١٤٨ .

هروبه من قومه الأولين :

حين رأى يونس ــ عليه السلام ــ معاندة قومه وتعنتهم فكر فى تركهم إلى مكان بعيد عنهم على الشاطئ الآخر للبحر ؛ حيث يكون قوم آخرون دون هؤلاء عنادا ، واستكباراً . ودخل التفكير مرحلة التنفيذ فذهب إلى البحر وكان ضمن مسافرين فى سفينة . .

واعتبر الله سبحانه ذلك هروباً للداعية من الميدان ، وعليه أن يتحمل إصر هذا الهروب ؛ فتعرضت السفينة لمخاطر سرعان ما فهم الراكبون أن بها هارباً ولكن من ؟ ولابد أن يكون الربط بين التعرض للمخاطر ووجود هارب بالسفينة إلهاما من الله سبحانه وكذا ما لحق هذا التفكير من إجراء القرعة التى لم تخطئ . فكانت قرعة تظهر الهارب بالسفينة فكانت تخرج على يونس ــ عليه السلام ــ وإن قوما هداهم الله سبحانه إلى هذا الإجراء يرجح أنهم أعادوا هذه القرعة ؛ ليتأكدوا من صوابها ، وحتى لا يكون منهم ظلم لراكب وبخاصة يونس الذى عرف بينهم بالصلاح ويدل هذا على إيمان قلة من قومه الأولين ، وإلحاق العذاب بالقوم حسب الوضع الذى يدير المجتمع ويسوسه ، والذى لا تؤثر فيه هذه القلة .

ولم يكن ليونس خيار فى أن يلقى به من السفينة ؛ ليضمن القوم لها السلامة ولتكون نجاة للباقين مع التضحية بفرد منهم .

يقول الله تعالى :

﴿ وإن يونس لمن المرسلين إذ أبق إلى الفلك المشحون فساهم فكان من المدحضين ﴾ (٣) .

وإلى هنا تتوقف تماما قدرة يونس ــ عليه السلام ــ البشرية لتكون عناية الله سبحانه هى التى تتولى أموره وحفظه ، والتى كان يجب على يونس أن يوقن

---

(٣) من سورة الصافات الآيات ١٣٩ - ١٤١ .

بهـا قبل ذلك ولكن الدرس يتناول كل خطواته ليكون نبراساً للبشرية كلها حين يتصور مسلم ممتحن أن عناية الله سبحانه قد تخلت عنه .

فى بطن الحوت :

وتدخل القصة مرحلة من المعجزات فى أحلك الأوقات حيث الرجوع إلى الله سبحانه وتعالى .

إن التوقيت محكم ودقيق فذلك حوت يَقْدُم إلى غريق يلهث ، ويلفظ أنفاسه الأخيرة . فهل كان الغريق لقمة سائغة لحوت ضخم شأن الحيتان التى خلقها الله سبحانه إلى يوم القيامة ؟ .

إن الذى خلق الحوت ، والذى أرسل يونس ــ عليه السلام ــ أهون عليه أن يأمر حوته بالتقام الغريق ، لا ازدراداً له ، ولكن حفظا ، وصيانة ، هكذا كان . وهكذا تخضع المخلوقات للخالق سبحانه .

وأمكن ليونس ــ عليه السلام ــ أن يعيش فى بطن الحوت دون هلاك وأحسَّ القدرة على الحركة والكلام .

فماذا كان كلامه حين تراكمت عليه الظلمات من كل جانب ؟ فهو فى ظلمة بطن الحوت ، وهو فى ظلمة البحر ، وهو فى ظلمة الليل .

وعلى الرغم من كثافة الحجب ، وتراكم الظلمات كان التضرع إلى الله سبحانه وتعالى :

﴿ فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ﴾ (٤) .

واخترق النداء تلك الحجب على كثافتها ليصعد إلى السماء حيث الخالق سبحانه السميع البصير الذى يعلم السر وأخفى من السر .

---

(٤) من سورة الأنبياء الآية رقم ٨٧ .

وأى نداء هذا ؟

إنه اعتراف بالذنب ، وتقديس الله سبحانه وتعالى ، وتنزيهه عن كل نقص ، وتداركته نعمة الخالق سبحانه لأنه اعترف بالذنب ، ولجأ إلى الرب ، واستجاب له ، ونجاه ، فلفظه الحوت على شاطئ ؛ لتبدأ مرحلة جديدة بعد هذه التجربة الفريدة من نوعها فى تاريخ البشرية قال الله تعالى :

﴿ فلولا أنه كان من المسبحين للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ (٥) .

وقال : **﴿ فاستجبنا له ونجيناه من الغم ، وكذلك ننجى المؤمنين ﴾** (٦) .

يونس ـــ عليه السلام ـــ وقد لفظه الحوت :

لفظ الحوت يونس ـــ عليه السلام ـــ على الشاطئ وقد بليت ثيابه وأصابه الإعياء والسقم ، ليس له من البشر من يقدم له عونا أو خدمة فقد لفظ بالعراء حيث لا مأوى لبشر .

إن جسما غير قادر على الحركة تحت حر الشمس ولفح البرد وهوام الأرض وحشرات الهواء والأرض ـــ جسم قريب من الهلاك عاجلا أو آجلا ، ولكن النعمة التى تداركت يونس ـــ عليه السلام ـــ وهو فى بطن الحوت امتدت معه ، فتداركته وهو بهذه الحالة .

فتحركت الأرض بإذن ربها لتنبت شجرة تظلل يونس ـــ عليه السلام ـــ واختيرت الشجرة التى لا يأوى إليها الذباب .

وشجرة تؤتى من الثمار أسهل الخضروات هضما فلايزال الأطباء يصفون ثمرتها لكل مريض .

---

(٥) سورة الصافات الآيتان ١٤٣ ، ١٤٤ .

(٦) سورة الأنبياء الآية رقم ٨٨ .

وتؤكل ثمارها نيئة كما تؤكل مطبوخة .

وتجمعت هذه الخصائص فى شجرة القرع ؛ لتكون فى خدمة يونس – عليه السلام ــ قال الله تعالى :

﴿ فنبذناه بالعراء وهو سقيم وأنبتنا عليه شجرة من يقطين ﴾ (٧) .

ولولا نعمة الله لنبذ مذموماً ولكن نبذ محمودا بسبب ما قدمه من تسبيح ، واستغفار ، وتضرع إلى المولى سبحانه .

فامتدى أيتها الشجرة على يونس فأنت مسوقة لخدمته ، وتطاولى على الأشجار تيهاً فقد سخرك الله سبحانه لخدمة يونس ــ عليه السلام .

جهاد جديد :

ودبت الحياة النشطة فى يونس ــ عليه السلام ــ لتكون عونا له فى سبيل الدعوة إلى الله سبحانه ، فالمؤمن على جهاد دائم ما بقيت فيه حياة ، وما ظل به عرق ينبض واختاره الله سبحانه واجتباه ، وأصلح على يديه خلقا كثيرين فقد كلفه دعوة قوم آخرين واصل معهم وبذل من الأسباب حتى آمنوا قال الله تعالى :

﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون فآمنوا فمتعناهم إلى حين ﴾ (٨) .

إن الله تعالى وهو يعرض على رسوله تلك التجارب يعرضها ليفيد منها الرسول الكريم ــ ﷺ ــ وليفيد من الرصيد الضخم الذى تخلف من رسالات الأنبياء السابقين ، فهو النبى الخاتم صاحب العبئ الأكبر فى تاريخ الدعوات والرسل الكرام ــ عليهم الصلاة والسلام .

---

(٧) سورة الصافات الآيتان ١٤٥ ، ١٤٦ .

(٨) سورة الصافات الآيتان ١٤٧ ، ١٤٨ .

قال الله تعالى :

﴿ فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم فاجتباه ربه فجعله من الصالحين ﴾ (٩) .

وليس معنى ذلك أن يأتى امرؤ بلغ من الجهاد فى الدعوة درجة طيبة أن يتجرأ ويقول : أنا خير من يونس .

فقد روى عن ابن عباس وأبى هريرة — رضى الله عنهما — عن النبى — ﷺ — قال :

« ما ينبغى لعبد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى » (١٠) .

---

(٩) سورة القلم الآيات ٤٨ — ٥٠ .

(١٠) رواه البخارى ومسلم وأحمد واللفظ للبخارى كتاب التفسير باب قوله تعالى **﴿ ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين ﴾** ج ٥ ص ٧١ .

دروس وعبر :

ـــ أصحاب الدعوات لابد أن يتحملوا تكاليفها ، وأن يصبروا على التكذيب بها ، والإيذاء من أجلها ، وتكذيب الصادق الواثق مرير على النفس حقا ، ولكنه بعض تكاليف الرسالة فلابد لمن يكلفون حمل الدعوات أن يصبروا ، ويتحملوا ولابد أن يثابروا ويثبتوا ولابد أن يكرروا الدعوة ويبدءوا فيها ، ويعيدوا .

ـــ إنهم لا يجوز لهم أن ييأسوا من صلاح النفوس واستجابة القلوب ، مهما واجهوا من إنكار وتكذيب ومن عتوّ وجحود ، فإذا كانت المرة المائة لم تصل إلى القلوب فقد تصل المرة الواحدة بعد المائة وقد تصل المرة الواحدة بعد الألف .. ولو صبروا هذه المرة وحاولوا ولم يقنطوا لتفتحت لهم أرصاد القلوب .

ـــ إن طريق الدعوات ليس هينا لينا ، واستجابة النفوس للدعوات ليست قريبة يسيرة فهناك ركام من الباطل والضلال والتقاليد والعادات والنظم والأوضاع تجثم على القلوب ، ولا بد من إزالة هذا الركام ، ولا بد من إحياء القلوب بكل وسيلة ، ولابد من لمس لجميع المراكز الحساسة ، ومن محاولة العثور على العصب الموصل ، وأجدى اللمسات ستصادف مع المثابرة والصبر والرجاء ، ولمسة واحدة قد تحول الكائن البشرى تحويلا تاما فى لحظة ، متى أصابت اللمسة موضعها ، وإن الإنسان ليدهش أحيانا وهو يحاول ألف محاولة ثم إذا لمسة عابرة تصيب موضعها فى الجهاز البشرى بأيسر مجهود ، وقد أعيا من قبل كل الجهود .

وأقرب ما يحضرنى للتمثيل لهذه الحالة جهاز الاستقبال عند البحث عن محطة إرسال .

إنك لتحرك المؤشر مرات كثيرة ذهابا وإيابا ، فتخطئ المحطة وأنت تدقق ، وتصوب ، ثم إذا حركة عابرة من يدك فتتصل الموجة ، وتنطلق الأصداء ، والأنغام .

إن القلب البشرى هو أقرب ما يكون إلى جهاز الاستقبال وأصحاب الدعوات ، لابد أن يحاولوا تحريك المؤشر ليتلقى القلب من وراء الأفق ولمسة

شعيب ــ عليه السلام

ــ من الذين أرسل إليهم ؟ وأين كانوا ؟

ــ انحراف أهل مدين .

ــ دعاوى أهل مدين .

ــ استعلاء الكفر ، واستبداده

ــ قبيل الجزاء .

ــ جزاء عادل .

ــ مبلغ الجهد .

ــ دروس وعبر .

واحدة بعد الألف لمسة قد تصله بمصدر الإرسال .

إنه من السهل على صاحب الدعوة أن يغضب ؛ لأن الناس لا يستجيبون لدعوته ، فيهجر الناس ، إنه عمل مريح قد يفتأ الغضب ويهدئ الأعصاب ولكن أين الدعوة ؟ وما الذى عاد عليها من هجران المكذبين المعارضين ؟ (١١) .

— إن الدعوة هى الأصل لا شخص الداعية فليضق صدره ، ولكن ليكظم ، ويمض . وخير له أن يصبر فلا يضيق صدره بما يقولون .

— إن الداعية أداة فى يد القدرة ، والله سبحانه وتعالى أرعى لدعوته وأحفظ . فليؤد هو واجبه فى كل ظرف ، وفى كل جو والبقية على الله ، والهدى هدى الله .

— وإن فى قصة ذى النون (وهو الحوت) لدرساً لأصحاب الدعوات ينبغى أن يتأملوه ، وإن فى رجعة ذى النون إلى ربه واعترافه بظلمه لعبرة لأصحاب الدعوات ينبغى أن يتدبروها وإن فى رحمة الله لذى النون واستجابة دعائه المنيب فى الظلمات لبشرى للمؤمنين ﴿ **وكذلك ننجى المؤمنين** ﴾ .

---

(١١) من الظلال بتصرف .

مَنْ أُرسل إليهم شعيب وأين كانوا ؟

أرسل شعيب ــ عليه السلام ــ إلى أهل مدين ، وأرض مدين هى التى مر بها موسى ــ عليه السلام ــ فى طريقه من مصر إلى الشام . أى فى جزيرة سيناء ، قال الله تعالى :

﴿ ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ﴾ (1) .

والآية الكريمة التى وردت على لسان شعيب ــ عليه السلام ــ مخاطبا قومه :

﴿ وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾ (2) .

تحدد الجزء من أرض مدين الذى كانوا يعيشون فيه وهو ما يحيط بخليج العقبة من جهة الجزيرة العربية حيث كان أصل مدين ، ثم امتدت القبيلة إلى سيناء زمن موسى ــ عليه السلام ــ وتأتى الآية الكريمة الأخرى :

﴿ ألا بُعداً لمدين كما بعدت ثمود ﴾(3) .

لتحدد هذا الفهم أيضا ، وثمود هم قوم صالح ــ عليه السلام ــ وقد عرفنا فيما سبق أن ثمود كانت بالطريق المتجه من الحجاز إلى الشام ، كما دلت على ذلك الأحاديث النبوية الشريفة السابقة .

وقد كانت أرض مدين ذات أشجار ، وزروع ، ومحاصيل زراعية ، ولذا سموا أهلها بأصحاب الأيكة ، أى الشجرة العظيمة الملتفة ، والتى كانوا يعبدونها من دون الله سبحانه وآية القصص السابقة **﴿ ورد ماء مدين ﴾** تدل على وفرة المياه الجوفية بها .

---

(1) سورة القصص الآية رقم ٢٣ .

(2) سورة هود الآية رقم ٨٩ .

(3) سورة هود الآية رقم ٩٥ .

والحديث عن الكيل والوزن يدل على ما يكال من المحاصيل الزراعية بهذه الأرض .

هذا وقد كان شعيب ــ عليه السلام ــ من أبناء قومه وقد وردت هذه الآية الكريمة ..

﴿ **وإلى مدين أخاهم شعيباً** ﴾ (٤) . لتدل على ذلك ، حين البدء بقصة شعيب ــ عليه السلام ــ أما حين البدء بتكذيب قومه ناسب هذا التعبير القرآنى .

﴿ **كذب أصحاب الأيكة المرسلين** ﴾ (٥) .

لأن الموقف يختلف عن سابقه .

وبمجموع ما سبق نفهم . .

أن شعيبا ــ عليه السلام ــ أرسل إلى أهل مدين ، وأن من أرسل إليهم أمة واحدة ؛ تسكن بجوار خليج العقبة من جهة الجزيرة العربية (٦) ، وأن أهل مدين كانوآ يعبدون شجرة عظيمة من دون الله سبحانه .

انحراف أهل مدين :

إن اهتمام رسالات السماء بالمجتمع الإنسانى شمل كل مجالاته ، فإذا ما اهتمت بالدرجة الأولى بالعقيدة الصحيحة ، وهى عقيدة التوحيد ، فهى تهتم أيضا بالمجال التطبيقى ؛ بأن يعيش الناس إخوة متحابين ولا يعتدى أحدهم على غيره ، ولا يغشه ولا يظلمه ، وفى قصة شعيب ــ عليه السلام ــ نموذج من هذا .

---

(٤) سورة الأعراف الآية ٨٥ هود الآية ٨٤ العنكبوت الآية ٣٦ .

(٥) سورة الشعراء الآية رقم ١٧٦ .

(٦) انظر إلى الخريطة ص ١٤٥ .

ففى مجال العقيدة وقد عبد أهل مدين شجرة عظيمة من دون الله سبحانه أوضح لهم شعيب ــ عليه السلام ــ أن تلك العبادة باطلة لأنها عبادة مخلوق لمخلوق وليس فى المعبود ما يميزه عن العابد فكيف به ، وقد خضع له وذل ، وعبده من دون الله سبحانه ؟ ، ثم يبين لهم الطريق الصحيح وذلك بعبادة الله سبحانه الذى خلق تلك المخلوقات كلها وهو أولى بالتقديس والخضوع له ، وتلك القضية هى أهم القضايا فى رسالات السماء .

تبدأ الدعوات كلها بها ، وتبنى عليها قضايا الحياة الأخرى ؛ يقول الله تعالى :

﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم ﴾ (٧) .

فعلى الرغم من وضوح قضية التوحيد ساق لهم نبيهم البينة التى تؤكد صدق دعواه ثم بين لهم صفات الخالق سبحانه بقوله : **﴿ واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين ﴾**(٨) .

فإذا كانت قريش قد أقرت بالله سبحانه خالقا أشركت معه آلهة أخرى أعلنت ذلك حيث يقول الحق تبارك وتعالى على لسانهم :

﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾(٩) فإن أهل مدين أيضا كما تشير آية الشعراء قد اعتقدوا بأن الله سبحانه هو الخالق لهم ، ولمن سبقهم ، ولكن على الرغم من ذلك عبدوا الأيكة من دون الله سبحانه ، ولم ينفعهم اعتقادهم الذى توقف عند الخلق ، ولم يظهر فى الجانب التطبيقى العملى بالعبادة له .

وقد لفت شعيب ــ عليه السلام ــ نظر قومه إلى ما علموه من سيرته

---

(٧) الأعراف آية ٨٥ .
(٨) الشعراء آية ١٨٤ ــ الجبلة الأولين : الناس الأولين .
(٩) سورة الزمر الآية ٣ .

بينهم فقد عرف فيما بينهم بالأمانة ، واشتهر بذلك ، ومن كانت هذه صفته فى أمور الحياة العادية لا يمكن أن يكون غير ذلك فى أمر الرسالة ، وخاصة وأنه لا يبغى من وراء ذلك منزلة عندهم جاهاً أو سلطانا ، ولا يطلب على إبلاغ دعوته الذى يعانى من أجلها أجراً دنيوياً منهم ؛ إنما هو يتعامل مع صاحب الدعوة الذى أمره بإبلاغها وهو الله سبحانه وتعالى قال الله سبحانه :

﴿ إذ قال لهم شعيب ألا تتقون ؟! إنى لكم رسول أمين ؛ فاتقوا الله وأطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر ؛ إن أجرى إلا على رب العالمين ﴾ (١٠) .

ولزمتهم الحجة فهذا نبى مشهود له بالأمانة ، ولا يطلب أجراً على إبلاغ دعوته ، ثم هو أيضا أول المذعنين لقضية التوحيد والإصلاح . .

﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ (١١) .

فليس هو إذن على شهوة القيادة والسلطة . بهما يتحرك ، وإليهما تبرر الوسائل الباطلة ؛ شأن الكثيرين من قادة الدنيا ، والذين تقع أبصار أهل مدين ، وأهل الأرض كلها على نماذج عفنة منهم .

إن الذى لا يعتبر ولا يتعظ بما سبقه من أحداث ولا يدرسها ، ويتبين أسباب الهلاك كما يتبين أسباب النجاة شخص بلغ من الغباء ما ينزله دون الحيوانات . وعلى أهل مدين أن ينظروا ويتأملوا ماأصاب قوم نوح وماأصاب عاداً الأولى بالأحقاف جنوبى الجزيرة ، وما أصاب ثمود شمالى الحجاز حين عصوا صالحاً وقتلوا الناقة ، وما أصاب قرية سدوم جنوبى البحر الميت ارتكب أهلها جريمة ما سبقهم بها أحد من العالمين ، على الرغم من نصح لوط – عليه السلام – لهم .

تلك أحداث من سبقكم يا أهل مدين ويمكنكم أن تتداركوا الأمر ،

---

(١٠) سورة الشعراء الآيات من ١٧٧ ـــ ١٨٠ .

(١١) سورة هود الآية ٨٨ .

وتستغفروا ربكم ، وهو الرحمن الرحيم قابل التوب ،يفرح بتوبة عبده ورجوعه إليه ، وقد نبههم شعيب ـــ عليه السلام ـــ إلى ذلك كله ، وفى هذا يقول الله تعالى :

﴿ ويا قوم لا يجرمنكم شقاق أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد ، واستغفروا ربكم ثمَ توبوا إليه ؛ إن ربى رحيم ودود ﴾ (١٢) .

وفى مجال التعامل وقد تفشى الغش فيما بينهم وطففوا الكيل والميزان ، إذا كالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، وهم ليسوا على فقر يضطرهم لذلك ، بل كانوا على خير . وعلى الرغم من ذلك يأخذون حقاً ليس لهم ؛ ليزدادوا غنى على غنى ، ويزداد غيرهم فقراً على فقر ، وذلك شأن المجتمعات الجاهلية المعاصرة ، حين تحكم قبضتها على رقاب الناس ؛ فتحتكر السلع ، وتبيعها بالسعر الذى تفرضه غبنا وظلما ، وليس للفقير بد من أن يخضع ويسلم طالما أنه قد خضع لهم وسَلَّمَ بانحرافهم فى العقيدة ، وتكون الدائرة عليه فى الدنيا والآخرة ، وكان يجب عليه أن يرفض الإذعان إلا لله سبحانه ؛ ليعيش الناس فى نعمة الله سبحانه إخوانا متحابين وأى فساد أكثر فى الأرض حين يكون التعامل مبتور الصلة والعقيدة الصحيحة .

قال الله تعالى :

﴿ أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين ، وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾ (١٣)
ويقول فى موضع آخر : **﴿ بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين ﴾** (١٤) .

وأضافوا إلى انحرافهم فى العقيدة انحرافاً فى التعامل ، والاقتصاد ؛ بغيا

---

(١٢) سورة هود الآيتان ٨٩ ـــ ٩٠ .
(١٣) سورة الشعراء الآيات ١٨١ – ١٨٣ .
(١٤) سورة هود الآية ٨٦ .

منهم ، وعلوانا ؛ فأفسدوا فى الأرض أيما إفساد ، وظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس . فإذا ما نادت رسالات السماء بتوحيد الله سبحانه ، فهى تجعل الناس جميعاً متساوين فى الحقوق ، والواجبات . وتكون الأخوة ، إذن فلا تجبر ولا ظلم .

وفى القيادة وقع من أهل مدين انحراف آخر فقد وقف الملأ منهم وهم سادتهم ، وكبراؤهم فى كل طريق للدعوة يمنعون الناس عن الدخول فيها ، والتشهير بها ، وإلقاء الاتهامات الكاذبة عليها ، ولأنهم فى موقف السلطة فإن لكلامهم التأثير الكبير ، وذلك مشاهد ملموس فى كل وقت حين يقفز أناس إلى السلطة ، دون كفاءة . وليس فى صالحهم إلا أن يبعدوا الكفاءات الصالحة للقيادة ، واتهام من يبصر الناس الطريق المستقيم . إنهم يريدونها عوجاً والذى يريده الله تعالى للناس أن يكون أمرهم على بصيرة ، وهدى ، وما يريده الملأ من قوم مدين هو عين الإفساد فى الأرض وما يريده الله سبحانه هو عين الإعمار فى الكون كله ؛ أرضه وسمائه ، أحيائه وجماده ، وإنسه وجنه ، وفى هذا يقول الله تبارك وتعالى على لسان نبيه شعيب :

﴿ ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به ، وتبغونها عوجا ، واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم ، وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ؟ ﴾ (١٥) .

وما كان لأهل مدين من حجة إلا تلك الآفة الممتدة عبر الأجيال والقرون ، آفة الإلف ، والعادة ، آفة التقليد الأعمى ، آفة السير على عادة الآباء ، والأجداد دون تأمل ، ودون تمييز بين ما سبق من حق ، وما ألصقوا به من باطل ، فشوهوا جماله ، وصار بلون جديد ، فصار غير الحق الذى سبق مع الأنبياء السابقين قال الله تعالى على لسانهم :

---

(١٥) سورة الأعراف ٨٦ .

﴿ قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾ (١٦) .

وما أضيع البشرية حين تقلب المصطلحات ؛ فيكون الإشراك بالله سبحانه ، والاستبداد الاقتصادى ، والتحكم فى أرزاق الناس من الحلم والرشد ، ويكون التوحيد والعدل الاقتصادى ، والتكامل الاجتماعى ، وعدم ظلم الناس جهلاً وضلالاً .

وما أضيعها حين تقوّم الأمور بمركز الداعية المادى ، والاجتماعى ؟ ولا تقومها بالتأمل فيها ، ومناقشتها وإعمال الفكر والتفكير فيها ؟ قال الله تعالى :

﴿ قالوا : يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز قال : يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا إن ربى بما تعملون محيط ﴾ (١٧) .

ومن دعواهم أيضا كون شعيب ـــ عليه السلام ـــ بشراً مثلهم ، وأن البشرية لا تتفق والرسالة السماوية ، وليسوا فى هذا الادعاء ينادون بالمساواة بين الناس ، فهم قد ألفوها بكبرهم وزعمهم بأنهم يفعلون فى أحوالهم ما يشاءون وأن ضعف شعيب فرصة للاعتداء عليه (١٨) .

فهم يقصدون بأنه بشر أنه لا يصح أن يكون نبيا مميزا عليهم ، وهو بهذه البشرية ، وطالما هو على هذا النحو فهو إذن مسحور أصابه مس من الجن وفى هذا يقول الله تعالى :

---

(١٦) سورة هود ٨٧ .

(١٧) سورة هود ٩١ ـــ ٩٢ .

(١٨) وقد وقفت قريش هذا الموقف نفسه حين تمنت أن يكون القرآن الكريم قد نزل على غير محمد ـــ ﷺ ـــ حيث قال الله تعالى على لسانهم **﴿ وقالوا : لولا نُزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾** (الزخرف ٣١) أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة بمكة ، وعروة بن مسعود الثقفى بالطائف . وقيل غيرهما .

﴿ قالوا : إنما أنت من المسحرين . وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين ﴾ [١٩] .

وهم بهذه الدعوى يجهلون تماما ما حدث للأقوام السابقين حين وقفوا نفس الموقف ، بنفس الدعوى ، فكانت العاقبة عليهم بالهلاك ، والدمار ؛ جزاء ما صنعوا وزعموا .

وقد نبههم شعيب إليها سلفا حيث قال الله سبحانه على لسانه :

﴿ ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح ، أو قوم هود ، أو قوم صالح ، وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾ [٢٠] .

استعلاء الكفر واستبداده :

على الرغم من دعوى المسالمة والتعايش مع شعيب — عليه السلام — ووصيته لقومه بالصبر **﴿ فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ﴾** [٢١] فإن قوم شعيب لم يقبلوا أن يكون للمؤمنين هذا النصيب على بساطته وضآلته .

يقول صاحب الظلال : [٢٢]

« ولكن الطواغيت لايرضيهم أن يكون للإيمان فى الأرض وجود ممثل فى جماعة من الناس لا تدين للطاغوت — إن وجود جماعة مسلمة فى الأرض لا تدين إلا لله سبحانه ، ولا تعترف بسلطان إلا سلطانه ، ولا تحكم فى حياتها إلا شرعه

---

(١٩) سورة الشعراء ١٨٥ ، ١٨٦ ووقفت قريش هذا الموقف حيث قال الله تعالى :
﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا : أبعث الله بشرا رسولا ﴾ (الإسراء ٩٤) .

(٢٠) سورة هود ٨٩ .

(٢١) الأعراف ٨٧ .

(٢٢) سورة الأعراف . فى ظلال القرآن لشهيد الإسلام : سيد قطب .

ولا تتبع فى حياتها منهاجا إلا منهجه ــ إن وجود جماعة مسلمة كهذه يهدد سلطان الطواغيت ، حتى لو انعزلت هذه الجماعة فى نفسها ، وتركت الطواغيت لحكم الله حين يأتى موعده .

إن الطاغوت يخوض المعركة فرضا على الجماعة المسلمة حتى لو آثرت هذه ألا تخوض معه المعركة ــ إن وجود الحق ذاته يزعج الباطل ، إنها سنة الله لابد أن تجرى . قال الله تعالى :

﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا ﴾ (٢٣) .

هكذا فى تبجح وفى إصرار على المعركة لا يقبل الملأ المهادنة والتعايش إلا أن قوة العقيدة لا تتلعثم ، ولا تتزعزع أمام التهديد والوعيد . لقد وقف شعيب – عليه السلام – عند النقطة التى لا يملك أن يتزحزح وراءها خطوة ، نقطة المسالمة والتعايش ، على أن يترك لمن يشاء أن يدخل فى العقيدة التى يشاء ، وأن يريد السلطان الذى يشاء فى انتظار حكم الله سبحانه بين الفريقين .

وما يملك صاحب دعوة أن يتراجع خطوة واحدة وراء هذه النقطة تحت أى ضغط ، أو أى تهديد ، من الطواغيت ، وإلا تنازل بالكلية عن الحق الذى يمثله وخانه .

فلما أن تلقى الملأ المستكبرون عرضه هذا بالتهديد بالإخراج من قريتهم أو العودة فى ملتهم صدع شعيب بالحق متمسكا بملته كارها أن يعود فى الملة الخاسرة التى أنجاه الله منها ، واتجه إلى ربه سبحانه وملجئه ، ومولاه ، يدعوه ، ويستنصره ، ويسأله وعده بنصرة الحق وأهله . قال تعالى :

﴿ قال أو لو كنا كارهين قد افترينا على الله كذباً إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ، وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا ، وسع ربنا كل

---

(٢٣) سورة الأعراف الآيتان : ٨٨ ، ٨٩ .

شيء علماً ، على الله توكلنا ؛ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾ (٢٤) .

وفى هذه الكلمات القلائل تتجلى طبيعة الإيمان ومذاقه فى نفوس أهله ، كما تتجلى طبيعة الجاهلية ومذاقها الكريه ، كذلك تشهد فى قلب الرسول — عليه السلام — ذلك المشهد الرائع مشهد الحقيقة الإلّهية فى ذلك القلب ، وكيف تتجلى فيه قال : ﴿ **أو لو كنا كارهين** ﴾ يستنكر تلك القوة الفاجرة حين قالت : ﴿ **لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا** ﴾ يقول لهم : أتجبروننا على ما نكره من ملتكم التى نجانا الله منها ؟ .

إن الذى يعود إلى ملة الطاغوت ، والجاهلية التى لا يخلص فيها الناس الدينونة والطاعة لله وحده ، والتى يتخذ فيها الناس أربابا من دون الله — إن الذى يعود إلى هذه الملة بعد أن كشف الله سبحانه له الطريق ، وهداه إلى الحق وأنقذه من العبودية للعبيد إنما يؤدى شهادة كاذبة على الله ودينه .

شهادة مؤداها أنه لم يجد فى ملة الله خيراً فتركها ، وعاد إلى ملة الطاغوت ، أو مؤداها على الأقل — أن لملة الطاغوت حقا فى الوجود وشرعية فى السلطان ، وأن وجودها لا يتنافى مع الإيمان بالله سبحانه ، فهو يعود إليها ويعترف بها بعد أن آمن بالله — وهذه شهادة خطيرة أخطر من شهادة من لم يعرف الهدى ، ولم يرفع راية الإسلام — شهادة الاعتراف براية الطغيان .ولا طغيان وراء اغتصاب سلطان الله سبحانه فى الحياة .

وكذلك يستنكر شعيب — عليه السلام — ما يتهدده من الطغاة من إعادته هو والذين آمنوا معه إلى الملة التى أنجاه الله منها .

﴿ **وما يكون لنا أن نعود فيها** ﴾ .

ومن شأننا أصلا وما ينبغى لنا قطعا أن نعود فيها يقولها وأمامه التهديد الذى يزاوله الطاغوت فى كل أرض مع الجماعة المسلمة ، التى تعلن خروجها من

---

(٢٤) من سورة الأعراف ٨٩ .

سلطانه ، ودينونتها لله وحده بلا شريك معه أو من دونه » ا. هـ .

إنهم يعتبرون هذا الإخراج أقل ما يجب فى نظرهم ؛ لأنهم يمثلون جانبا من القوة ولولا هذا الرهط المؤمن لكان الحكم على المؤمنين بالإعدام رجما ، هكذا فى تبجح ، وصلف ، وفى هذا يقول الله تعالى :

﴿ قالوا : يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول ، وإنا لنراك فينا ضعيفاً ، ولولا رهطك لرجمناك ، وما أنت علينا بعزيز قال : يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهرياً إن ربى بما تعملون محيط ﴾ (٢٥) .

ولم يشفع لشعيب — عليه السلام — أنه :

— واحد منهم وأخوهم ورسول الله تعالى .

— لا يسأل على دعوته أجرا .

— سوقه البينة على دعواه .

— لم يرفع فى وجوههم سلاحا .

— اعترافهم بأنه الحليم الرشيد .

— ليس على شهوة المخالفة لقومه لمجرد المخالفة .

ثم :

— دعواه بالإصلاح بينهم ، وإعمار الأرض بالخير والعدل .

— والتعامل المبنى على العدالة وعدم الغش وعدم الإفساد فى الأرض .

— ونصحه لهم بترك الناس يفكرون ولا يحجرون على عقولهم، وتحذيره إياهم بما حدث للأمم السابقة .

وعلى الرغم من كل هذه الدلائل قالوا كما ورد فى القرآن الكريم على

---

(٢٥) سورة هود ٩١ ، ٩٢ .

لسانهم :

﴿ وقال الملأ الذين كفروا من قومه : لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذاً لخاسرون ﴾ (٢٦) .

﴿ قالوا : يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء ؟ ﴾ (٢٧) .

﴿ قالوا : يا شعيب ، ما نفقه كثيراً مما تقول ، وإنا لنراك فينا ضعيفاً ، ولولا رهطك لرجمناك ، وما أنت علينا بعزيز ﴾ (٢٨) .

﴿ قالوا إنما أنت من المسحرين وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين ﴾ (٢٩) .

جزاء عادل :

أنى لقوم قد بلغ بهم العنت والعنف هذا المبلغ ، ووصل بهم الهزء والسخرية أن طلبوا إلى شعيب ـــ عليه السلام ـــ أن ينفذ ما أوعدهم به إن كان صادقا .

﴿ فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين ﴾ (٣٠) .

وليس بمقدور شعيب ـــ عليه السلام ـــ ومن آمن معه أن يردوا عدوانا صارخاً عليهم ، وهو الطرد من الأرض التى عاشوا فيها ، وولدوا فيها ورغبوا فى إصلاحها ، وإصلاح أهلها .

وأدارت السماء المعركة وحدها .

---

(٢٦) سورة الأعراف رقم ٩٠ .
(٢٧) سورة هود رقم ٨٧ .
(٢٨) سورة هود رقم ٩١ .
(٢٩) سورة الشعراء ١٨٥ ، ١٨٦ .
(٣٠) سورة الشعراء رقم ١٨٧ .

وأصيب القوم بما كسبت أيديهم ، ومن جنس العمل الذى صنعوه مع شعيب – عليه السلام – والمؤمنين .

يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ ولما جاءهم أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه ؛ رحمة منا . وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى دارهم جاثمين ﴾ (٣١) .

والمناسبة هنا كما رأى ابن كثير والله أعلم أنهم لما تهكموا فى قولهم : **﴿ أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾** (٣٢) جاءتهم الصيحة فأسكتتهم .

وقال الله تعالى إخبارا عنهم :

﴿ فكذبوه ، فأخذهم عذاب يوم الظلة ؛ إنه كان عذاب يوم عظيم ﴾ (٣٣) .

وما ذاك إلا لأنهم قالوا فى سياق القصة :

﴿ فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين ﴾ (٣٤) .

فأخبر أنه أصابهم عذاب يوم الظلة كما أخبر أنهم أخذتهم الرجفة وذلك كما أرجفوا شعيبا ــــ عليه السلام ــــ وأصحابه . .

﴿ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين ﴾ (٣٥) .

واجتمع عليهم ذلك كله . أصابهم عذاب يوم الظلة ، وهى سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ، ولهب ، ووهج عظيم ، ثم جاءتهم صيحة من السماء ، ورجفة

---

(٣١) سورة هود ٩٤ .
(٣٢) سورة هود ٨٧ .
(٣٣) سورة الشعراء ١٨٩ .
(٣٤) سورة الشعراء ١٨٧ .
(٣٥) سورة الأعراف ٩١ .

من الأرض شديدة ، من أسفل منهم فزهقت الأرواح ، وفاضت النفوس وخمدت الأجسام فأصبحوا فى دارهم جاثمين ، وكأنهم لما أصابتهم النقمة لم يقيموا بديارهم التى أرادوا إجلاء الرسول شعيب – عليه السلام – وصحبه المؤمنين به عنها ثم قال تعالى :

﴿ **الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين** ﴾ (٣٦) مقابلاً لقولهم السابق بنفس السورة :

﴿ **وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذن لخاسرون** ﴾ (٣٧) .

وحكم الله عليهم كما حكم على من سبقهم بنفس الصنيع . .

﴿ **ألا بُعداً لمدين كما بَعِدت ثمود** ﴾ (٣٨) .

مبلغ الجهد قبل الجزاء :

لم تكن فرصة لشعيب ــــ عليه السلام ــــ أن يستنزل عذاب الله سبحانه عند بدء تكذيبهم فليست هذه من شيمة الأنبياء والدعاة إلى الله سبحانه فالإلحاح على القوم وسوق البينات والدعوة إلى الإصلاح واتخاذ العبرة من السابقين ضرورية الاستمرار .

ثم إنه واجه عزمهم على الطرد من أرض مدين قائلاً لهم :

﴿ **على الله توكلنا ، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ؛ وأنت خير الفاتحين** ﴾ (٣٩) .

كلام رقيق جميل لا ينم عن تشفّ فى قومه بل إنه يطلب فى آخر لحظة لهم أن يفتح الله سبحانه عليهم بالإيمان ؛ حتى ينجوا من العذاب ويفوزوا برضوان الله سبحانه ــــ سعادة وعدل فى الدنيا وجنة عرضها السموات والأرض فى الآخرة .

---

(٣٦) سورة الأعراف رقم ٩٢ .
(٣٧) سورة الأعراف رقم ٩٠ .
(٣٨) سورة هود رقم ٩٥ .
(٣٩) الأعراف الآية ٨٩ .

ثم ها هو وقد نظر إلى مقدمات العذاب تتنزل يقول أيضا :

﴿ وقال يا قوم ، لقد أبلغتكم رسالات ربى ، ونصحت لكم . فكيف آسى على قوم كافرين ؟ ﴾ (٤٠) .

وحين تحدوه باستنزال العذاب عليهم إن كان صادقا .. **﴿ قال ربى أعلم بما تعملون ﴾** (٤١) .

فأى عذر لقوم يخاطبهم نبيهم برقيق الكلام وأجمله وأحكمه رغبة فى إصلاحهم ثم هم يهزءون بكلامه ويعزمون على طرده وهو أخوهم وابن وطنهم مدين .

دروس وعبر :

يقول الله تبارك وتعالى معقبا على قصة شعيب — عليه السلام — :

﴿ إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ (٤٢) .

كما يقول سبحانه معقبا على نفس القصة فى سورة الأعراف :

﴿ وما أرسلنا فى قرية من نبى إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء ؛ لعلهم يضرعون ، ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء ، فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ (٤٣) .

ويقول الله أيضا ملفتا نظر قريش إلى أخذ العبرة بعد الحديث عن شعيب — عليه السلام :

---

(٤٠) الأعراف الآية ٩٣ .
(٤١) الشعراء الآية ١٨٨ .
(٤٢) سورة الشعراء رقم ١٩٠ ، ١٩١ .
(٤٣) سورة الأعراف رقم ٩٤ ، ٩٥ .

﴿ وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين ﴾ (٤٤) .

ـــ هذه الآيات تدعو إلى أخذ العبرة لتكون درساً مفيدا للبشرية لتنعم بخيرى الدنيا والآخرة .

ـــ يستفاد من الآيات الكريمة تاريخيا وجغرافيا أن أرض مدين كانت بجوار خليج العقبة من أعلى جنوب أرض سدوم ، التى كانت على شاطئ البحر الميت ، من أسفل ، وأن الأرض التى مر بها موسى ـــ عليه السلام ـــ فى سيناء امتداد لأصلها من جهة الجزيرة .

ـــ إن أخوة الداعية لأبناء وطنه متى ما تركوا الفرصة له يدعو الناس إلى دين الله سبحانه ، وأما حين تظهر النوايا الخبيثة بالعدوان ، فإن هذه الأخوة تنتهى وتتم المفاصلة بينه وبينهم .

ـــ إن دين الله سبحانه يشمل كل ما يصلح البشرية ، يضعْ لهم الأسس والقواعد التى تنظم حياتهم ، وتبعدهم عن الظلم والعدوان .

ـــ إن الشرك لظلم عظيم وأساسه أن يعبد المرء آلهة أخرى من دون الله ، فى الوقت الذى يقر فيه بأنه سبحانه هو الخالق .

ويأخذ هذا الشرك ألواناً شتى ، وفى قصة شعيب ـــ عليه السلام ـــ عبدت مدين الأيكة من دون الله سبحانه ، وقد عبدت قريش هبل ، ووضعته فى جوف الكعبة ، ووصل اعتزازها به من دون الله سبحانه أن أبا سفيان حين أراد الانصراف يوم أحد ، أشرف على الجبل ، ثم صرخ بأعلى صوته : يوم بيوم بدر . اعل هبل .

فقال رسول الله ـــ ﷺ ـــ لعمر :

« قم يا عمر فأجبه ، فقل : الله أعلى ، وأجل ، لا سواء .. قتلانا فى

---

(٤٤) سورة العنكبوت رقم ٣٨ .

الجنة ، وقتلاكم فى النار .. » [45] .

ــ إن الداعية المسلم يجب أن تسبقه إلى الناس صفاته الطيبة ، والمعروفة لديهم .

فقد اعترف أهل مدين بأن شعيباً ــ عليه السلام ــ هو الحليم الرشيد ، ثم هو لا يطلب أجراً على دعوته ، وهو الأمين بينهم ، والناصح لهم .

ــ ليست القيادة فى ذاتها غاية الداعية وإنما هى وسيلة لتحقيق أمر الله سبحانه فى الأرض فقد قال الله عن عباد الرحمن :

﴿ **واجعلنا للمتقين إماماً** ﴾ ويجب أن يتبرأ الداعية من تلك الآفة التى يتسابق عليها طلاب الدنيا ، ويبذلون فى سبيلها ماء وجوههم ، ثم إذا كانت لهم حرموا الناس نعمة الطمأنينة ، والأمن ، وصار المصلحون فى حلوقهم علقما لا يطيقونهم .

ــ إن الله سبحانه وتعالى يريد للمجتمع الإنسانى اقتصادا نظيفا من الدنس .. نظيفا من أخذ حقوق الناس والتحكم فى أرزاق الفقراء لإتخام بطون الأغنياء ؛ فالمال مال الله سبحانه والناس مستخلفون فيه وناظر إليهم كيف يتصرفون فى تلك الأمانة التى وضعت فى أيديهم ؟ .

ــ على الداعية المسلم أن يكون خبيرا باقتصاد الأمة ، ويعلم الأساليب المعوجة ، كما يعرف القويم منها ؛ لتكون دعوته على بصيرة ، وهدى ، دون تخبط وغفلة .

ــ وعلى الداعية حين يسعى إلى الإصلاح الاقتصادى أن يربطه بالقاعدة الأساسية فى العقيدة ، والإيمان بالله سبحانه وتعالى .

---

(٤٥) حديث صحيح أخرجه أحمد ، والحاكم وصححه ، وله شاهد من حديث البراء ــ رضى الله عنه ــ عند البخارى وغيره ، وشاهد آخر من حديث ابن مسعود ــ رضى الله عنه ــ أخرجه أحمد . هامش فقه السيرة تحقيق الشيخ ناصر الدين الألبانى ص ٢٧٣ معركة أحد .

ـــ لا يخدع الداعية بتلك المقولة : إننا نتصرف فى أموالنا كما نشاء . كما قال كفار مدين فالتصرف الذى يؤذى الآخرين ليس بحق شرعاً ، وعرفاً وإنسانية .

ـــ إن الذى يتصدى للدعوة بالمواجهة هم الذين يستفيدون ماديا من بقاء الكفر فى الأرض ، وهم سادة القوم وكبراؤهم ، إنهم يضعون الحواجز أمام الناس حتى لا يؤمنوا على الرغم من أنهم تحكموا فيهم وطففوا الكيل والميزان معهم مما يدل على تناقضهم .

ـــ إن الله سبحانه يهدى للتى هى أقوم ، وأئمة الكفر يبغونها عوجاً ، والرسل الكرام وأتباعهم يسيرون على طريق الله سبحانه .

ـــ إن الداعية يجب أن يكون على خبرة بالتاريخ ، يختار منه ما يناسب دعوته ويأخذ منه العبر والعظات ؛ فقد قال شعيب ـــ عليه السلام ـــ لقومه : ﴿ **وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين** ﴾ ففى الوقت الذى دفعهم ، وصارحهم بأنهم مفسدون ، طلب إليهم أن ينظروا إلى من سبقهم ؛ حتى يبتعدوا عن هذا الإفساد ، ثم ينجوا من الهلاك .

ـــ إن المجتمع الجاهلى يقوّم الناس بما لديهم من عرض زائل ؛ غباء وضلالاً من أبنائه ، فشعيب ضعيف ؛ لأنه فقير ولولا القلة التى معه لأعدموه رجماً ، ولكنهم اكتفوا بالطرد من الوطن .

ـــ إن المجتمع الجاهلى يثير فى الناس دائما آفة العرف والتقاليد ؛ ليخدم بذلك مصالح سادته فقط ، ويتناسى التفكير ، والتأمل فيما وصل إلينا ؛ فقد يكون خليطا من دعوة صالحة ، ومما ابتدعه الناس ، وألصقوه بالدين .

ويستمر فى الابتداع ولا يعمل عقله الذى وهبه الله إياه .

ـــ إن المجتمع الجاهلى ليضيق بمجرد وجود الدعاة ؛ لأن هؤلاء الدعاة يضعون حدًّا لطغيانهم ، واستبدادهم ، وتحكمهم فى أرزاق العباد ، وإلغاء العقول ، ومنعها من التفكير ، وإعطائهم الدعاوى الكاذبة كأنها مسلمات مقطوع بصدقها .

ـــ يُفْرض المستفيدون النفعيون فرضاً على المؤمنين وقبل أن يكون للمؤمنين قوة ، ولا يملكون إلا الصبر حيث لا عتاد لهم ولا قوة .

ـــ على الداعية أن يكون صلب العود حتى ولو كان أعزل من السلاح ، لا يرهبه تهديد ولا وعيد ، ويتبرأ من الكفر وأهله ؛ حتى فى أحرج اللحظات كما صنع شعيب ـــ عليه السلام ـــ والأنبياء الكرام ﴿ **قد افترينا على الله كذباً إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا** ﴾ (٤٥) .

ـــ إن المجتمع الجاهلى يغمض بصره عن كل حسن للداعية وكأنه مجرد من كل محمدة ، ومتصف بكل نقيصة ، على الرغم من اعترافهم سابقا بغير ذلك .

فقد تعامى قوم شعيب ـــ عليه السلام ـــ عن صفاته القيمة ولم تشفع له أى صفة منها ؛ ليكون بمنجاة من الاعتداء .

ـــ إن سمو الداعية ، واستعلاءه بقوة الله سبحانه من سماته الدائمة حتى فى أحرج الأزمات .

فالأزمات التى يواجهها لا تجعله يزن القضايا بغير ميزان الله سبحانه .

ولا تجعله يتطرف فى الاستنباط لمجرد الغضب على قومه ؛ وهذا شعيب ـــ عليه السلام ـــ حين عزم القوم على الطرد يدعو بقوله : ﴿ **ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق** ﴾ .

وليس معنى ذلك سلبية منه فقد قال شعيب عن قومه : ﴿ **فكيف آسى على قوم كافرين** ﴾ .

ـــ ﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم** ﴾ صدق الله العظيم والجزاء من نفس العمل ولا يمكن لباطل أن يدوم ويستمر استعلاؤه على الحق ، وأهله حتى ولو كان أهل الحق ضعافا من حيث القوة المادية .

---

(٤٥) سورة الأعراف . الآية ٨٩ .

ـــ إن الله سبحانه وتعالى رحيم بعباده وهو أعلم بهم فعلى المؤمنين أن يتفيئوا ظلال هذا الإيمان .

الجهاد دعوة ، وإعدادا فإذا ما استعجلهم الكفر فوضوا الأمر إلى الله سبحانه ، وصبروا على حكمه ، وتمحيص قلوب عباده ؛ أيهم أثبت عودا ، وأقوى مراسا ، وأشد استمساكا بدينه .

اللهم لا تجعل فتنتنا فى ديننا ولا تجعل الدنيا أكبر همنا .

ـــ إن الله سبحانه يجعل العاقبة للمؤمنين ؛ مهما كانت التضحيات . شريطة أن يظلوا على هذا الإيمان ، متمسكين بدينه القويم دون ابتداع أو تحريف أو تبديل وأن الأمن ، والأمان ، فى دين الله سبحانه لا ظلم ، ولا عسف ، ولا تسلط ، ولا أنانية .

الكل سواء أمام الله سبحانه ـــ الفرص متكافئة والمسئولية فردية والله أعلم .